

زينب سلمي

السريفة

مهمة داخلية

تقبل عمتنا و نورنا لشفائنا و شفاء العالم

والخيال

زينب سلمي

الحرية

مهمة داخلية

تقبل عمتنا و نورنا لشفائنا و شفاء العالم

دا الخيال

الحرية
مهمة داخلية

Freedom is an inside job

By Zainab Salbi

الحرية مهمة داخلية

زينب سلبي

ترجمة حسين محمد

Copyrights © 2018 Zainab Salbi.

This Translation by exclusive license from Sounds Yrue. Inc.

حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر
الطبعة الأولى © 2020

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو إستعماله بأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الألكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والاستجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

ISBN: 978-9953-65-092-0

دار الخيال
DAR AL KHAYAL

المنارة - رأس بيروت - بناية يعقوبيان بلوك B طابق 3

لبنان تليفاكس: 009611740110

الرمز البريدي: 2036 6308

مركز الأعمال صندوق بريد 519251

مدينة الشارقة للنشر المنطقة الحرة

الشارقة الإمارات العربية المتحدة

Email: alkhayal@inco.com.lb

www.daralkhayal.com



dar.alkhayal_



dar.alkhayal



dar.alkhayal

الحرية

مهمة داخلية

تقبل عثمتنا ونورنا

لشفاء أنفسنا وشفاء العالم

ترجمة: حسين محمد

من الجلي أن زينب سلمي

تهتعت بحياة ثرية وراقية

شهدت زينب آثار الطغيان بشكل مباشر، لكونها ابنة الطيار الشخصي لصدام حسين، قبل أن تنتقل إلى الولايات المتحدة، وتصبح شخصية إنسانية وناشطة شهيرة. لكن، وبما أن السيدة سلمي كانت تساعد آلاف النساء في البلدان التي مزقتها الحروب، فإن حياتها الشخصية كانت تتجه نحو الأزمة. وفي كتاب الحرية مهمة داخلية، تشاركنا سلمي رحلتها المثيرة إلى الكمال، وكيف يمكن للشروع في رحلة كهذه أن يمكننا من خلق العالم الذي نرغب في العيش فيه.

تستكشف السيدة سلمي ومن دون أن يثنى عليها شيء لحظات محورية من حياتها الشخصية إلى جانب قصص مؤثرة ورائعة من لقاءاتها حول العالم. نتعلم من قصصها أننا إذا أردنا إحداث تغيير حقيقي في العالم، فإننا نحتاج إلى معالجة التقلبات الشديدة في قيمنا وأعمالنا وأهدافنا. وهذا يمكننا من التعاطف أكثر مع الآخرين، خاصة أولئك الذين قد لا نتفق معهم. على حد تعبير السيدة سلمي: "طالما أننا نعيش صراعاً داخلياً، فسوف نواصل العيش في صراعٍ في الخارج... إذا أردنا تغيير العالم، فعلينا أن نبدأ بأنفسنا. هذا هو الطريق إلى الحرية".

النساء على الحرية مهمة داخلية

"نادراً ما ينطوي كتاب على مرآة لأرواحنا، ويساعدنا على العثور على الشجاعة والإلهام في داخلنا. هنا تقدم لنا السيدة سلبي قصة شخصية رائعة، تقصّها بصراحة مؤثرة، والتي سيكون لها صدى عميق على النساء في جميع أنحاء العالم. تتشكل مقاربتها الإنسانية تجاه القضايا الصعبة من خلال التعاطف والذكاء والحكمة العاطفية. إن كتابات السيدة سلبي الإنسانية العميقة والحساسة والقوية ستعالج قلوب البشر.

• إليف شافاق مؤلفة قواعد العشق الأربعون The Forty Rules of Love

"إذا أردت أن تعرف ما هي القوة الذاتية الحقيقية، اقرأ هذا الكتاب. تشاطر السيدة زينب سلبي، وهي أيقونة معاصرة من أيقونات التمكين والإلهام لملايين النساء والرجال مثلي، رحلتها من بيئة الخضوع والظروف القاسية إلى الحرية الداخلية والقيادة. قال الشاعر الرومي: "لماذا تبقى في السجن عندما يكون الباب مشرّعاً على مصراعيه؟" السجن ما هو إلا أغلال من صنع العقل لشرطنا الخاص. سيفتح كتاب زينب عينك الداخلية على جمال نفسك".

← ديباك شوبرا، طبيب ومؤلف "الذات الشافية" و"جسد لا يشيخ وعقل يتخطى الزمن" الصادرين بالعربية عن دار الخيال - لبنان.

"ينبغي على الباحث الروحي الحقيقي في نهاية المطاف البحث داخل ذاته. هذا ما تفعله السيدة زينب سلبي بإتقانٍ كبيرٍ وشجاعة في كتابها الحرية مهمة داخلية. إنها توضح من خلال مشاركة اكتشافاتها بإصرار وتصميم، ما يمكن لأي شخص القيام به، إذا كان يرغب بصدق أن يكون جزءاً من خيالٍ جديدٍ لتغيير العالم".

← أليس وكر مؤلف كتابي "اللون الأرجواني" و"العالم سيتبع الفرح".

"تنبع الحرية من سرد قصتنا الخاصة، وينشأ التعاطف من الاستماع إلى قصص أشخاص مختلفين عنا. تلهمننا السيدة زينب سلبي للقيام بالأمرين. لعل كتابها يساعد في إقامة جسور لعالم أكبر وألطف بكثير".

← غلوريا شتاينم مؤلفة كتاب "حياتي في الطريق" و"الثورة من الداخل".

"ما قدمته لنا زينب سلمي في هذا الكتاب هو عمل هائل من الشجاعة. الحرية مهمة داخلية كشف عميق عن قلب وعقل زينب وآمالها في عالم أفضل. إنها تقدّم لنا مثلاً لما يمكن أن يبدو عليه البحث داخل أنفسنا، والنتائج القوية لهذه الرحلة. ونحن لسنا مدينين لها فقط بالشكر، ولكن أيضاً باتباع قيادتها الصارمة".

← ميشال دينزيل سميث صاحبة أفضل كتاب مبيعاً في نيويورك تايمز "الرجل الخفي، جعل كل العالم يراقب".

"تقدم لنا السيدة سلمي في هذا العمل المتميز والذي جاء في الوقت المناسب، طريقاً إلى الأصالة والحرية الشخصية. إنها رحلة داخلية تتطلب منا أن نراها بوضوح مطلق النور والظلام اللذين نكنّهما".

← شارون سالزبرج أحد مؤسسي جمعية تأمل البصيرة الداخلية ومؤلف كتاب "الحب الحقيقي".

"لقد كتبت زينب سلمي بالضبط الكتاب الذي يحتاج له عالمنا المنقسم والذي يستولي عليه الخوف. لقد أن الأوان لكلّ منا أن يقوم بعمله وأن يجسّد التغيير الذي نريد رؤيته؛ عندئذ فقط، ومن موقع الامتلاء، يمكننا أن نضيء الطريق أمامنا. اقرأ هذا الكتاب ومن ثم ساعد في توجيه الطريق للآخرين".

← أريانا هافينغتون مؤسسة هافينغتون بوست ومؤلفة كتاب "بشأن أن تحرر من الخوف وأن تزدهر".

"لا يمكن أن يكون ثمة وقت أكثر حرجاً لقراءة هذا الكتاب - والتصرف كما يوصي به - من الآن، في أزمنة الانقسام على نحو لا يُصدق. ففي نثر جميل، وبقصص مؤثرة على نحو رائع، تبين لنا زينب سلمي كيف يمكننا أن نفتح أنفسنا لأنفسنا - ومن ثم للآخرين - ثم نصل في الواقع، عبر الانقسامات التي تبدو مستحيلة، إلى تحقيق الشفاء للحالة الإنسانية. يجب علينا جميعاً نحن الذين نسعى إلى تحقيق العدالة - وأي شخص يسعى للفهم - أن نبدأ هنا، بالتعاطف. هذا الكتاب هو بمثابة مصلٍ لجروحنا الجماعية - نحن جميعاً بحاجة إليه الآن".

← سارو جايرامان محام، وناشط، ومؤلف "كتاب المتفرع".

"الحرية مهمة داخلية" هو شهادة رائعة على القول المأثور بأن ما نحققه فقط من الداخل يمكن أن يغيّر الواقع الخارجي. إن رحلة زينب سلمي الشجاعة باتجاه اكتشاف حقائقها العميقة وجلاء نفسها الحقيقية هي هدية ثمينة لكل من يطمح إلى أن يعيش حياته الكاملة والأصيلة. إنه أيضاً دليل أساسي للقادة المكرسين لجعل حياة الآخرين أفضل. سيتم استلهاهم القراء، الذين ينضمون إلى زينب في سعيها للحصول على الحرية الحقيقية، لمضاهاة نموذجها المتواضع والجريء".

← دوف سيدمان مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعاً "لماذا وكيف نفعل" أي شيء "معناه كل شيء".

كتب من تأليف زينب سلمي

• بين عالمين: الهروب من الطغيان: النمو في ظل صدام (مع لوري بيكولند).

• الجانب الآخر من الحرب: قصص المرأة عن البقاء والأمل.

• لو عرفتني ستهتم (مرفق بصور من تصوير رينو ميغريدي).

إهداء المؤلفه

إلى بابا، أستاذي في الحب

و أ. ب أستاذي في الحياة

مقدمة خاصة بالطبعة العربية

أهدي النسخة العربية من كتاب " الحرية مهمة داخلية " لكل الشباب والعرب، فصوتهم وجرأتهم لكسر حاجز الصمت في مجتمعاتنا العربية، هو الذي أعطاني الجرأة أن أشارك كل قصصي، من إيجابياتها وسلبياتها، في لغتي الأم، العربية.

الحرية مهمة داخلية، هو رابع كتاب لي، ولكنه أول كتاب يترجم إلى اللغة العربية، لم يكن القرار سهلاً، فالتعبير عن النفس أمام مجتمع أجنبي أسهل بكثير من من مجتمع فيه أهلي وأحبائي، ومواجهة مشاعرهم وأفكارهم والعادات والتقاليد التي تحكم المجتمع العربي، والتي ترعرعت فيها أنا، في وحدة الغربة حماية من خوفنا بالحكم علينا لما نقوم به، إن كان صحيحاً أم خاطئاً، ولكن مسار الحقيقة لن يكتمل إلا إذا شاركنا بها في قلوبنا مع من هم الأقرب والأعزّ في حياتنا.

الخوف يحمي لفترة معينة، ولكن لا يمكن له أن يبقى دائماً، للخوف الشخصي أو الاجتماعي نهاية دائماً.

في بعض الأحيان ينكسر حاجز الخوف في ثورة اجتماعية، وأحياناً أخرى في خطواتٍ يخطوها الشخص في حياته، وبهذا كل من يكسر حاجز الخوف يكون مثل شمعة تنير الطريق للشخص الآخر الذي ما يزال في كهف الخوف، وبهذا المنطق قررت أن أكسر حاجز خوفي من حكم مجتمعي العربي لأنني شاهدت شجاعة شباب وشباب عرب في كسر خوفهم، فقوتي منهم وحيبي إليهم.

بعض الملاحظات أن أشاركها قبل أن تبدووا قراءة الكتاب.

أولاً: كُتِبَ الكتاب بنسخته الأولى باللغة الإنكليزية، ولم يكن من السهل على الناشر تجاهل أصل الكاتبة التي عاشت صباها عربية اللسان. لذا لم يكتف بالترجمة إلى لغتي الأم دون العودة لي وهذا ما أصر عليه الناشر دار الخيال، قمنا بكل ما نستطيعه.

ثانياً: ستلاحظون إصراري على استخدام المؤنث والمذكر عندما أصف الشخص، أنا أعلم أن هذا غير متبع باللغة العربية، وبالرغم من كسر القواعد المتعارف عليها، فأنا أصرّ على استعمال المؤنث في كل التعبيرات،

أنا لا التزم بالقواعد وخاصة تلك التي تستبعد نصف المجتمع.

آن الأوان للغة العربية أن تشمل نساؤها في كل تعبير عن الفرد.

وأخيراً: أترككم بكل أسراري، وأطلب منكم أن تحملوها بنفس الروح التي شاركت فيها قصصي، بحميمية، هذا الكتاب عكس المثل العربي الذي يقول: "نفضح — بنشر قصصنا"، أنا مؤمنة أنه حان الوقت لأن نتكلم عن قصصنا، وبهذا التكلم نبني جسراً من الفهم والحب أكبر وأقوى من جسر الصمت التي أثبتت أنها تبعدنا بعضنا بدل أن تقربنا. التغيير الذي نريده في حياتنا يبدأ من أنفسنا ومن قلوبنا وحياتنا الشخصية وعائلاتنا ثم من مجتمعنا، وكل من يسير في حياته وواجباته بصراحة سيجد الصعوبات، وسيواجه مخاوفه ومخاوف المجتمع حوله، ولكن لا بد له أن يصل إلى حرته الشخصية بقبول أو بعدم قبول المجتمع، وعيش الحياة من مبدأ الحرية والحقيقة بدون أقنعة وأسرار، هو أنقى ما يمكن للقلب وأصح للروح والجسد، وأكثر من كل شيء، عيش الحياة بصراحة، مهما كانت صراحتنا، وحيقتنا هو أكبر تعبير عن الحب والاحترام إلى خالقنا.

وبهذا الحب أترككم بكل قصصي والقصص التي تعلمت منها الحياة، لعلها تفيد أحداً برحلة حياته أو حياتها.

زينب سليبي

الفتاة التي تغني

كان ياما كان في قديم الزمان كانت هناك فتاة منسيّة في ثوب أخضر في قاع سفينةٍ وقد نسيها الزمن. كانت يداها وقدماهما مربوطتين، وكانت تتمدد بين مئات العبيد، وأحدهم إلى جانب الآخر. كانوا في الأسر لزمنٍ سحيق، وفي أسفل القارب المعتم، لم يكن من الواضح ما إذا كانوا أحياء أم أمواتاً. كان الغبار يغطي أجسادهم.

في يوم من الأيام، بدأ الفأر يقضم حبال الفتاة، فاستيقظت. وعندما تمطّطت ونظرت حولها، كانت الحبال التي قيدتها لفترة طويلة قد تقطعت وتحللت. وبذلك كانت قادرة على الوقوف.

وعندما تحررت من القيد، نظرت إلى الآخرين من حولها ورأت أنهم قد ماتوا جميعاً في نومهم. ووقفت وحيدة وقد اعترها الخوف في الظلام في قاع تلك السفينة، ورائحة الموت تحيم على المكان. بدأت بالغناء على نحوٍ خافت. لم يكن للحن كلمات، لكنه أصدر صوتاً فريداً، صوت حياتها. وعندما اتخذ اللحن شكلاً وتعزّز صوتها، شعرت بأنها أقل خوفاً ووحدةً. سما جسدها على نحوٍ سحري شيئاً فشيئاً إلى أن دخل في واقعٍ آخر.

وجدت الفتاة نفسها في هذا العالم الجديد، في شارعٍ صاخب من شوارع المدينة حيث كان الناس يهرعون من مكان إلى آخر. وكانت السيارات تسرع وهي تطلق العنان لأبواقها. ولم تتعرف إلى أي شخص أو أي شيء. كل ما كانت تعرفه هو أنها كانت تستمر في غناء أغنية حياتها.

كان صوتها جميلاً إلى حد توقف المارة للإصغاء لصوتها. وعندما لاحظ المزيد من الناس غناءها، أخذوا يتحدثون عنها، وأصبحت تتمتع بشعبية. كان الناس يدندنون أنغامها ويسعون في إثرها أينما كانت تتجول في المدينة. وبما أن لا أحد كان يعرف من كانت، فلقد أطلقوا عليها اسم الفتاة التي تغني. وأصبحت معروفة أكثر فأكثر. وازداد عدد الناس الذين يريدون سماعها.

وذات يوم، تجمّع الناس وقاموا ببناء تمثالٍ من الطين لوضعها في داخله حتى يتمكنوا من سماعها ساعة يشاؤون. في البداية، وافقت على خطتهم، ولكن سرعان ما أدركت أن وجودها في التمثال كان أشبه بالتقييد بالحبال في أسفل تلك السفينة. فكلاهما شكل من أشكال الاسترقاق. لم تكن تحاول إرضاء أي شخصٍ بل

كانت ببساطة تغني صوت قلبها. وهذا ما أضفى التأثير على صوتها. أما البقاء داخل التمثال المظلم فكان بمثابة الاختناق.

لذا قررت أن تتحرر. فبغناء وترديد أغنية حياتها، سمت مرة أخرى إلى واقع آخر، واقع مختلف للغاية عن المدينة الصاخبة. وفي هذا المستوى الثالث من الواقع، وجدت امرأة ترتدي ثوباً أسود، غطاء رأس أسود، وقناعاً أسود. كانت المرأة تحرك مرقاً يصدر الفقاعات في وعاءٍ كبيرٍ على النار. ذهبت الفتاة نحو القدر الأسود. وعندما اقتربت، تحدثت المرأة.

وقالت على نحوٍ غامض: «يجب أن تقبلي الشر».

تراجعت الفتاة التي كانت تغني وقد اعترها الخوف. لم يكن بوسعها قبول الشر. لكن ومع كل خطوةٍ كانت تتراجع فيها الفتاة، كانت المرأة تتوقف عن تحريك المرق. لكن الفضول كان لا يزال يعترى الفتاة، لذلك مضت إلى الأمام مرة أخرى.

كررت المرأة التي كانت ترتدي القناع الأسود، «يجب أن تقبلي الشر». فتراجعت الفتاة مرة أخرى، وقد اعترها الخوف. لم يكن بوسعها قبول الشر. لكن ومع كل خطوةٍ كانت تخطوها إلى الوراء، كانت تتوقف المرأة التي ترتدي الحجاب الأسود عن تحريك المرق. وتوقف كل شيء.

أدركت الفتاة أن كل ما كانت المرأة تحاول فعله لا يمكن أن يستمر إلا إن هي قبلت الشر. وفي نهاية المطاف، سيطر الفضول عليها. أرادت أن تعرف ماذا سيحدث إن استمر الطهي. اقتربت من الرجل مرةً أخرى، وعندما طلبت منها للمرة الثالثة قبول الشر، وافقت. وعلى الفور، بدأ المرق يغلي ويصدر فقاعات، وبدأت المرأة بالتحريك بنشاط أكبر. تحدثت المرأة: «الآن يجب أن تختاري واحداً من تلك الأقنعة البيضاء المعلقة على الحائط خلفك».

نظرت الفتاة إلى جدار الحجب. لم يرق لها أيٌّ منها. فالتفتت إلى المرأة وأشارت إلى وجهها وقالت: «أريد قناعك».

«لم يطلب أحد مني قناعي من قبل»، قالت المرأة، وهي في حيرة من أمرها. «لكن هاك، ارتديه».

حلّ الشر حالما ارتدت الفتاة التي تغني القناع الأسود. لم يكن الشر بهيئة رجل أو امرأة. كان كائناً من دون وجهٍ في رداءٍ فحمي اللون. ومد الشر يده ذات القفاز الأسود الفاحم للفتاة كي تمسكها. فعلت ذلك بتردد، وابتعدا، تاركين المرأة خلفهما.

سارَ والفتاة جنباً إلى جنب حتى بلغا أرض الشر. كان حقلاً ضخماً ومظلياً ومزدحماً بالناس. وكان البعض في حالة الاستلقاء، والبعض الآخر في حالة الوقوف. وكانت شبكة من العنكبوت تغطي الجميع. اتسعت عينا الفتاة. كان مشهداً مرعباً. وقد كان الناس مستسلمين للعيش بهذه الطريقة، عالقين إلى الأبد في أرض الشر.

قال الشر: «انظري إلى كل هؤلاء الناس - إنهم في هذا الحقل بسبب شيء ارتكبوه ويخجلون منه، فبعضهم سرق، وبعضهم كذب، وبعضهم قام بفعل جنسي. خزيهم هو الذي جلبهم إلى هذا المكان». وتابع الشر قائلاً: «ما لا يعرفونه هو أن لديهم خيار. فأنا لا أبقئهم هنا بالقوة على الإطلاق. بوسع كل منهم

الابتعاد عن هذا المكان. كل ما عليهم فعله هو الإقرار بما فعلوه والتحدث عنه. ثم، يمكنهم المغادرة. بوسع أي شخص فعل ذلك. ولكن عندما يكون خوفهم وخزيهم أقوى من قدرتهم على القيام بذلك، فهم لا يتخذون هذا الخيار.

أدركت الفتاة أن السبب الذي كان يحملها على قبول الشر كان رؤية هذا الحقل. كانت في حاجة إلى فهم سبب بقاء الأشخاص عالقين في أرض الشر. كانت تعتقد أن الشر هو الذي يبقينا مقيدين بهذه الشبكة العنكبوتية اللزجة. وليس الخزي والخوف من شرهم.

كان الشر يريد أن يظهر لها شيئاً آخر، لذلك استمرّ في المشي، وذهبا إلى مبنى، وهما يعبران باباً عملاقاً تلو الآخر، وينتقلان من غرفة إلى أخرى. وفي نهاية المطاف دخلا غرفة صغيرة حيث كان هنالك صندوق في وسطها. فتح الشر الصندوق وفتح صندوقاً بداخله. وفي هذا الصندوق كان ثمة صندوق آخر أصغر. فتح الشر ذلك الصندوق واستمر في الفتح حتى وصل إلى أصغر صندوق. ففتحه الشر بعناية. كان الصندوق يحتوي على قلب. كان ذلك القلب هو قلب الشر الذي تم إخفاؤه لفترة طويلة جداً من الزمن. كان الشر يظهر ذلك لها وحدها.

قال الشر: «الشخص الوحيد الذي يغني أغنية لحياته الحقيقية يمكن أن يحمل هذا القلب». عرض الشر قلبه عليها. «من فضلك خذيه معك. أنت حرة في مغادرة هذه الأرض».

نظرت الفتاة إلى القلب ورأت أنه كان مجرد قلب ينبض بشكل طبيعي، لم يكن جيداً ولا سيئاً. تناولت القلب وابتلعتته. الآن، أصبحت تمتلك الشجاعة.

ولمغادرة أرض الشر، كان يتوجب على الفتاة التي تغني أن تعبر جسراً مصنوعاً من الحبال وأن تسير وحيدة عبر غابة مظلمة. كان الجسر مصنوعاً من ألواح خشبية نصف مكسورة وحبال مرتخية بالكاد تماسك مع بعضها. كانت الغابة المظلمة التي تبدو على الجانب الآخر محفوفة بالمخاطر. أصاب الخوف الفتاة التي تغني بالشلل. ولم تكن تعرف ما الذي يتوجب عليها فعله.

فجأة تذكرت ما ساعدها على مغادرة قاع السفينة، أغنية حياتها. فبدأت بالغناء من كل قلبها، وعندما استغرقت في الصوت مرة أخرى، أصبحت في غاية السعادة. فأنغامها وصوتها جلبا لها الفرح، ومنحها ذلك الفرح قوة عبور الجسر. لقد ساعدها على المضي خلال الغابة المظلمة دون خوف. واصلت الغناء فقط. تذكرت أن رؤية خزيها وخوفها كان خيارها. لقد كان خيارها أن تكون حرة. وخففت سعادتها من مخاوفها ومنحتها المزيد من الشجاعة.

غنت الفتاة حتى ارتقت إلى الطبقة النهائية من الواقع. هناك وجدت نفسها في حقل أزرق فاتح. حيث كان الناس جميعاً ينتقلون بحرية، يرقصون بسعادة. وكانوا يضحكون، ويغنون، ويلعبون، ويتحدثون، ويعبرون عن أنفسهم علانية دون خوف أو وجل. ابتسمت الفتاة. وعندما خطت خطوة إلى الأمام لولوج أرض الحرية، أدركت أنها ستكون المرة الأولى التي يختبر فيها قلب الشر - القلب الذي ابتلعتته - الجمال والفرح والحرية بعد حبسه في صندوق لما يمكن أن يكون دهرًا من الزمن. وعندما أدركت هذا الإدراك، خطت إلى حربتها الخاصة.

مقدمة

نعيش في زمنٍ من الظلال. ما هو قبيح في عالمنا يخرج من الطابق السفلي الذي أقفلناه لفترة طويلةٍ من الزمن. تنقسم الدول والمجتمعات والأفراد إلى نقيضين: اليمين واليسار، الأغنياء والفقراء، مواطن وأجنبي، مسلم ومسيحي، حاكم ومتمرد، صاحب عمل وموظف، رجل وامرأة، جميعنا يحمل وجهات نظر مختلفة إلى حدٍ كبيرٍ تبدو أنها لن تتوافق أبداً. وهذا ما يخلق الذعر والارتباك.

وبصفتي مسلمةً عراقيةً وأمريكيةً أمضت جلَّ حياتها في خدمة ضحايا الحرب، وخاصة النساء، فقد عشت في جوٍّ من عدم الاستقرار والاضطراب، وعرفت دكتاتوريين وقادةً في العالم، وهربت من رصاص القناصة وحاربت من أجل العدالة. لقد حاولت الانقلاب على بعض الأشياء المصيبة والخاطئة في العالم، من خلال عملي الإنساني في مناطق الحرب، ثم في مشاريع وسائل الإعلام التي كانت تشارك بعض صراعات وانتصارات الناس في جميع أنحاء العالم، من حركة الجندر الثالث في الهند إلى زوجات داعش في العراق وصولاً إلى الشابات الأمريكيات المسلمات اللواتي قررن ارتداء وشاح الرأس. أتمتع بمعرفة عميقة بالصراع والنضال والانقسام. وتعلّمت أنه عندما نقود بغضبٍ وخوفٍ، فإننا نصبح في نهاية المطاف نشبه المعتدين الذين نقاتلهم. نصبح الشيء الذي نكرهه.

من المهم فهم هذا الآن على نحو خاص. ففي جميع أنحاء العالم، نشير بأصابعنا بخوف وغضبٍ إلى الأعداء والمعتدين المتصوّرين من حولنا. إننا نبحث عن «الأخر» لمواجهة وقد اعترانا الخوف والارتباك. كشخص يسافر بين عالمي الغرب والشرق بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، أرى الأصابع المختلفة وهي تشير. عندما أكون في الشرق الأوسط، أسمع أن كل شيء من أميركا مؤذٍ. فكُلّ الدمار والثورات والاضطهاد - وحتى داعش - تنبع من غطرسة أميركا وسوء استخدامها للسلطة. ومن سخرية القدر، أي أسمع نفس الشيء من الطرف الآخر: فكل هذا الإرهاب، وعدم الاستقرار، والخوف، والتشريد الجماعي للأشخاص بالنسبة إلى الأميركيين هو بسبب فساد وحرمان الناس «الآخرين» هناك، في تلك الأماكن البعيدة. في الواقع، ثمة الكثير من الأشخاص الذين يمكننا توجيه الأصابع إليهم. إذ يمكننا الإشارة إلى الأشخاص الذين صوتوا لصالح ترامب أو بريكست أو في الاستفتاءات في كاتالونيا أو كردستان. يمكننا أن

نشير إلى الهجرة الجماعية من سوريا أو إلى قوة روسيا المزعزعة للاستقرار. أو يمكننا أن نوجه أصابعنا أقرب إلى الوطن، إلى الأشخاص الذين يمارسون عادات دينية مختلفة عما فعله، إلى الرؤساء الذين يعيقون تقدمنا، أو إلى أفراد العائلة الذين يسيئون إلينا.

يمكننا فهم ذلك، لكن ليس موضوع هذا الكتاب كيفية وصولنا إلى هنا أو على من يقع اللوم. يدور موضوع هذا الكتاب حول «ما العمل الآن؟» الآن ونحن نرى أنفسنا نشير بأصابع الاتهام إلى بعضنا البعض، ماذا نفعل حيال هذا الاضطراب؟

تحتوي كل حياة، وكل مكان، وكل ثقافة، وكل فرد جانباً خيراً وسوءاً وقبحاً في داخله. وكلّ منا لديه قصة، وعادةً ما تكون معقدة. عندما نقوم بتشويه أي شخص أو إضفاء الصبغة المثالية عليه، فإننا نزيل أنفسنا من الصورة ونبسّط الوضع على نحو مبالغ فيه. فنحن نقوم بذلك عندما نعتقد أن جميع الرجال الأفغان مضطهدون وأن جميع الكنديين صانعي سلام أو عندما نقول إن جميع المحافظين منغلِقون وقساءة، في حين أن جميع الليبراليين منفتحون ومتعاطفون. كما نقوم بذلك عندما نعتقد أن جميع المدراء الذكور يتسمون بالتخويف وأن جميع المديرات الإناث يُعتبرن قدوة. وهذه التعميمات قد تكون مريحة، وقد يحتوي بعضها على ذرّة من الحقيقة، لكن لا يمكنها أن تكون صحيحة تماماً. وعندما نضفي صفة الشيطنة على شخص ما أو نضفي عليه صفة المثالية، فنحن نفقد أيّ إحساس بأننا نحمل الخير والسوء والقبح في داخلنا كذلك. فنحن نغفل عن حقيقة أننا جميعاً لدينا قصة. وأننا جميعاً نختر من قصصنا.

نحن بحاجة إلى العثور على طريقة أخرى للتعامل مع ذعرنا وارتباكنا. آن الأوان لذلك. ونحن لا نحتاج فقط إلى الحديث عن الخطأ في عالمنا، بل نحتاج أيضاً لإيجاد طريقة للتحدث مع بعضنا بعضاً وعبر الانقسامات. يريد الكثير منا أن يكون بطل فيلمه الخاص. نريد أن نرى أنفسنا في جانب الخير وأن نقول الحقيقة للسلطة مثل وندر وومن أو سبايدر مان. إنها نزعة نبيلة، لكننا لا نرى الصورة الكاملة دائماً. ونحن لا نفهم ما هو على المحك على الجانب الآخر. ونحن بالتأكيد لا نفهم دورنا في ذلك. ما الذي قمنا به بأنفسنا، كأشخاص صالحين، وكأشخاص أبرياء ومهتمين، لتشجيع الانقسام والاضطراب المزعجين؟

نحن بحاجة إلى طريقة جديدة للتفكير في هذا الوقت المستقطع. ونحن بحاجة إلى لغة جديدة من أجل التواصل مع أولئك الذين نعتبرهم «الآخرين»، المختلفين عنا، والذين يصعب علينا فهم أفعالهم. نحن بحاجة إلى تسخير رغبتنا في عمل الخير ووضعها في الاستخدام الأمثل. لأنه ما لم نعرف ما يعنيه أن نكون أبطالاً في كلّ السبل الصغيرة في حياتنا - في زيجاتنا وأسرنا، وفي أعمالنا وحياتنا الاجتماعية، وفي طريقة حساب أعمالنا الماضية وقيمنا الحالية - فإننا لن نصبح ذاك البطل الذي نتخيله. إذا كنا نتحدث فقط عن القصص الكبيرة والصدمات الكبيرة الكائنة هناك، فيمكننا بسهولة الاختباء من قصصنا الخاصة والظلال الخاصة الكائنة داخل أنفسنا، فتفاعلنا وبرّنا الذاتي سيخلق المزيد من الانقسام والاضطراب والغضب والكراهية، ثم نصبح قوة استقطابٍ. وبينما نوجه أصابعنا باتجاه «العدو»، فنحن أنفسنا نخلق الأعداء.

يبدأ التغيير الحقيقي عبر تجاربنا الخاصة. وهذا يعني امتلاك الخير والشر والقسوة في أنفسنا - وذلك ما يجعلنا جميلين. ويعني التحكّم بتعقيد عواطفنا وأحلامنا، فضلاً عن الانزعاج من أخطائنا وحظنا العاثر. وهذا يعني أن نكون مستقلين وواعين لأفعالنا. إذن نحن لا نثقّف حياتنا. نحن لا ننتقل في عملنا من البساطة المتمثلة في مجرد التفكير في الأشياء أو الرد عليها، ثم نتحدث من أعماق ذواتنا المعروفة. نحن

تتمسك بحكمة تجاربنا الحية. ولم نعد متاحين للآخرين الذين يريدون استغلال الظلال التي نحملها والتي لا نستطيع إظهارها كي يتلاعبوا بنا.

إن مشاطرة ما قمت به أنا وآخرون في بعض الأحيان أمرٌ مخيف، ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرف أنها أصلية مع نفسي، ومعك، ومع العالم الذي نعيش فيه. إنها رحلة باتجاه الداخل، رحلة الشجعان، ورحلة التحول. لن أكذب: إنه حقًا طريقٌ وعزٌّ. ولكنه يستحق تجشم عناء السفر عليه بقصد الحصول على الحرية المطلقة التي نكتسبها شخصيًا وما نساهم به في رفاهية الجماعة.

وبهذه الروح أشاطر قصصي وتجاربي الخاصة في هذا الكتاب، بالإضافة إلى قصص وخبرات العديد من الأشخاص الآخرين الذين يتعاملون مع حقائقهم الأساسية وجهًا لوجه. ومن خلال تبادل هذه القصص بصرحة، أتمنى أن أضيء هذا الطريق لأولئك الذين يشعرون أيضًا أنهم مدعوون للتواصل مع أنفسهم. لا يمكننا التحدث عن أي قيمةٍ ظاهريًا إذا لم نفهمها أولاً داخليًا. بدأت بالصحو على ما هو جيد وسيء وقبيح في داخلي عندما قررت أن أكتب مذكراتي، بين عالمين: الهروب من الاستبداد: النشأة وفي ظل صدام، والذي نُشر في عام 2006، ويكشف عن الحقائق التي كان الاعتراف بها مؤلمًا جدًا في معظم حياة البلوغ لدي. عندما صحت وبدأت في غناء أغنية حياتي، كان عليّ أيضًا أن أحسب ما الذي انكسر في داخلي. لم أكن أرغب في مواجهة الأحلام والمثل العليا والسلوكيات والمواقف التي لم تنجح، ولا المواقف التي كانت خارجة عن إرادتي. لم تكن كتابة تلك المذكرات بالأمر السهل، كما تحدثت عنها في الفصل الأول، ولكنها كانت ضرورية. كان طعم الحرية الذي اكتسبته مما كتبت، وصرحت به من حقائق لذيذاً إلى حد الهمني تفحص حياتي كلها بهذه الطريقة.

قادتني هذه الصحو إلى الكشف عن جميع طبقات الكذب الأخرى في حياتي. لم يحدث ذلك بين عشية وضحاها، وكان ذلك مؤلمًا في بعض الأحيان، كما ستقرأ: كان من الصعب عليّ ترك زوجي اللطيف والمحب عندما تعثر زواجنا. كان من الصعب التنحّي عن رئاسة منظمة (النساء من أجل النساء الدولية «Women for Women International»)، المنظمة التي أسستها، والتي ساعدت مئات آلاف النساء حول العالم على مدى عشرين عامًا. وكان من الصعب عليّ مواجهة عار فهم أنني أيضًا قد أكون متعجرفة. في بادئ الأمر أصابتنى رؤية «الأخر» داخل نفسي بالرعب والاكئاب. واستغرق الأمر بعض الوقت مني حتى أدرك أنها كانت بمثابة دعوة مهمة للاستيقاظ.

اكتشفت في عملية الكشف عن أسراري ومخاوفي من خلال كتابة مذكراتي أنني أستطيع أن أثق في عملية تفكيك طبقات حقيقة نفسي. وقادتني هذه الثقة عبر دروب لم أدرك أنها كانت مفتوحة أمامي. اكتشفت ما يعنيه أن تكون سعيدًا حقًا. وأدركت جمالي الخاص، وأنه كان موجودًا طوال الوقت. واجهت خوفاً ووجدت أنني يمكن أن أكنّ التعاطف حتى بالنسبة إلى من أربني. وتعلمت أنا، التي عُرف عنها أنها مقاتلة قوية، جمال وقوة الاستسلام.

فإذا لم نستغل الوقت للهدوء، والانتقال إلى الداخل، والاعتراف بما حدث، ومعرفة من نحن بكل خيرنا وقبحنا، فإننا نقوم بالتمثيل. وعندما لا نغني أغاني حياتنا، نصبح غاضبين، أو بارين، أو قساة، أو حتى عنيفين. يحدث هذا عندما نضيع أنفسنا في نصف الحقائق المتلوية أو الأكاذيب الصريحة.

رأيت في رحلتي الداخلية أننا جميعًا نحتاج للتعمق أكثر، للكلام والعيش وفقًا لقيمنا الحقيقية، وليس وفقًا لتلك التي نعتقد أنه من المفترض أن تكون لدينا. نحتاج لرؤية ظلالنا ومعرفة ظلامنا. ونحتاج لفهم بُعد حقائقنا الأعمق، ذاك البعد الذي يكمن خلف توجيه أصابع الاتهام. عندها فقط يمكننا الحديث والعمل في تناسق. عندئذ، يمكننا أن ننظر إلى ما هو مظلم في عالمنا الآن ونسأل، بصراحة، ومن دون جدول أعمال، «لماذا يحدث هذا؟» بمجرد أن يصبح النور والظلام أكثر تكاملًا، تتغير أصواتنا الاحتجاجية من أصوات نباح أجش تجذب البعض ولكنها تنفر الآخرين، إلى دعوة رنانة يستطيع العديد من الناس سماعها.

تُنشئ الصحوة جسرًا لأصالتنا. وبالصحوة تحصل محادثة أكثر صدقًا داخل أنفسنا ومع الآخرين. يمكننا أن نرى ظلالنا وأنوارنا، وشياطيننا وجمالنا. يمكننا التحدث عن القضايا الكبرى بمصداقية وسلامة. فعندما نصحو، يمكننا الحصول على طريقة أكثر صدقًا للارتباط بالأشخاص الأقرب إلينا وكذلك بأولئك الذين لم نفكر أبدًا في حياتهم. عندئذ يمكننا البدء بفهم أفضل للعالم من حولنا. فقط عندما بدأت برؤية «الآخر» داخل نفسي تمكنت حقًا من رؤية «الآخر» فيهم، في «المحافظين» في أميركا، و«عرب» فرنسا، و«الأصوليين» في الإسلام، وفينا جميعًا. من هناك، نبدأ بسدّ الفجوة بيننا وبينهم، بين «الآخرين» العديدين هناك، وبين «الآخر» الداخلي الذي نعيشه كل يوم. البطل الحقيقي هو الشخص العادي الذي يمكن أن يحمل سيف الحقيقة ويخبر عن حقيقة نفسه الكاملة، في صفاتها الجيدة والسيئة والقيحة. إنها تختار خياراتها انطلاقًا من هذا الفهم. كأبطال نمضي قدمًا من دون خوف وغضب، بل في استقامة وحب ورؤية. فنحن نعمل انطلاقًا من قوة عمودنا الفقري بدلًا من تقطع أنفاس صدرنا.

إن امتلكنّا شجاعة النظر إلى الداخل واحتضان الحقيقة في حياتنا - الحقيقة كاملة - فإننا قد نكتسب الشجاعة والمصداقية للنظر إلى الخارج ونصبح قوة تغيير كبيرة في هذا العالم. وسنشاهد دورنا الخاص في العالم الذي أنشأناه. وعندئذ سنندفع باتجاه شيء ما، ولا نندفع ضده. وسيحدث بالضرورة التغيير الذي ننشده، انطلاقًا من استقامتنا وقيمنا الجماعية.

إننا نملك جميعًا الأدوات التي نحتاج لها للبدء. إنه بسيط حقًا لأن كل ما نحتاج له هو أنفسنا. إنه يبدأ بنا.

الفصل الأول

قصّ قصصنا

«يمكن أن يكون هناك علاج حقيقي
فقط عندما نقصّ قصصنا»

لقد كانت ديناميكية «نحن» مقابل «هم» مجرد كيفية رؤيتي للعالم لوقت طويل. فكرت بمصطلحات الخير والشر، العدل والجور، الحرية والاضطهاد. كنت أنظر إلى الأميركيين من حولي في بلدي الذي تبنيتُه الولايات المتحدة على أنهم أحرار وشجعان، في حين كان العراقيون في الوطن الذي خلفته ورائي مضطهدين ومُضحى بهم. كانت أميركا أرض الحرية، في حين كان العراق، حيث وُلدت وترعرعت، خانقًا للأنفاس كالسجن.

بما أنني عشت معظم حياتي في أميركا وأقلها في العراق، وبما أنني عملت في العديد من البلدان التي دمرتها الحرب في جميع أنحاء العالم، أدركت ببطء أن الخير والشر والقبح أمورٌ موجودة في كل مكان. فالأذى والألم لا يصدران فقط عن ديكتاتور سلطوي أو زوج مسيء، بل كانا يصدران أيضًا من خلال كلمات وأفعال الأميركيين الذين يدعون الاستنارة، والذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم روجيون ومنفتحون وملتزمون بالنمو الشخصي. لقد كانت هذه الرؤية، - أنه لم تكن هناك أية مدن فاضلة في هذا العالم بعد كل شيء - أشبه ما تكون بالسقوط من السماء.

تكمُن المشكلة في الكيفية التي أضفيت فيها الطابع الرومانسي على مفهوم «نحن» وصفة الشيطانية على مفهوم «هم». اعتقدتُ أن هناك ثقافة ما وطريقة حياةٍ ما تتفوق على الأخرى. كنت مخطئةً في ذلك. وفتح هذا الإدراك الأبواب لمزيد من الإدراكات. ربما سببت الأذى لبعض الناس على الرغم من أنني معروفة جدًا بكوني شخصًا ساعد الآخرين ولم يخنهم. لقد جسدت حياتي قيم ناشطة خيرية تعمل مع الفقراء ومع ضحايا الحرب، فكل ما فعلته كان من أجلهم. لكنني بدأت أرى أنه في بعض الأحيان ما كنت أعتقد أنه جيد لم يكن مثاليًا على الإطلاق، بما في ذلك نفسي. إذ أنني لم أكن مستثناة من الشر. وأنا أيضًا، كانت تحيط بي الظلال.

بغض النظر عمّن نحن أو من أين أتينا، فإن لدينا جميعًا قصة ما. إن قصة حياتنا تحكي عن صلاحنا ومعاناتنا، وامتيازنا وتواطئنا، ونورنا وظلنا، والمزيد. لدى قصتنا لحنها الخاص والانسجام والإيقاع والنغمة، ومعظمنا يخفي القصة الكاملة لحياتنا ويروي الجزء الجيد فقط. أنا أعلم ذلك. لقد فعلت ذلك!

لم أدرك أن لدي قصة أشاركها مع العالم الأوسع حتى التقيتُ نابتو، وهي امرأة كونغولية في أوائل الخمسينات من عمرها. ظننت أنني أساعدها بعد أن تحطمت حياتها في هجوم أثيم لعصابات مسلحة، وفي حقيقة الأمر منحتني حكمةً غيرت حياتي. التقيت نابتو في عام 2003 في جمهورية الكونغو الديمقراطية عندما كنت في الرابعة والثلاثين من عمري وكان قد مضى أكثر من عقد من الزمان على عملي مع ضحايا الحرب. كانت زيارةً مبكرةً إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية لمعرفة ما إذا كان بإمكاننا توسيع العمل الإنساني لمنظمة نساء من أجل النساء الدولية، وهي منظمة أسستها في الولايات المتحدة في عام 1993. إضافةً إلى تقديم مساعدةٍ ماليةٍ فوريةٍ للنساء الناجيات من الحرب، كنت أحرص دائمًا على الاستماع إلى قصص النساء. كانت النساء بحاجةً لأن يُصغى إليهن. كما أردت أيضًا التمكن من رواية هذه القصص للمشاركات في منظمنا. كانت معرفة الحقائق الأليمة التي واجهتها نساء مثل نابتو تساعد في زيادة الدعم للنساء الناجيات من الحروب في كل مكان. وبمرور الوقت، كنا نقدم أيضًا التعليم والتدريب المهني للنساء. عندما التقيت نابتو، كنت قد استمعت لآلاف القصص مثل قصتها، قصص نساء تعرضن للسجن في معسكرات الاغتصاب في البوسنة، ولنساء كنَّ ضحايا الإبادة الجماعية في رواندا، أو نساء حرمتهن طالبان من حقوق التعليم وغيرها من الحقوق الأساسية في أفغانستان. لقد استمعت إلى قصص لا حصر لها عن نساء قمن بكل ما في وسعهن لإبقاء عائلاتهن على قيد الحياة، وتغذيتها والإبقاء عليها مجتمعة. في كثير من الأحيان، يتجاهل الإعلام الآثار والصدمات التي تعاني منها النساء في الحرب. أردنا العثور على طرقٍ لدعمهن بما أنه كان لدينا العديد من النساء الأخريات.

كانت قصة نابتو مرعبة ولكنها لم تكن فريدةً من نوعها. بدأت قصتها عندما هاجم فصيل من المتمردين العنيفين قريتها. عندما رأتهم قادمين، اختبأت تحت سريرها، لكن المتمردين أفلحوا في العثور عليها وعلى بناتها الثلاث اللاتي كن في سن التاسعة، والحادية والعشرين، والثانية والعشرين. أجبرهم الرجال على الاستلقاء على الأرض، وقد فتحن أذرعهن وسيقانهن، وهم يدورون في إلحاح جامح ليأخذوا دورهم. قاموا باغتصابهن جميعًا. كان ثمة الكثير من الرجال حولها وحول بناتها بحيث أن نابتو لم تستطع عدّهم. وأمروا ابن نابتو بفتح رجلي والدته أثناء اغتصابها. ثم أمروه بأن يغتصب أمه. وعندما رفض، أطلقوا النار على قدمه.

ولم يتوقف عنف المتمردين عند هذا الحد بل قاموا بنهب منزل نابتو، وسلبوا ما أرادوه وحرقوا كل شيء آخر، المنزل، والملابس، وكل طبق، وعصا الأثاث. تركوا نابتو وبناتها عراة. هرع الجيران الذين نجوا من هجمات المتمردين وأعرضوا كلاً منهن قطعة من القماش لاستخدامها كلباس. عندما التقيت بنابتو بعد فترة وجيزة من ذلك، كانت قد انتقلت من قريتها خوفاً من هجوم آخر. وقد كانت ترتدي الثوب نفسه الذي أعطاه إياه جيرانها في ذلك اليوم الرهيب. كان الثوب الوحيد الذي تملكه. وكانت قد صنعت حذائها من مواد التقطتها من أكوام القمامة في حيها الجديد.

بالنسبة لجميع الفظائع التي شاهدها على مدى سنوات عديدة لم أتوقف أبداً عن الشعور بالصدمة تجاه قسوة الإنسان. فعلى الرغم من أنني كنت أحاول على الدوام التحكّم بدموعي أمام النساء اللواتي كنت أجري المقابلات معهن، إلا أن دموعي لم تجف أبداً. وسينتابني القلق إنجفت.

عندما أنهت نابتو سرد قصتها، نظرت في عيني وقالت: «لم أقص هذه القصة إلى أي شخص آخر غيرك». أخذت نفساً عميقاً. وقلت: «أنا قاصة يا نابتو. وأنا أتحدث عن القصص الشبيهة بقصتك في جميع أرجاء العالم لحشد الدعم والانتباه لما يحدث للنساء في الأماكن التي مزقتها الحروب مثل جمهورية الكونغو الديمقراطية. هل تريدني أن أبقى على سرية قصتك؟»، كان يجب عليّ أن أكون صادقة معها. فالدعم الذي كنت سأجمعه في استخدام قصتها لن يذهب جميعه لها. بعض ذلك الدعم من شأنه أن يذهب إليها، والبعض الآخر من شأنه أن يذهب لمساعدة العديد من النساء الأخريات مثلها. ابتسمت وهي تقول: «لو كان بوسعي إخبار العالم كله بقصتي، كنت سأفعل ذلك، فربما عندما يسمع العالم ما حدث معي، سيتجاوب ويتصرف لمنع هذا العنف ضد نساء أخريات. لكن ليس بوسعي ذلك. أنتِ أخبري العالم ولكن لا تقولي للجيران. نسمع بين الحين والآخر حكمةً تصيبنا كسهم مباشر في مراكز قلوبنا. كانت هذه لحظة من تلك اللحظات بالنسبة لي. كانت نابتو أميةً وفقيرةً وبلا مأوى، وكانت ضحيةً عنفٍ مروّع. ومع ذلك، كانت تمتلك وضوحاً عميقاً بشأن العلاقة التي تربط بين قصة امرأة واحدة والمجموعة الأكبر من قصص النساء. كانت تعرف أنه إذا ما كسرت امرأة صمتها، فقد تساعد النساء الأخريات على تجنب ما عانتها هي نفسها. فإن عرف العالم، فإنه يمكن أن يتدخل ويوقف الفظائع التي أدت إلى مقتل ملايين الأشخاص ومئات الآلاف من النساء والفتيات اللاتي تعرّضن للاغتصاب.

عانقت نابتو ووعدت بقص قصتها. وتحدثت إلى طاقميّ بخصوص حصول نابتو على مساعدة فورية للبدء في إعادة بناء حياتها. ثم غادرت المكان. كان أمامي خمس ساعات بالسيارة، على الحدود القريبة من كيغالي، عاصمة رواندا، لإجراء المزيد من الاجتماعات والمزيد من المقابلات. عندما دخلت السيارة، بدأت بالبكاء، لم أذرف دموعي فقط من أجل نابتو وما قاسته، بل كانت أيضاً تعبيراً عن خجلي من نفسي.

كانت نابتو تمتلك الشجاعة التي لم أكن أمتلكها. لقد فقدت كل شيء، لكنها كانت لا تزال تمتلك صوتها، وتريد استخدامه. لن أكون أنا، إذ أخفيت قصتي الخاصة وتظاهرت بأنني لا أملك قصة. كانت وظيفتي هي حمل النساء الأخريات على كسر صمتهن وتبادل قصصهن. لم أرغب أبداً في المخاطرة بمشاركة قصتي. معظم الوقت كنت أقول لنفسي، ليس لدي قصة لأرويها.

كالعديد من النساء المتعلمات والليبراليات والناشطات، كنت شغوفةً بمحو النساء الأخريات اللواتي كنت أعتبرهن أكثر حرماناً مني. إذ أنني نشأت في أسرة من أسر الطبقة المتوسطة العليا، وسافرت جميع أنحاء

العالم، وارتدت المدرسة والجامعة، وتمتعت بسلامة وأمن نسبي. في رأيي، ما كابדתه أنا وعائلتي في العراق، حتى مع صعود صدام حسين إلى السلطة، لم يكن بشدة أو تطرف ما قاسته أولئك النسوة - أولئك النساء اللواتي لم يكنن فقيرات فحسب، بل نجون من عنف يصعب تصوّره. كانت امتيازاتي المادية تمنحني تغطية سهلة: إنسانة مثلي لم يكن لديها قصة. لكن تحت هذا الغطاء، كنت أشعر بالإحراج في مشاركة كامل تجربتي. فكيف بوسعي أن أكون ناشطة قوية من أجل حقوق المرأة في وقت كنت في زواج تقليدي رتبته الأهل، وفي وقت كنت فيه مُغتصبة، وكنت أعاني من جميع أنواع المخاوف والشكوك والترعرع في ظل الديكتاتورية؟

كنت أبشر بالتمكين (أخذ زمام المبادرة بقرار ما نحو القوة أو التطور أو التحرر)، إما انطلاقاً من الجهل أو من الثقة الذاتية، كما لو أنني كنت أملك وأتقن سلطتي الخاصة كامرأة. لكنني لم أكن أتقن ذلك. فأنا أطلب من نساء مثل نابنتو فعل شيء لم أكن قادرة على فعله بنفسي. لقد طلبت منهن أن يخبرن العالم بأسره عما حدث لهن، على الرغم من مخاوفهن من أن يتم الحكم عليهن، أو أن تنذهن عائلاتهن ومجتمعاتهن، ويرغم المخاطر الحقيقية التي ترافق ذلك. لكنني لم أكن على استعداد لفعل الشيء نفسه. لم أستطع فهم المخاطر التي كنّ يجازفن بها بأية طريقة شخصية. والحقيقة هي، أنني بإخفائي لما عشت فيه، والاعتقاد بأنها لم تكن قصة كبيرة، كنت أوجد تمييزاً بين «نحن» و«هم»، أتاح لي البقاء منفصلة عن النساء اللاتي كنت أخدمهن. مثلي مثل العديد من العاملين في مجال المساعدات الإنسانية حسان النية، كنت أعمل كمنقذة على نحو لا واع. وأنظر للنساء اللواتي كنت أعمل معهن على أنهن ضحايا عاجزات بحاجة إلى الإنقاذ. لم يمنحني هذا الموقف أي ادعاء بالمعاناة، بينما لم يمنحني منح تلك النسوة أي ادعاء بالحكمة. كنت أنظر إلى العالم من خلال نموذجين منفصلين لا يتطلبان مني الظهور على حقيقتي.

عندما دخلت أخيراً الفندق في كيغالي، رواندا، كان الكثير من التفكير والبكاء قد أصابني بالإرهاك، لكنني كنت واضحة التفكير. كنت أعرف أن خيارين كانا مائلين أمامي: الحفاظ على صمتي وترك العمل الإنساني، أو كسر صمتي والاستمرار في العمل مع منظمة النساء من أجل النساء الدولية. لم يكن ذلك اختياراً بسيطاً. فقصص قصتي كان يعني كسر شفرة الصمت التي كنت قد تدرت على الحفاظ عليها طيلة حياتي كامرأة وعضوة في أسرة عرفت صدام حسين. كان ذلك يعني نشر الملابس القذرة ليراهها الجميع والمخاطرة بسلامة عائلتي وسمعتها. وكان هناك أيضاً كل الألم المكبوت والخوف والخزي لمعالجته.

ناهيك عن ذلك، لم يكن بمقدوري مواصلة عملي مع النساء على نحو موثوق إن أبقيت على صمتي. فقررت أن أكتب مذكراتٍ لأخبر العالم كله بقصتي. لم أعد أريد الاختفاء. لم يكن ذلك بالأمر السهل. في الحقيقة، كانت رحلة يحيط بها الخوف ومسيرة تواضع. كنت متمسكة بالحكمة التي شاطرتها نابنتو القائلة بأنه إن أفصحت عن حقيقتي، فإن نساء أخريات قد يشعرن بشكل أقل بأنهن وحيدات، وبأنهن أيضاً سيجدن طريقهن إلى الحرية بغض النظر عما عانين منه. لم أكن أعرف مدى صعوبة كسر الصمت. لكنني أيضاً لم أكن أعرف كم كان جديراً العناء المبذول في سبيله أيضاً.

اسمي زينب سلبي. كنت أول مولود لوالدي في بغداد، العراق، الطفلة التي يعزوان إليها الفضل في جلب الحظ لهما لأنهما بنيا بيت العائلة بعد عام من ولادتي.

كان منزل العائلة، وهو منزل من منازل الطبقة الوسطى مكون من طابقين يقع في حي المنصور، تحيط به أجمة من أشجار الكينا في نهاية طريق مسدود هادئ. شهد ذلك المنزل سنوات طفولتي الأولى السعيدة.

وبصفتنا عائلة طيار تجاري، سافرنا كثيرًا. كانت أمي - التي كانت مدرّسة أحياء - تحب الأشياء الجميلة، لذا كان منزلنا مليئًا بالأثاث واللوحات والسجاد من جميع أنحاء العالم. وكانت تحب أطقم الأواني الفضية أو الصينية المزخرفة. أتذكر مدى الحماسة التي كانت تشعر بها تجاه طاولة الطعام من تايلاند والتي كانت عندنا. كانت طاولةً بنقوش مفصلة للقرى والجبال والأنهار. وبينما كانت أمي تزين المنزل، كان والدي يميل إلى الحديقة، ويرعى نباتات الغاردينيا والورود والعديد من أشجار الفاكهة كالتين والكمثرى والبرتقال. كان يعتني بالحديقة كما لو أنها ابنته الثانية. لم أكن أعلم أنه في يوم من الأيام سيصبح كل هذا نسيانًا منسيًا.

أصبح منزل عائلتنا رمزًا لمصير العراق نفسه. في عام 1973، التقى والداي بصدام حسين، الذي كان نائب رئيس العراق آنذاك. وفي خطوة محسوبة بعناية، فاجأ مجموعة من أزواج المناطق الحضرية الشباب، ومن ضمنهم والدي، والذين كانوا يقيمون حفلة في قارب في نهر دجلة. لقد تغيرت حياتهم بأسرها في ذلك اليوم. إذ توجب على كل من الأزواج حتمًا أن يقرر ما إذا كان سيقبل صداقة صدام أو يرفضها، علمًا أن أيًا من هذين القرارين كان سيغير حياتهم إلى الأبد. كان الرفض بمثابة المخاطرة بحياتهم وحياتهم كل فرد من أفراد أسرهم الكبيرة. قبل والداي الصداقة. أبقوا الأمر سرًا عني وعن إخوتي الأصغر سنًا، إلى أن قام صدام بعد فترة وجيزة من توليه الرئاسة بزيارة علنية إلى منزلنا. وهكذا، أعلن عن صداقته علنًا، ليس فقط لأسرتنا وجيراننا ولكن للبلد بأسره. تم الإقرار بعلاقتنا به.

بعد ذلك مباشرة، عين صدام حسين والدي طياره التجاري الخاص ورئيس الطيران المدني العراقي. وتغيرت الحياة رسميًا بعد ذلك. فقد أصبحنا عائلة طيار صدام حسين، ونعيش في منزل طيار صدام حسين وفي الشوارع التي تؤدي إلى طيار صدام حسين. فتمت مراقبة منزلنا، واقتصرت حياتنا الاجتماعية على علاقتنا بصدام وفي المناطق التي كان يختارها. وتم تجنيدنا نحن الأطفال في هذه الصداقة وجميع نزواتها في الهواء الطلق. كانت سنوات مراهقتي وسنوات طفولة أخوتي الصغرى محدودة للغاية. كان يتوجب علينا التصرف بمثالية تامة، وألا نتحدث عن علاقة عائلتنا علنًا، وكان يتوجب علينا دائمًا الضحك عندما يضحك صدام والبكاء عندما يبكي.

كانت حياتنا تدور حول الصداقة معه. ومثلنا مثل معظم العائلات الأخرى المحيطة به، كنا نعيش في خوفٍ دائم، ومع ذلك نخفي ذلك خلف ابتسامات بلاستيكية، متظاهرين بالتمتع بالحرية في علاقتنا معه، وأنه لم تكن لدينا آراء، بغض النظر عن العنف الذي كان يرتكبه - كقتل الآلاف من الأكراد في هجوم بالغاز السام أو تجريف مجتمعات شيعية بأكملها للثأر سياسيًا - عشنا في صمتٍ وكأنه دائمًا على حق. لم يكن لدى عائلتي طموحٍ سياسيٍّ، وبالتالي لم تكن تشكل تهديدًا لصدام. وكان دورنا هو تسليته والتحدث عن جميع جوانب الحياة المدنية المعاصرة، من الغذاء إلى الأزياء والانتهاز بالموسيقى. كأننا كنا مهرّجي قصره.

كنت أعرف أن الحياة قد تغيرت قبل أن أفهم الأسباب. فالحديقة التي كان والداي يقيمان فيها حفلات طوال السبعينيات أصبحت صامتة في الثمانينيات. وبدلاً من ضحك أمي الصاحب، كانت الحديقة تمتلئ بدموعها. كانت تسحب الكراسي البلاستيكية إلى وسط الفناء تحت شجرة الديوسبيروس التي زرعتها والدي، وتشغل جهاز الراديو بأعلى صوتٍ، وتتمتم أسرارًا لصديقاتها والكل يبكي في صمت. سيمضي وقت طويل قبل أن أفهم سبب هذا البكاء والخوف.

طوال هذا الوقت، كانت أمي تحملني على قراءة الكتب التي كانت تهدف إلى تعزيز استقلالي، كشخص وكامرأة. قرأت رواية الجذور: قصة مطولة لعائلة أميركية لأليكس هالي، بالإضافة إلى قراءة كتب نسوية باللغة العربية، مثل كتاب عنوانه «أنا حرة». كانت أمي تهزني بعنف وتقول: «لا تدعي أحداً يسيء إليك. لا تدعي أي شخص يتحدث معك أو يلمسك بطريقة خاطئة. تمتعي بالقوة دائماً. وتمتعي على الدوام بالاستقلال، ولا تبكي».

لم أستطع أن أفهم لماذا كانت مصرّة على هذه الأمور عندما كنت مراهقة، لكنني فهمت أنني يجب أن أكون قوية. عندما أعلنت لها في الخامسة عشر من عمري أنني سأكرس نفسي لمساعدة النساء، قالت: «يمكنك، يا عزيزتي».

بدا إصرارها على قوتي واستقلالي منطقياً فقط بعد أن وجدت نفسي وقد تقطعت بي السبل في أميركا. عندما كنت طالبة جامعية في بغداد في التاسعة عشر من عمري توسلت أمي إلى قبول اقتراح زواج من رجل قابلناه مرة واحدة في رحلة إلى الولايات المتحدة. بدا الأمر محيراً بالنسبة لي. لماذا تطلب مني الزواج من رجل غريب وهي التي كانت تصر على أن أختار بنفسني وأتزوج من أجل الحب؟ هذا ما كانت تفعله العائلات العراقية الأكثر محافظة، ولكن ليس عائلتنا. شعرت بالحيرة. لكنها كانت تبكي كثيراً، وأدرت أنني لا أستطيع أن أخيب أملها. توسل إليها والدي ألا تسمح بحدوث ذلك. «إنه خطأ تماماً!»، قال مراراً وتكراراً. «لا تدعي عواطف أمك تؤثر فيك!» لكن أمي كانت تزيد من بكائها. لذا وافقت، على الرغم من بكاء والدي وشقيقي، وحتى أمي في كل خطوة في الطريق الذي كنا نسير فيه جميعاً إلى الولايات المتحدة لحضور حفل زفافي. لم أفهم سبب حدوث ذلك، لكنني أردت أن أكون ابنة جيدة تسمع كلام أمها. لم أفهم همسات والدتي عندما قالت: «لا يهمني ما تفعله وأنت في أميركا. فقط ارحلي، فقط ارحلي».

حصل الزفاف. ومكثت في الولايات المتحدة، وبعد عدة سنوات من بقائي؛ كان الخيار لي في نهاية الأمر. اخترت الزواج من غريب لأوقف أمي عن البكاء. ومع ذلك كان زواجاً فظيلاً. كان زوجي أميركياً عراقياً فرّت عائلته من العراق قبل عقد من الزمان عندما جاء صدام إلى السلطة. وكان يكبرني بثلاثة عشر عاماً، وكان بارداً جداً ومسيطرًا. ولأنه كان هو وعائلته يكرهون صدام، فلقد بدا وكأنه يكرهني، وكأنني وكيلة الديكتاتور. كان الجميع، حتى العراقيين السابقين، يعرفون من كان والدي بالنسبة إلى الديكتاتور. في بادئ الأمر، وافق زوجي على أنه بمقدوري مواصلة دراستي الجامعية والتصرف بأموالي الخاصة. ولكن ما إن تمّ التوقيع على وثائق الزواج وغادرت عائلتي عائدة إلى العراق حتى تغير موقفه عندما تركت معه في الولايات المتحدة. لقد كان يقوم بكل شيء أخبرتني أمي بعدم قبوله. فكان يأمرني بالطبخ والتنظيف ومواصلة عملية إنتاج الأطفال. وكان يعطيني مصروفًا قليلاً يبلغ عشرين دولارًا في الأسبوع، والذي لا يكفي للعيش عليه. كان يسمح لي بمتابعة الحصص الدراسية في الكلية عندما أنجز واجباتي المنزلية فقط، الأمر الذي يجعل من المستحيل إنهاء درجتي الجامعية. والأسوأ من ذلك أنه كان انتقامياً وقاسياً أثناء ممارسة الجنس.

طلبتُ من حماتي مناشدة زوجي. ألا يمكنه معاملتي بلطف أكثر؟ كان ردها توبيخي فقط قائلة: «من واجبك تلبية احتياجات ابني مهما كانت!» ثم غزا صدام الكويت. وسرعان ما تمّ وضع العراق تحت وطأة عقوبات شديدة. وبعد شهر من زفافي، تم قطع جميع الخطوط الهاتفية وأغلقت الحدود، ولم أتمكن من الاتصال بعائلتي على الإطلاق. لم يكن هناك من فرصة أستطيع معها العودة.

وجاءت نقطة التحول بعد ثلاثة أشهر من الزواج فقط. كان ذلك بعد وقت قصير من عيد ميلادي الحادي والعشرين. كنت أحاول أن أكون زوجة «صالحة» حتى ذلك الحين، ولكن الظروف كانت تحملني على الشعور بالاستعباد، ولم أشأ التظاهر بعد الآن. لذلك عندما اختلفت مع زوجي بشأن أمر صغير، تشاجرنا، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، رفضت ممارسة الجنس معه. وبعد أن احتدم غيظاً ألقى بي على السرير واغتصبي، وقد ضغط بالوسادة على رأسي كما لو أنه كان يريد أن يخنقني. بعد ذلك جلست في الحمام لفترة طويلة مرتجفة وخائفة ومتألّمة. لم يكن لدي بلد ولا عائلة ولا خطة لما يجب عليّ فعله بعد ذلك، لكن كان الغضب يملكني. لقد تمكّنت من توفير أربعمئة دولار نقدًا، وكنت أملك حقيبتين من الملابس والمجوهرات الفاخرة من عائلتي. أقسمت على الخروج من المنزل. وهكذا هربت.

لقد ظهرت الملائكة من المجهول لمساعدتي. أقلّنتي صديقة قديمة لوالدي وسمحت لي بالإقامة معها. وعلى مدى الأشهر الستة التالية، طلب مني أحد أعمام أبي والذي كنت بالكاد قد قابلته أن أنتقل إلى منزله حتى أتمكّن من الوقوف على قدمي في هذا البلد. وقدمت لي ضابطة في دائرة الهجرة والتجنيس، كما كان يسمى في ذلك الوقت، تصريح عمل، لم يكن لدي أي فكرة أنني مؤهلة للحصول عليه. وقدمت لي عائلة أميركية من أصول إيطالية ووظيفة في متجر هولمارك (متجر لبيع بطاقات الأعياد). وبفضل شيكاتي الأولية، تقدمت بطلب للحصول على الطلاق واشترت سيارة، وبذلك تنعمت بأول طعم للحرية كبالغة.

كان بإمكانني العودة إلى العراق عندما انتهت حرب الخليج بعد بضعة أشهر من تركي لزوجي، لكنني قررت البقاء في أميركا. كان بلدي آنذاك مدمرًا. لقد أخذت عهدًا على نفسي بأنني سأعود ذات يوم لتقديم يد المساعدة، ولكن قبل ذلك أردت أن أبنى حياتي هنا. لقد أتاحت لي فرصة في الحرية، ولم أكن أرغب في نفويتها، بغض النظر عن مدى شوقي لعائلتي وطريقة الحياة التي كنت أعرفها.

كان قرارني يعني أنني لن أتمكّن من رؤية والدي وشقيقيّ لمدة تسع سنواتٍ بطولها. كان صدام حسين لا يزال في السلطة يتلاعب بحياة الشعب العراقي. وكانت عقوبات الأمم المتحدة تضر بالعراقيين أكثر بكثير مما كانت تضر بزعماء العراق، إذ تمّ التقييد بشدة على السفر والاتصالات والضروريات الأساسية كالطعام والمياه النظيفة والكهرباء والطب. سمعت أصوات عائلتي في مكالمات هاتفية تستغرق دقيقتين كل أسبوع، وهي الحالة الوحيدة التي سمح فيها صدام بأية مكالماتٍ دولية. بالإضافة إلى أن أمي قد هربت إلى الأردن، برفقة أحد أشقائي. الأمر الذي أغضب صدام، وعقابًا على ذلك أرغم أبي على الاستقالة من وظيفته. لم تقتل عائلتنا، لكنها كانت منبوذة اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا، ما جعل الحياة أكثر صعوبة.

في المقابل، بدأت حياتي في الولايات المتحدة بالازدهار. قابلت رجلاً، ووقعت في الحب، واخترت الزواج للمرة الثانية. هذه المرة، كان زوجًا رائعًا. إذ أن زوجي كان رقيقًا وذكيًا ولطيفًا جدًا معي. كان ناشطًا من عائلة فلسطينية أميركية، وكان يحضّر لشهادة الدكتوراه في جامعة فرجينيا. كما أنني عدت إلى الجامعة، وهذه المرة كانت في جامعة جورج ميسون، لإنهاء دراستي الجامعية في الكلية، بدأت أتعلم عن الهولوكوست (المحرقة) وكيف قال الناس، «لا محرقة أخرى أبدًا» لن تسمح الإنسانية مرة أخرى أبدًا بارتكاب فظائع كالإبادة الجماعية. لكن في تلك اللحظة بالذات في 1993 كنا نشاهد صورًا من البوسنة والهرسك من معسكرات الاعتقال، وكما علمت، من معسكرات الاغتصاب حيث تم القبض على النساء من قبل الجنود الصربيين لاستخدامهن كزينة جنس لعدة أشهر في كل مرة. كنت في الثالثة والعشرين من عمري، متزوجة حديثًا بلا مال ولا خبرة عمل، لكنني شعرت بأنني أتحمّل المسؤولية للقيام بشيء ما حيال

الظلم الآن وأنا أعيش في أميركا. كنت حرة في العمل دون وجل. وسويًا مع زوجي الجديد، أمجد، وضعنا مبلغًا ضئيلًا من المال كنا قد وفرناه من أجل شهر العسل للسفر إلى كرواتيا لدق أبواب المؤسسات النسائية. لم نتمكن من العثور على منظمة أميركية مستعدة للمشاركة. ولكن كنا مصممين على المساعدة، لذلك، وبعد ثلاث سنوات من وصولي إلى الولايات المتحدة، تم تأسيس منظمة نساء من أجل النساء الدولية. وبحلول عام 1995، كانت منظمة نساء من أجل النساء الدولية تتلقى المساعدات من مئات النساء في جميع أنحاء العالم. لقد أطلقنا على هذه الطريقة اسم مساعدة «الأخت إلى الأخت». وشهريًا، كانت النساء الناجيات من الحرب يتلقين ثلاثين دولارًا ورسالة من كفيلتهن؛ وكان كل شيء يذهب مباشرة إلى النساء اللاتي يحتجن إلى المساعدة. وفي نفس العام، كرمني الرئيس بيل كلينتون في احتفال في البيت الأبيض على عملي. بدأ عملنا بالظهور في وسائل الإعلام الرئيسية، بما في ذلك في برنامج أوبرا وينفري عدة مرات. وعلى مدى الثماني عشرة سنة التالية، أصبحت منظمة النساء من أجل النساء الدولية واحدة من أكبر المنظمات النسائية في أميركا، حيث قامت بجمع وتوزيع أكثر من مئة مليون دولار على نحو نصف مليون من النساء الناجيات من الحروب على الصعيد الدولي، بما في ذلك نابتو، والتي حالمًا كنت أروي قصتها كانت تستحوذ حقًا على قلوب العديد من الناس الذين يريدون تقديم المساعدة.

كنت فخورة بعملتي وسعيدة بتقديم المساعدة بطريقة ذات معنى، ولكن الحياة لها مواقفها وصعوباتها، فخلال العقد الأول من عملي الإنساني مرضتُ أُمِّي. حضضت نفسي على تأمين الوثائق اللازمة لإحضارها إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج، وسرعان ما علمنا أنها مصابة بمرض ضمور العضلات المزمن وهو مرضٌ لا شفاء منه. كانت الحقيقة صارخة: كانت تموت، ولن تعود أبدًا إلى العراق إلا لكي تُدفن. عندها بدأت تخبرني قصصنا. بدأت أفهم لماذا سارعت بي إلى أميركا: لم تكن تحب الطريقة التي كان صدام يراقبني بها ويطلق تعليقاته عليّ. وإذ كانت تعرف ما كان يفعله للنساء - وعدد النساء اللواتي اغتصبهن - فعلت كل ما يتطلبه الأمر لإخراج ابنتها الوحيدة، حتى بثمن المخاطرة بعلاقتنا.

ربما كانت أفضل هدية قدمتها لي أُمِّي هي الحقيقة. منذ أن وجدت نفسي وحدي في أميركا وأنا أشعر بالغضب وبأنها خانتي، هي المرأة التي أحببتها أكثر من أي إنسان آخر. لماذا أصرت على أن أتزوج وأغادر العراق؟ لماذا تركتني وحدي في الولايات المتحدة كامرأة شابة يديها شخص غريب سوء المعاملة؟ الآن كنا نخطو خطوات باتجاه الشفاء. الآن فهمت أنها فعلت كل ما بوسعها لحمايتي. وبينما كانت الحياة تتلاشى ببطء، كانت تكتب تفاصيل أكثر لسد الثغرات في حياتنا وكسر سنوات الصمت بيننا. أخيرًا، رأيت أن العمل الذي اعتقدت أنه خيانة والدتي، كان بدلاً من ذلك علامة واضحة على شجاعتها وحبها وتصميمها على إنقاذي. ساعدتني على إدراك أن الناس لا يقاومون الديكتاتورية والقمع بأعمال خارقة بطولية. بل إنهم يقاومونها في الأعمال اليومية الصغيرة. بهذه الطريقة وبصبر واجتهاد وشيئًا فشيئًا، يحمون أسرهم ويبقون على أطفالهم أحياء وآمنين. وهذا ما فعلته أُمِّي وأبي من أجلي.

بموتها، منحني أُمِّي فرصة لم الشمل مع بقية أفراد عائلتي. فعندما أعدتُ جثمانها إلى العراق، رأيت أبي وأخي الأصغر للمرة الأولى منذ ما يقرب من عشر سنوات. لم أتعرف عليها. كان أبي قد تقدم في العمر وكان يحمل سبحة للصلاة. كان مختلفًا عن الرجل الليبرالي الذي نشأتُ معه. الآن، كان يلجأ إلى الله للتخفيف من الظروف الرهيبة التي كان يعيش فيها خلال الحروب العديدة والدمار الكثير. وكان أخي

الأصغر، الذي كان يبلغ من العمر تسع سنوات عندما غادرت، رجلاً ناضجاً تماماً آنذاك. استغرق الأمر بعض الوقت لإنشاء علاقةٍ جديدةٍ، وهذه المرة كبالغين.

لم أتعرف على البلد أيضاً. كان ذلك في عام 1999، وكان نقص الغذاء والخدمات الأساسية مثل الصرف الصحي والأدوية قد أنهك العراقيين بسبب تأثير سنوات العقوبات. لقد مات مليون شخص منذ انتهاء حرب الخليج الأولى في عام 1991. وبحلول وقت جنازة والدتي، اعتقد الجميع أن الأسوأ قد انقضى. لم يكن أحد يتوقع حرباً أخرى ودماراً آخر لا يمكن تخيله. وبقلب أثقلته المتاعب عدتُ إلى العراق مرة أخرى في ديسمبر 2002، عشية حرب الخليج الثانية. حتى أخذ أخي الأصغر خارج العراق. كما أقنعت والدي بأن يأذن لي بأخذ أغلى الأشياء من منزل عائلتنا، كصور العائلة ووثائقنا. تعلّمت من عملي مع ضحايا الحرب ما هو أضمن للناجين: شهادات الولادة والموت والتعليم والوثائق القانونية التي توضح ملكية الأرض وصور العائلة. لم يكن لدينا أي فكرة عما ستجلبه حرب الخليج الثانية للعراق، لكن إذا سقطت البلاد، فإن احتمال تعرّض منزلنا للنهب كان كبيراً.

سقطت البلاد، وتمّ نهب منزلنا. في الواقع، خلال الحروب وسنوات القتال التي تلت ذلك، تعرّض بيتي في مرحلة الطفولة لأشياء كثيرة لم أستطع تخيل حدوثها. فلقد احتلت ميليشيات المتمردين منزلنا لمدة عامين، أولاً كمركز إعدام، ومن ثم لإخفاء أنشطتهم عن الجيش العراقي، كبيت دعارة. نجبرنا الجيران أن الشاحنات كانت تأتي بانتظام لجمع كل الجثث التي تلقيها الميليشيات في حديقتنا، وهي نفس الحديقة التي كان والدي يعتني بها بمحبة عندما كنت طفلةً. وعندما قام الجيش العراقي في النهاية بضرها، حوّل الجيش نفسه المنزل إلى قاعدة عسكرية لسنة أخرى.

ومع مرور الوقت، تمّ نهب كل شيء. فلم تأخذ موجات المحتلين الأثاث وقطع الخزف الصينية فقط، بل أخذوا حتى الأسلاك الكهربائية من الجدران. وكل ما تبقى من الحديقة كان شجرة اليبوسيروس اليابسة، وقد تعرّضت فروعها من الأوراق. وكانت الأرض المحيطة به جرداء تماماً. ولم يكن بمقدور أحد أن يخيّن أنها كانت واحة خضراء غضة، ملاءى بالضحكات والموسيقى والرقص.

بعد ما يقرب من عقدٍ من حرب الخليج الثانية، أعاد الجيش المنزل إلى عائلتي، وقام والدي ببيعه إلى أشخاص لم نعرفهم. بدا الأمر كما لو أنه بعد كل هذه الصدمة، كان منزل آخر يقوم مكانه، منزل أشباح. لقد تم تدنيس تاريخ طفولتي، وزواج والدي، ومجموعات والدي من الفن والأثاث الفاخر، وزهور والدي الجميلة وتم تدنيس واجتثاث أشجار الفاكهة.

كان من الواضح أننا لا يمكن أن نعيش هناك مرة أخرى. ومع ذلك، كنت أرغب في رؤية أنقاض منزل عائلتي بنفسي. ففي رحلةٍ إلى بغداد في عام 2011، توجهت إلى منطقة المنصور وطرقت على الباب. كنت أريد معرفة ما إذا كان أي جزءٍ من تاريخ حياتي لا يزال ماثلاً. أجابت امرأة بتردد. سألت إذا كان بإمكانني رؤية الغرفة التي نشأت فيها، وبعد صمت أتم بالتردد والشك، دعنتي للدخول. ما أثار دهشتي أنني وجدت في غرفتي القديمة فتاةً أصغر سنّاً تسمى زينب. إنه اسم شائع في العراق، لكن الرمزية لا لبس فيها، كانت تبلغ من العمر تسع سنوات وكانت ترتدي حجاباً لشعرها. فكّرت في نفسي زينبان وعراقان. عندما كنت في سنّها، كان شعري مسدولاً ومليئاً بدبابيس الشعر الملونة. كانت الأسرة التي نشأت فيها ليبرالية وبهيجة، وكانت تملك حانة معروفة في جميع أرجاء الحي بحفلاتها. وكان يُحتفل بأعياد الميلاد

والمناسبات السنوية تمامًا في منزلنا. كانت نافذتي تطل على أشجار الأوكالبتوس التي كانت تحيط بالطريق المسدود أمام منزلنا.

بينما زينب التي تترعرع في بيت العائلة الجديدة حيث تتدلى رايات دينية من سقفه. كانت ترتدي الحجاب. وبدلاً من أشجار الأوكالبتوس في الخارج، كانت ثمة جدران خرسانية أنشئت بغرض الحماية بعد فترة وجيزة من نهاية الحرب، لأن الأمن كان قد انهار في البلاد. أصبحت المكتبة التي كانت عبر الشارع المغلق مسجداً. كان عراق هذه الشابة زينب يدور حول الطائفية والقبلية. عراق طفولتي لم يكن لديه متسع لما هو سني وما هو شيعي، ما هو مسلم وما هو مسيحي، كان العراق للجميع.

عندما رأيت المنزل الآن، رأيت الهيكل الذي كان عليه من قبل. غادرت وأنا أشكر الله بأن أُمي لم تكن على قيد الحياة لرؤية كل مستويات الدمار هذه لمنزلنا وحيننا وبلدنا. فإذا كان هناك أي جزء مني يستمتع - مثله - بحياسة أشياء مادية، فإن منظر طفولتي المدمرة هذا قد شفاني منه. كان كالوشم على قلبي. فكل شيء - كل الجمال وكل الممتلكات الثمينة - ذهب أدراج الرياح وكل ما تبقى لنا هو قصصنا.

ليس من السهل سرد قصصنا، فهي تحمل أسرارنا، ولقد دفنت أسراري في أعماق وعيي. لقد كان من الصعب عليّ الاعتراف أنني كنت في زواج هيأه الأهل، وكان من الصعب القول إن زوجي الأول قد اغتصمني، لكن لم تكن لدي أي فكرة مسبقة عن صعوبة الكشف عن القصة التي تدرت على عدم قصتها، ألا وهي قصة عائلتي في العراق. قد تكون بعض القصص في الواقع أكثر تطرفاً من غيرها. فبعض النساء تعرضن للاغتصاب الجماعي، كنباتو وبناتها، أو تمّ بيعهن في تجارة الجنس أو أُجبرن على العيش دون حقوق أساسية وتعليم. هذا لا يعني أنه يجب على النساء الأخريات عدم كسر صمتهن ومشاركة قصصهن الخاصة. ولجرد أنك تعملين في لندن أو في وادي السليكون، لا يعني أنه يجب عليك التقليل من الانتهاكات التي تتعرضين لها. قد يكون أحد الأقارب قد تحرش ببعض النساء، وقد يكون الرئيس أو الشريك الرومانسي قد عرض بعض النساء لإساءة لفظية. تصمت بعض النساء لإرضاء أولئك الذين في موقع السلطة، أو لإرضاء قريب أو زميل. تسمح بعض النساء لأنفسهن بأن يعاملن كأشياء جنسية، معتقداتٍ أنّ ذلك سيُجلب لهنّ شعوراً بالقبول، والقيمة، والسلامة. قد تكون شدة القصة أكثر قوة بالنسبة إلى امرأةٍ في أفغانستان من امرأةٍ في ولاية ميسيسيبي، لكن الجوهر - إساءة استخدام السلطة والتلاعب بالخوف وتجريد الكرامة الإنسانية - هو نفسه في كلا المكانين. يغطيه رداءٌ مختلف، تزيّنه قصّة قماشٍ مختلفة.

عندما نخفي قصصنا، فإننا نعزل أنفسنا عن القصة الجماعية. فإذا صنفنا قصص «هؤلاء الناس الفقراء الكائنين هناك» على أنها القصص الجديرة بالاستماع، فإننا نفترض في هذه الحالة أننا أحرار تماماً، من دون ظلال، وليس لدينا شيء لفضحه أو المصالحة معه. ونحن نعيّن أنفسنا «على أننا المنقذون» وعلى أنهم «الضحايا».

تناضل كل روح من أجل أن تكون حرة، لذلك فإن قصة كل شخص لها قوتها الخاصة، وكل حالة تستخلص قدرها الخاص. ونحن نظهر الاحترام الحقيقي لبعضنا البعض عندما نظهر في تمام قصصنا الخاصة. ولكل قصة - بغض النظر عن شدتها أو امتيازها - ثقل العاطفة الكامل الكامن وراءها. قد تكون قصصنا مختلفة، لكن تأثيرها لا يمكن إنكاره، ونحن بحاجة إلى امتلاك تلك القصص إذا أردنا أن نكون أحراراً. عندما نُشرت مذكراتي في عام 2006، فإنها لفتت الانتباه ليس في أميركا فقط بل في العراق أيضاً.

كان القلق يساورني من أن قول الحقيقة قد يعرض عائلتي للخطر، رغم أن صدام كان مسجوناً وكان في خضم محاكمة أدت في النهاية إلى إعدامه. ما أدهشني هو الاستجابة الذي حاز عليها الكتاب. إنه أمر صحيح أن كتابي قد وضع والديّ في موقف صعب، فلقد أعاد بعض الميليشيات وقادتها في العراق التحقيق معه بشكل كامل إلى أن تثبتت براءته مرة أخرى. لم تكن هذه العملية فقط، إذ كان العراقيون يتصلون به للتعبير عن امتنانهم قائلين: «لم تروِ ابنتك قصتها فحسب، بل كل قصصنا». كان الشباب العراقيون من النساء والرجال يوقفونني في شوارع لندن ونيويورك ليقولوا: «نشكرك على إخبار العالم بما حدث لنا نحن العراقيين».

كنت أخشى أنه إن عرف الناس في أميركا صلتني بصدام حسين، فإنهم سيتوقفون عن رؤيتي وسيشاهدونه بدلاً من مشاهدتي فقط، كان يمحو صوتي وقيمي وكل التزاماتي الإنسانية، فهو صاحب الصوت الأعلى. وبدلاً من ذلك، كان الأميركيون يتصلون بي للقول إنهم يتمنون أن يكون الكتاب قد ظهر قبل دخول الولايات المتحدة في حروب الخليج. كلُّما شاركت قصتي أكثر، كلما بدأت النساء من جميع طبقات المجتمع في القدوم إلى المقاهي والشوارع والمطارات ليخبرنني بقصصهن الخاصة. في البداية لم أكن أعرف ماذا أفعل عندما تهمس نساء غريبات تمامًا في أذني ويقلن قصصاً عن التحرش الجنسي وسوء المعاملة. وبمرور الوقت، أدركت أن نابتتو كانت على حق: فعندما تكسر امرأة صمتها، فإنها تمهد الطريق أمام الأخريات لكسر صمتهن أيضاً. أصبح شهوداً على قصص بعضنا البعض، وفي هذه العملية، نمنح بعضنا البعض الشجاعة.

إذا جهرنا بالقول بحقيقتنا، بغض النظر عن مدى جسامتها أو تفاهتها، يمكننا معاً أن نضيء الطريق نحو مستقبل جديد وقصة جديدة، مستقبل لم يعد يقوم على الصمت والعار. كنت قد حبست ماضي في قلبي لعدة سنوات لدرجة أنه تحول إلى حجر أسود، يجثم بقوة على صدري. لقد كان يخنقني ويسلب مني الطاقة، لكن عندما حررت أسراري تحول ذلك الحجر الداكن إلى بلورة واضحة وشفافة وجميلة. تكمن حمايتي وقوتي في ضعفي التام، فلا أسرار ولا إخفاء ولا عار. فعندما سيطرت على قصتي ورويتها طوعاً للجميع، شعرت أنه لم يعد بمقدور أحد أن يؤذيني بعد الآن.

الآن، عندما أسمع شخصاً يجهر بحقيقته، حتى ولو كان يسلط الضوء على أسوأ جوانب حياته، فإنه دائماً يلتقي صدىً في أذني ويجعل عيني تغرق بالدمع. فأفزع المعلومات تحمل الشجاعة والنعمة والحب عندما يتم قصها علينا بكل بساطة وأمانة. وعندما نجر بحقيقتنا ونكسر صمتنا، فإننا نصبح كالشموع التي تنير طريق الآخرين للخروج من ظلماتهم حتى يجدوا الشجاعة للتحدث عن أنفسهم.

فقط عندما نقول الحقيقة يتم الشفاء.

الفصل الثاني

العيش في كنف الحقيقة

«ليس من السهل دائماً أن نعيش حقيقتنا،
ولكنها تستحق كل هذا العناء على الدوام»

من الصعب إخبار من نحب بحقائقنا، لكن الطريقة الوحيدة لفهم ما يتطلب عيشُ وقولُ الحقيقة هي أن نخبر الحقيقة من الجانب الأكثر هميمة من حياتنا. فعندما نبوح بالحقيقة للناس الأقرب لنا - كأبائنا أو أشقائنا أو أفضل أصدقائنا أو أزواجنا- نعرف المخاوف التي تظهر، والشجاعة التي نحتاج لشحذها، والمخاطر المتوقعة لإحداث تغيير حقيقي. ونحن نسير في هذه الرحلة ونفهم أن ذلك يعني أن نكون أكثر تعاطفاً وأقل إطلاقاً للأحكام، وأن نتمتع بالصبر بدلاً من أن يصيبنا الإحباط. عندما لا نكون مستعدين لأن نعيش حقائقنا الكاملة، فإننا غالباً ما ننجذب إلى أشخاص يستطيعون حملها إلينا. يستمر ذلك حتى تتمكن من تجسيد تلك الحقائق في أنفسنا. هل سبق لك أن تساءلت كيف يمكن لشخص جميل أن يكون مع شخص عادي المظهر، ولشخص فوضوي أن يكون مع شخص هادئ ومتوازن، أو كيف يمكن لشخص كريم أن يكون مع شخص بخيل؟ يصح هذا سواء أكان هؤلاء الأشخاص أزواجاً أو زوجات أو أصدقاء أو أشقاء

أو جيراناً أو عشاقاً أو زميلات. فنحن ننجذب إلى أولئك الذين يستطيعون حمل قصة لا يمكننا حملها بأنفسنا، وهي خاصية أو قوة أو تفضيل لم نطوره بعد أو لم نسمح لأنفسنا بالاعتراف به أو التعبير عنه.

حمل أجد زوجي الثاني قصةً من اللطف والأمان والحب لي عندما لم أستطع حملها في نفسي. عندما التقيته لأول مرة، كنت إنسانةً في غاية الضعف تبلغ من العمر اثنان وعشرون عامًا، انتقلت مؤخرًا إلى واشنطن العاصمة. كنت قد هربت للتو من زواجٍ قصيرٍ وكريهٍ من رجل تحول إلى ظالم في اللحظة التي جفّ فيها الخبر على وثيقة الزواج. عندما قابلت أجد، كنت لا أزال حديثة العهد جدًا في الولايات المتحدة، من دون عائلة أو أصدقاء. كنت قد انتقلت إلى وظيفةٍ جديدةٍ، وشقةٍ جديدةٍ، وحياةٍ جديدةٍ، وأخذت عهدًا على نفسي بعدم السماح لأيّ رجل بلمسي مرةً أخرى. لم أكن أثق بالرجال على الإطلاق. لقد استغرق الأمر عامين، لكن لطف ووداد أجد الثابتين سمحا لي بالاسترخاء والشعور بالأمان مرةً أخرى. شيئًا فشيئًا، ذاب خوفي وحالتي الدفاعية.

إننا ندعو الناس الذين نحتاج لهم. ربما أنت نفسك نظرت إلى الوراء إلى صداقةٍ أو علاقةٍ بامتنانٍ عميقٍ ورهبةٍ أو تساءلت كيف سبق لك أن أحببت شخصًا معينًا أو أصبحت متشابكةً في عالمه. إنهم كانوا يحملون قصةً لك، وكنتِ تحملين قصةً لهم.

قبل أن أدرك ذلك، لم أستطع أن أفهم كيف يمكن لصديقتي أنا أن يكون صديقتها ومعلمها شخصًا كستيف، لقد كانت أنا مديرةً تنفيذيةً ناجحةً لوقتٍ طويل، وقد قادت مجموعات، وشركات عديدة، وكناشطة اجتماعية وخيرية تم تقديرها بشكل جيد، كانت لديها نزعة إنسانية كبيرة، ومن خلال تلك النزعة ألهمت الآلاف من الناس للعمل نحو تحقيق العدالة وإنهاء الظلم في كل أنحاء العالم، كان عليها أن تظهر شجاعته في كل الأوقات وهذا يعني أنها كانت بحاجة لاجتياز شكوكها ومخاوفها، كما هو حالنا جميعًا.

كان ستيف، مديرها التنفيذي، هو الشخص الذي يستمع إلى قصصها الصغيرة وحمل أعباءها من أجلها. وكان يساعدها في معالجة أي ضعفٍ أو شعورٍ بعدم الراحة كانت تشعر به وفي التفكير في القرارات الصعبة. وكان يُبدي بلهجته الفرنسية الساحرة ذكاءً وثقافةً. فبغض النظر عما كان يقوله، وحتى عندما كان فظًا، كان يبدو أنه حتمًا صحيح ومتطور.

كانت أنا بحاجة لستيف، ومع ذلك كانا على طرفي نقيض فحين تكون أنا لطيفةً ودافئةً ومسامحةً، يكون ستيف لثيمًا ومسيطرًا ومتحكمًا. وحين تكون أنا كريمةً ومغريةً، يكون ستيف بخيلًا وباردًا. وحيث كانت تحمل الناس على الشعور بالإلفة والراحة، كان ستيف ينتقي الناس ويعاملهم على نحوٍ مختلفٍ، على نحوٍ انتقائي جدًا. ولم يكن صريحًا فحسب، بل كان أيضًا شوفينيًا وتنافسيًا. لم يسمح لأيّ كان أن ينسى أنه كان يد أنا اليمنى.

كان ستيف يرافق أنا في رحلاتها طوال عقدٍ من الزمان، وكان يساعدها في إدارة الاجتماعات، وبدأ مع مرور الوقت بتنظيم الأحداث معها. في البداية كان ستيف يسيء معاملة الناس من خلف ظهر أنا محميًا بدائرة حبٍّ وكرم أنا، ومن ثم كان يقدم على ذلك بحذرٍ في حضورها. وبمرور الوقت، كان يشعر بالراحة التامة في إساءة معاملة الناس أمامها مباشرةً.

إذا لاحظت أنا فلم تكن تهمس ببنت شفة، وبالكاد كان يجرؤ أي شخص على إثارة القضية مع أنا. بدلاً من ذلك، كانوا يمشون على أطراف أصابعهم حول ستيف، ويخفون كراهيتهم وعدم ثقتهم به، في حين كان الآخرون ينسحبون بهدوء. وبعد العمل عن كثب مع ستيف لفترة طويلة، بدأت الأمور في التحول. إذ بدأت أنا بالانتباه من خلال أصدقائها المقربين إلى خصوص سلوكه، وأتاحت لهم المجال لإخبارها بما كان يحدث بالفعل. أخيراً، وفي اجتماع الإفطار، استيقظت أنا.

كالعادة، كان ستيف وقحاً للغاية مع شخص ما في الاجتماع. إذ قال ببرود لإحدى الحاضرات: «أنت وصوليةٌ للغاية ووقحة. يحالفك الحظ أنني لم أخبر الجميع بما أخبرتني به قبل ساعة». شجعت أنا المرأة للدفاع عن نفسها قائلة: «هل ترغيبين في الرد على ستيف؟» أجابت المرأة «هو لا يستحق جوابي، وأنا لا أثق بستيف، ولا أحد يثق به». وافقت امرأة أخرى، وأومات برأسها. وفي اللحظة التي انتهى فيها الاجتماع، بدأت جميع النساء بالهمس، وبدأ الرجال بالحديث. لم يعد أي شيء مخفياً الآن: لم يكن بوسع أنا إلا أن تلاحظ مدى عدم ارتياح الجميع تجاه ستيف.

في وقت لاحق دعت أنا ستيف ليبرّر تصرفاته. لقد كانت تلك نقطة تحول، ليس فقط في علاقتها بمدرّبها الخاص، بل في نفسها أيضاً. الحقيقة هي، أنه حتى ذلك الحين، كانت تجاهد لعدم قول «لا» لأحد. لم يكن بمقدورها الطلب من أي شخص بالتوقف عن القيام بأشياء لم تكن توافق عليها. كان من الأسهل لها أن تقود بلطف. لذلك وعلى مدى سنوات، جعلت ستيف يخلق الحدود، حتى بطريقته الوصولية. كان دائماً قادراً على رفض طلبات الأشخاص أو وضعهم في موضع الدفاع عن النفس عندما لم تكن تملك القدرة على القيام بذلك بنفسها. لم تكن لديه مشكلة في خلق الحدود. كان يجسد قوتها وشجاعتها حتى تستطيع القيام بذلك بنفسها.

لقد استغرق الأمر من أنا عشر سنوات حتى تتمكن من التوقف عن الاختباء خلف ستيف والسماح له بالقيام بعملية ترسيم الحدود لها. استغرق الأمر كل تلك السنوات للعثور على صوتها الحقيقي والشعور بالراحة تجاهه. وعندما عثرت على قوتها وشجاعتها في إقامة الحدود، كانت لا تزال تتمتع بالتهذيب. لم تكن تتبنّى أبداً أسلوب ستيف القاسي. ومن ناحيته، كان ستيف يقوم بنفس الأمر معها. إذ كان يخبأ وراء قوتها وحبها واحترام الآخرين لها. فلقد كان يستعير شرعيتها حتى يتمكن من تطوير حسه بالأهمية بشكل منفصل عنها وعن فرص العمل التي كانت مرتبطة بها.

بعد كل تلك السنوات من الحب والثقة، رفض ستيف عدم تبرير أنا سلوكه في الاجتماع. تجنّب أي لقاءات أخرى معها. كانت تلك المحادثة هي آخر مرة على الإطلاق. لم يكن لدى أنا الفرصة لمناقشة أي شيء آخر معه أو أن يقول رسمياً وداعاً. اختفى ببساطة. هذا التحول من الانجذاب لصفات معينة في الآخرين إلى القدرة على تجسيد تلك الصفات في أنفسنا ليس بالأمر السهل. إنه ينطوي على الانتقال من الاعتماد إلى الاستقلال؛ من إخفاء جوانب أنفسنا إلى الظهور في جميع جوانب أنفسنا؛ من رفض ظلالنا لرؤيتها، وقبولها، ودمجها. يمكن لهذه العملية أن تجلب البحث عن الذات، وهي فرز ما هي حقيقتنا وما هو الشخص الآخر. يمكن أن تكون مليئة بالعواطف القوية والأسئلة الصعبة. في حال لم نقم بذلك من قبل، يمكن أن يشعر المرء بالدهشة، كأننا نزيل طبقة في أنفسنا لم نكن نعرف أنها موجودة هناك. لدينا جميعاً خيار في الطريقة التي نريد أن نعيش بها، ولكننا لا نسأل أنفسنا دائماً هذا السؤال بشكل مباشر. كيف نريد أن نعيش؟ يمكننا أن نعيش حياة الخوف، وقلوبنا تخدّرت وبعضنا يموت. أو يمكننا أن نعيش حياة الحقيقة

والمحبة، والتي تنطوي على نوع آخر من المخاطر، خطر أن نجعل أنفسنا معرضين وغير مرتاحين، وربما الحكم على أنفسنا، أو حتى إيذاء الآخرين أو فقدان العلاقات. الأمر يستحق ذلك، لأننا عندما نكون شجعانًا، فإن ما نخاطر به هو أن نكون صادقين مع أنفسنا وأن نصبح أحرارًا. اضطررت أيضًا لمواجهة هذا الاختيار. استغرق الأمر الكثير من الأخطاء لإدراك أن اختيار العيش في الحقيقة كان يستحق العناء. ما أدركته هو أن طعم الحرية كان لذيذًا للغاية، وهو جعل الرحلة الصعبة للمشي في الحقيقة تستحق كل لحظة. كان الأمر يستحق المخاطرة بالحياة التي كنت أعتز بها من أجل اكتشاف الحياة التي كانت تنتظري.

لسنوات، كان من الطبيعي بالنسبة لي تجربة موجاتٍ من الدموع أو تشنجات من القلق، وحتى لا أكون قادرةً على التنفس بشكل كامل، وكنت أعاني لحظاتٍ من الغضب والألم، أو أن أكون مهووسة بالعمل، وسكب كل طاقتي به. هذا هو المكان الذي أخفيت فيه، كل هذه الأمور المتطرفة. الحقيقة هي أن العار كان يأكلني من الداخل. شعرت بالخجل من رواية قصة ماضي، وأخجل من الكشف عن أنني لم أكن قويةً بالشكل الذي توقعته، وبمرور الوقت، أصبحت أشعر بالخجل من الشعور بالإحباط تجاه الرجل الذي أحبيته بعمق.

علاقتي بزوجي كانت جميلة. في رأيي، أنا وأجدد كنا الزوجين المثاليين. كان ما أريده في الرجل: الصبر، المحبة، والذكاء. أحببنا بعضنا البعض ودعمنا بعضنا البعض لتحقيق أحلامنا في العالم. عرفني على الحياة في أميركا وأجزاءٍ من الثقافة الأميركية التي لم يكن لدي أي فكرة عنها، مثل الخيال العلمي وستار تريك. كان دائمًا مهتمًا بعملتي وساعدني في إطلاق برنامج (نساء من أجل النساء الدولي). كان أجدد أيضًا شريكًا كاملًا في المنزل. إذا قمت بالطهي، قام هو بالجلي. إذا قمت بغسل الملابس، قام بالكي. وإذا انزعجت منه، كان يردّ بشكل هادئ. مشى في مسيرة الشراكة دون أن أطلب منه أن يتقدم. كان دائمًا كريماً ومعتاداً أيضًا: كلما كان لديه القليل من المال الإضافي، كان يصرفه على شيء جميل بالنسبة لي، مثل ثوب أو كتاب. جنبًا إلى جنب، نجونا من تحديات الحياة الزوجية الشابة: الصعوبات المالية التي تواجه الطلاب، وضغط العمل والدراسة في نفس الوقت، والمرض في عائلتنا، وضغوط حياتنا المهنية المبكرة. كنا دائمًا نحب بعضنا. كنت أقبّله بعيون مفتوحة وأعرف أنني كنت أقبّل حب حياتي. بعد تسع سنوات، كنا نظن أن زواجنا كان قويًا بما فيه الكفاية بالنسبة لنا لكي نأخذ الوقت والمساحة لمتابعة مصالحنا الفردية بشكل منفصل لمدة عام. أردت الحصول على درجة الماجستير في دراسات التطوير الاقتصادي في كلية لندن للاقتصاد، وأراد أجدد الانضمام إلى مفاوضات سلام فلسطينية إسرائيلية في الشرق الأوسط. وعدنا أنفسنا بأن نعود إلى الولايات المتحدة بعد مرور عام واحد ونأخذ زواجنا إلى مرحلة جديدة، وننشئ منزلًا وربما ننجب طفلًا. قبل ذلك، كنت أنا وأجدد أحد هؤلاء الأزواج الذين فعلوا كل شيء معًا. كنا لا نفصل، مثل اثنان في جراب واحد. وبما أنني لم أكن أعرف أحدًا في أميركا، فقد أخذني أجدد وأسرته وأصدقائه. شعرت بأنني محمية من قبلهم، ومشمولة بحبهم ورعايتهم. لذلك أنا وأجدد كان لدينا نفس الأصدقاء والهوايات. طبخنا معًا، وعملنا معًا، وذهبنا إلى الفراش في نفس الوقت. غالبًا ما كنا نضحك أننا فعلنا كل شيء «كنحن»، وليس «كأنا» أو «أنت».

عندما بدأت مسيرتي في لندن وانتقل أجدد إلى فلسطين، كانت هذه هي المرة الأولى منذ فترة طويلة جدًا التي كان كل واحد منا يبحث فيها عن «أنا» في نفسه. بعد تسع سنوات من الزواج، كنت قد نسيت ما نعنيه باستكشاف أشياء جديدة في الحياة أو السياسة دون تقاسمها مع زوجي. لم أذهب للتسوق لوحدي، ولم أطور صداقاتٍ جديدةً منفصلة عنه، ولم أخرج من دون وجوده إلى جانبي منذ أن تزوجنا. كان أجدد يفعل

الشيء نفسه أيضًا. كذلك، لم يعيش هو أبدًا خارج أميركا، ناهيك عن منطقة الحرب. كان يتعلم ما كان عليه فعله من أجل السلام في بيئة مهيبة للغاية. كان عليه أن يقلق بشأن نقص المياه وحظر التجول ونقاط التفتيش الإسرائيلية، وأن يعيش دون راحة من التهديد المستمر بالعنف. في البداية، كنا متحمسين للغاية بشأن جميع النتائج الجديدة التي توصلنا إليها. كنا نتصل كل يوم ونتشارك كل شيء مع بعضنا البعض. لكن مع مرور الوقت، انشغل في العمل، وانشغلت في الدراسة، وكل منا انشغل بحياته الاجتماعية الجديدة. السنة مرت بشكل جيد. لكن عندما حان الوقت للعودة إلى الولايات المتحدة واستئناف حياتنا العائلية كما خططنا، قدّم أمجد طلبًا: أراد البقاء في وظيفته لمدة سنة أخرى. وهذا يعني سنة أخرى من العيش بشكل منفصل. عندما تحب الشخص، حقًا، يمكنك الحصول على الفرح برؤيته يتطور في كل ما يفعل. كان أمجد يتطور وكان سعيدًا. من الحب الكامل له، كنت أريده أن يستمر. قلت: «بالطبع». عدت وحدي إلى الولايات المتحدة واستأنفت عملي الإنساني في منظمة النساء من أجل النساء. لم تكن سنتنا الثانية التي نعيش فيها سهلة مثل الأولى. استمرت الاستكشافات الفردية لدينا، لكننا لم نعد متحمسين لمشاركتها. عندما كنا نزرور بعضنا كل بضعة أشهر، إما أن أذهب إلى فلسطين أو أعود إلى واشنطن، شعر كل منا بأنه غريب عن تجربة الطرف الآخر. لقد عشت وعملت في مناطق حرب طوال حياتي تقريبًا. كنت أعلم حول المعاناة التي عانى منها الناس، لذلك لم أعد صبورة مع أمجد عندما أراد مشاركة تجاربه معي. من جانبه، لم يستطع أمجد التواصل مع أصدقائي الجدد أو اهتمامي الجديد باللباس والرقص، وهي أمور لم تكن نقوم بها «نحن» من قبل. غضبنا من اختلاف اهتماماتنا، وأصبحت لدينا مشاحنات أكثر.

أو بالأحرى، أنا علق على كل شيء، وهو لم يقل شيئًا. لقد تمسكنا أيضًا بالأجزاء المألوفة من حياتنا في محاولة لتهدئة أنفسنا: ذهبنا للنوم معًا، واستيقظنا معًا، وتناولنا وجبة الإفطار، وتشاركنا أخبار اليوم. لكن محادثاتنا أصبحت تدور حول أشياء لوجستية، هل دفعت الفاتورة أو أرسلت تلك الهدية وما إلى ذلك. في المساء، كان يريد زيارة منزل أهله أو الالتقاء مع أصدقاءه لتناول العشاء. بدلاً من أن نكون وحيدتين مع بعضنا البعض، ملأنا حياتنا بالأصدقاء كي نتجنب مواجهة هذا التطور في علاقتنا.

لقد كان الوقت مربكًا. بدأ الصمت بالتسلل إلى فضاء بيتنا حيث لم يكن هناك أي صمت من قبل. كنت أعرف أنني أحب زوجي. كنت أعرف أيضًا أن قلبي يزداد برودةً وأناي أصبحت حزينة. عندما كنت أستكشف أكثر في حياتي بدون أمجد، شعرت بأن حبي له بدأ يفلت، لكنني لم أكن أعرف كيف أعبر عن مشاعري. بدأت في اكتساب الوزن، فقط بضعة باوندات، ولكنها كافية لجعل ثيابي غير مريحة، وكأن جسدي يعبر عن عدم رضائي واختناقي من الداخل. الكلمات يمكن أن تكذب لكن الجسد لا يستطيع. الأمر الأكثر إثارة للقلق هو أنه بمجرد أن عاد أمجد إلى عمله في فلسطين، بدأت ألاحظ انجذابي إلى رجال آخرين. لسنين مضت لم ألاحظ أي رجل، كان حبي لزوجي أكبر من أي شيء، ولا أرى أي شخص آخر. لكن هذا كان يتغير. عندما أدركت ما كان يحدث، أدركت أنني يجب أن أنتبه إلى حالة زوجي. لم أستطع الانتظار أكثر لأن ينهي أمجد سنته الثانية في فلسطين. كنت بحاجة إلى أن أكون مع زوجي مرة أخرى في أقرب وقت ممكن. اتصلت به وقلت: «أنا متعلقة بزواجنا بأطراف أصابعي». «إذا أردت أن تنقذ زواجنا، فأنت بحاجة إلى العودة الآن». عاد أمجد إلى الولايات المتحدة بعد شهر أو اثنين في وقت لاحق. كنت أعلم أنه كان يقدم تضحية كبيرة بعمله من أجل زواجنا، ولكن عندما سار من خلال باب الشقة الجديدة التي استأجرتها، بدا وكأنه شخص غريب. كنت على دراية بالطريقة التي كان ينظر بها، والطريقة التي سار بها، تصرفاته، ورائحته، ولكن لم يكن لدي أي فكرة عن من كان هذا الرجل. بدا وكأنه يشعر بنفس الشيء تجاهي،

لكنه بدا أقل اضطراباً من المسافة الجديدة. وقد عقدنا العزم على البقاء معاً، وحاولنا العودة إلى الوقت الذي كانت فيه قلوبنا تتحدث مع بعضها البعض دون عناء. تذكر كلانا كيف كنا نشعر، وكيف كنا نتصرف، وما أحبه كل منا بالآخر، وما كان يجعلنا نضحك. فعلنا كل هذه الأشياء مرة أخرى، على أمل إطلاق المشاعر التي كانت لدينا. على سبيل المثال، اشترى لي أمجد نفس نكهة الزبادي التي أحببتها عندما تزوجنا لأول مرة. في ذلك الوقت، هذه اللفتة جعلتني سعيدة جداً. بعد أحد عشر عاماً، لم أعد أحب زبادي التوت. ومع ذلك، بغض النظر عن عدد المرات التي أخبرته فيها، كان دائماً يشتريها عندما نذهب إلى المتجر. عندما أفرغ حقيبة البقالة، كنت أتأثر وأحبط. كان يحاول أن يفعل ما اعتاد على فعله، لكنه لم يتمكن من سماع حقيقة أنني لم أعد أرغب في ذلك. كنا مثل اثنين من الممثلين الذين يحاولون تكرار اللعب القديم للحب الحقيقي، على أمل أننا إذا تصرفنا بشكل جيد بما فيه الكفاية، فإنه سيصبح حقيقياً كما كان في السابق. لقد ملأنا وقتنا بالعمل ورؤية العائلة والأصدقاء، ولكن حياتنا كانت تتحرك بشكل منفصل. كنت ذاهبةً إلى مزيد من المراجعات الذاتية للتطور، عاكسةً من أنا، ما أردت، وما هي نقاط قوتي وضعفي. كان لدي أصدقاء جدد واهتمامات جديدة. توسلت لأمجد أن يأتي معي إليمنتكفٍ روحي أو دورات لتطوير الذات. أردت أن أنعمق في نفسي، وأردته أن يكون جزءاً من ذلك أو على الأقل أن يشهد التجربة معي كوسيلة لإنشاء رابطةٍ مشتركة يمكن أن ننمو فيها. اعتقدت أنه سيجدها مثيرةً للاهتمام أيضاً. من جانبه، أصبح يستهلك الكثير في عمله التفاوضي للسلام وتشارك ذلك مع أصدقائه الجدد في السياسة وفي العالم الدبلوماسي. يقولون إن أي شخص يعمل على المشكلة الفلسطينية-الإسرائيلية يصبح مهووساً بها، وهذا ما كان يحدث بالتأكيد في منزلنا. كان الإيقاع الجديد معاً منفصلاً، إلا أنه كان لا يزال يرى الجزء المشترك بينما كنت أرى الجزء المنفصل. عندما بدأت باستخدام «أنا»، كان يصحح لي: «نحن، نحن، زينب». ولكنني شعرت أكثر وأكثر أنه لا يوجد «نحن». أنا وأمجد أحببنا بعضنا البعض، لكن العلاقة لم تكن ذاتها. كان الأمر يشبه العيش فوق الخزان دون فهم كيفية الوصول إلى الماء. بعد عقدٍ من الزواج المحب، كنت أفق الآن أكثر على قدمي. لم أعد فتاةً ضعيفةً بعد الآن. لدي احتياجات ورغبات مختلفة الآن. الحقيقة هي أننا نتغير. مع تغيرنا، تتغير الديناميكية في علاقتنا، يجب أن نستوعب هذا الشخص الذي أصبح فيه، سواء كان أفضل أو أسوأ. عندما نكون صادقين مع أنفسنا، فإننا نتصارع مع هذه التغيرات. عندما نخاف، نختبي منها وأحياناً نختبي من نفس الأشخاص الذين نحبهم. هذا يجعلنا نعيش في نصف الحقائق. عندما لا نستطيع الوقوف حتى للعيش في نصف الحقائق، فإننا نتصرف.

لم تكن حياتنا الطريقة الوحيدة للتصارع. في الواقع، لا توجد صيغة مثالية لإيجاد أو عيش صداقات أو علاقات حقيقية. هناك من يستكشف الصعوبات والتغيرات معاً، بغض النظر عما يأتي. هناك أيضاً أولئك الذين ينكرون الحقيقة طالما استطاعوا، وبعد ذلك يعصرون عيونهم المغلقة عندما يكون من المستحيل تجاهلها. إنها مشاحنات مع الحقيقة. يتعلق الأمر بمدى معرفتنا بحقيقة حياتنا، ومدى الراحة التي نعبّر بها عن ذلك، ومقدار ما نعيشه بالفعل. بعض الناس يملؤون هذا الفضاء من النضال بصيحات صاحبةٍ ومضللة، أو بصراخ صامتٍ يذهب إلى الداخل، لم يسمع به أحد. يتصارع البعض مع الحقيقة عن طريق العلاج النفسي أو قراءة الكتب أو مشاهدة الأفلام. يبحث آخرون عن ذلك خارج علاقاتهم، من خلال الذهاب إلى البغايا، أو علاقات رومنسية خارج الزواج، أو استخدام المشطات أو الدسائس، كلها أساليب لملء الفراغ في العلاقة مع النفس. ينتظر البعض حتى تدفعهم الكارثة إلى الوضوح، والبعض الآخر، حتى حافة الموت. فيما آخرون لا يصلون إلى هناك. الرحلة لإدراك ما هو صحيح بالنسبة لنا الآن،

إلى قول تلك الحقيقة، يمكن أن تكون فوضوية. يمكن أن نشعر بالوحدة أو الارتباك حين نسأل كيف وصلنا في هذا العالم. كيف تغيرت الأشياء كثيرًا؟ أي جزء منا لا يزال يجب حياتنا القديمة؟ أي جزء منا لا يفعل؟ أي جزء منا غاضب؟ خائف؟ غير آمن؟ هل يمكن أن تتحقق هويتنا وشعورنا وأن تنجو علاقتنا؟

كان كل من لوري ومايكل فنانيين جذابين خفيفا الظل، عاشا وعملا في أريزونا، وسافرا إلى جميع أنحاء العالم لصناعة الأفلام، واتبعا أسلوب حياةً صحيًا. لقد وقعا في الحب في العشرينات من أعمارهم، وتزوجا، ولديهما أطفال. في أحد الأيام، وبعد مرور عقدين على زواجهما، كانت لوري تلاقى فنانًا زائرًا من المطار المحلي، ولدهشتها، بدأت الشرارات تطير. مع شعره الطويل والوشم والأساور المنسوجة، ذكرها بمايكل عندما التقيا للمرة الأولى. بقيت لوري على اتصال مع الفنان الأصغر. كانت تغازله، وكان يغازلها. من الطبيعي أن تشعر بالانجذاب إلى الآخرين على مدار الزواج، ولكن عندما تكون هناك رغبة قوية في العمل على هذه الجاذبية، فقد حان وقت التوقف. أدركت لوري، أنه لم يكن الأمر متعلق به، بل كان الأمر متعلق بما كان - أو لم يعد - يحدث في زواجهما. «نحن بحاجة إلى الاستيقاظ»، قالت لوري لمايكل. «إذا بقينا هكذا سوف ينتهي زواجنا. ولكن إذا كان لا يزال هنالك حب بيننا، فعندئذ لدينا فرصة». في البداية، بحثا بشكل منفصل. هل أذهب؟ هل أبقى؟ هل أحبه؟ هل أتركها؟ ماذا أفعل؟ ماذا أريد؟ بعد الذهاب إلى العلاج والبحث عن أطباء نفسيين ومعلمين روحانيين بشكل فردي لبعض الوقت، كانا قوين بما يكفي لاستكشاف هذه الأسئلة معًا. وعندما اكتشفا سبب وكيفية تفريقهما، بدأت تظهر القضايا المدفونة من طفولة مايكل، ثم ظهرت قصص لوري العميقة الخاصة أيضًا. رآته يبكي. رآها متألمة. لم يكن الأمر سهلاً. في بعض الأحيان، تبدو احتياجاتها وحقاتها مختلفة جدًا عن أن يكونا متوافقين بعد الآن، وتدفعهما نحو حافة انفصال دائم. كانت النعمة التي يوفراها هي أنه مهما كانت الأمور مؤلمة، فقد استمرّا في الحديث وعقد أيدي بعضهما البعض خلال الرحلة الوعرة برمتها. بعد سنوات قليلة من هذا النضال، لم يتوقعا أنها لن يستطيعا الاستمرار كزوجين. لقد حاولا الانفصال، فقد نجيا من أزمة عائلية، وقاما بالكثير من العمل الذاتي سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. لقد ذهبا لإدراكهم بأن حبهما ما زال سليمًا بعد كل هذا الصعود والهبوط. لقد خرجا من الجانب الآخر من اضطراباتها بحب متجدد أكثر نضجًا وعلاقة عاطفية مثل تلك التي كانت منذ عقود مضت. إنها الآن تشهد على أنها إنسانان معقدان تمامًا، لكل منهما تاريخ. بالألم وبالنضال، والتناقض والارتباك، والدموع والضحك. أصبح الأمر أكثر قبولاً.

سار لوري ومايكل عبر النار معًا. ليس كل شخص قادرًا على فعل ذلك. هناك أيضًا هؤلاء الناس الذين يخفون صراعهم في الوضع الراهن، مثل صديقتي أنابيل. كانت أنابيل ناشطة في مجال حقوق المرأة ولديها حياة أكبر من حياة سان فرانسيسكو. كانت لديها ضحكة كبيرة، ومنزلها مزدحم باستمرار بالمناسبات والحفلات، جمع تبرعات والمحاضرات وجميع أنواع التجمعات. كانت تحب الترفيه.

تزوجت أنابيل من رجل أعمال ناجح قبل عشرين عامًا من لقائي بها، وكرست نفسها لمساعدة الآخرين. أغلب الناس حولها لم يعرفوا الكثير عن زوجها المنعزل، فهو بالكاد كان يقول كلمة واحدة. كنا نعلم أنه في الوقت الذي كانت فيه أنابيل نشطة ومفعمة بالحياة، كان هم يبدو في كثير من الأحيان مكتئبًا ومفككًا، ولكنها لم تشعر أبدًا بقدر كبير من الاختلاف، ولم تشك إلا عن القليل من مشاكلها الزوجية. كان زوجها يمشي خلال المناسبات في منزلها مثل شبح في يده كاسًا. كانت تشير إلى شربه ولكن سرعان ما تقابل الأمر بابتسامة ثم تغير الموضوع. «لدي الكثير من الامتنان لكل شيء آخر حولي»، كما كانت تقول. ثم في

أحد الأيام، بينما كانت أنا بيل تسافر حول العالم لدعم إحدى منظماتها الإنسانية، رمى زوجها صندوقاً كانت تجمع فيه كل ما تحبه من كتب وقصص صغيرة، وملصقات لفتت انتباهها خلال السنين. كانت أنا بيل متحمسة لإبقاء كل الأشياء التي تحبها منذ أن كانت طفلة، من غلاف الحلوى إذا كان عليه اقتباس أعجبها، إلى القصائد والأقوال التي أحببتها، والصور الفوتوغرافية والمجلات، وجميع أنواع التذكارات السعيدة. كانت تحب أن تسحبها من العلبة ثم تتصفحها وتقرأها لتستعيد ذكرياتها الجميلة. وعندما عادت من السفر واكتشفت أن صندوقها مفقود، تحطم قلبها.

قال زوجها عندما واجهته: «لا يوجد شيء مهم فيه، كله قمامة». ما فعله كان شيئاً بسيطاً ولكنه كان قاسياً في الوقت نفسه. لقد أكثر من صمته تجاهها أو الاكتئاب الذي كان قد دخل فيه. كانت متسامحة مع انزلاقه إلى الهاوية، والابتعاد عنها، إذ كانت تتغاضى عن الأمر، تغاضينا مثلنا متغاضى جميعنا جميعاً عن أشياء كثيرة في العلاقات الطويلة. لكن هذه المرة، كان الأمر أنها شعرت بالأذى، لقد كان تصرفه لئيمًا ومتعمداً لأذيتها. أدركت كم كانت تشعر بخيبة أمل عميقة منه، ومن زواجهما. كان تصرفه القاسي بمثابة مرآة لم يكن يوسعها إلا أن ترى انعكاس صورتها فيها.

سألت أنا بيل أصدقاءها المقربين: «هل أغادر، أم أبقى؟». أدركت أن تركه يعني إحداث تغيير جذري في حياتها وأسلوب حياتها. فأنا بيل لم تعمل منذ زمن طويل، وسوَّثر طلاقها ماليًا على نمط حياتها، وعندما قالت صديقتها المقربة لها: «لا تقلقي كل ما عليك هو البقاء معه، والعيش بالطريقة التي تناسبك، كانت على استعداد للاقتناع. «ما دام زوجك يدعمك ويتركك وحدك لتفعل ما تشائين»، فمن يهتم بما يفعل؟! ابقى في الزواج وتجاهليه». أخذت أنا بيل هذه النصيحة. لقد اتخذت قرارًا عمليًا: فهي ستعايش مع زوجها الذي لم تعد تحبه، مقابل الحياة المادية المريحة التي قدمها، المنزل الجميل، والسفر الفاخر، وحياة الأثرياء التي استفادت منها بشكل جيد. وضعت على وجهها قناعاً قول: «كل شيء على ما يرام»، مثلما وضعت أحمر شفاه لامعاً قبيل إحدى مناسباتها الرائعة. لم أسمعها أبداً تتحدث عن الزواج أو زوجها مرة أخرى. عاد زوجها إلى الشرب، وعادت إلى جميع أنشطتها الاجتماعية. كان الأمر كما لو أنها في مكان ما قد تركته ذهنياً وعاطفياً، بينما بقيت متزوجةً جسدياً. أصبحت أكثر نشاطاً في دعم حملات حقوق المرأة حول العالم. كان من الأسهل لها أن تتحدث بحماسة عن كفاح النساء في أفريقيا أو الشرق الأوسط بدلاً من مواجهة نضالها من أجل العيش في حقيقتها الخاصة كل يوم. ثم جاء تطور القدر. بعد بضع سنوات، تم تشخيص حالتها بالسرطان وقدر أن لديها بضعة أشهر لتعيشها. عندما أصبحت الحياة مسألة شهور، وليست سنوات، كانت واضحة لل غاية بشأن ما لم تعد تقبله. طلبت من زوجها المغادرة. أرادت أن تقضي اللحظات الأخيرة من حياتها مع حقيقتها، محاطة فقط بالأشخاص الذين تحبهم. احترم رغباتها وابتعد. بعد ثلاثة أشهر، ماتت.

كانت أنا بيل تنتظر حتى آخر نفس من حياتها للتوقف عن تحمل الكذب الذي كانت تعيش فيه. السؤال هو: متى؟ هل نريد أن ننتظر إعلان ما نعرفه، والوقوف تجاهه، والعيش فيه، والتحرر منه؟ لم أختبر أنا وأجد التحديات في علاقتنا معاً، مثلما فعل لوري ومايكل، ولم نستسلم للصمت الذي كان يزعجنا إلى قلوبنا، كما فعلت أنا بيل. «قبل اتخاذ أي قرار نهائي»، نصحني أحد الأصدقاء، «يجب أن تحاولي إنقاذ زواجك بكل الوسائل الممكنة. أنت لا تريدين أن تشعرين بأي ندم إذا انتهى الأمر». سمعت نصيحته. أمتلك أنا وأجد مثل هذا التاريخ القوي والمحب الذي لم أستطع التخلي عنه. شعرت بأنه من حق أجد هذا على جميع السنوات السعيدة التي قدمها لي. لقد أنقذني عندما كنت ضعيفة. عندما خفت من الرجال، ذاب قلبي

بلطف معه، تعلمت أن أثق. قبل كل شيء، لم أكن أريد أن أؤذيه. لذلك كنت ملتزمة بمحاولة أي شيء وكل شيء. لقد كررت «أنا أحبه، أحبه، أحبه» في قلبي، حاولت بإرادتي وحدي إعادة إشعال حبي وشغفي. قمت بتنظيم شهر عسل ثانٍ إلى مكان رومانسي. وزخرفت غرفة نومنا. طلبت من أجد الانضمام لي في مغامراتي في الطبيعة، ووجدت مستشار زواج لنا. في بعض الأحيان، رأى أجد كل هذه الاستكشافات الجديدة كأشياء أخذتني منه. في أوقات أخرى، كان مشغولاً للغاية بالعمل عن الانضمام لي. كان يعتقد أيضاً أن الروتين القديم المألوف في حياتنا كان جيداً. لقد اعتقد في نهاية المطاف أننا قد مررنا بهذه البقعة التقريبية بخير. وجاء الوقت الذي اعتقد بأنه يجب أن نتابع خطتنا لإنجاب طفل. ربما طاقة حياة جديدة تقربنا، غالباً ما تقول النساء وخاصة في العراق: «أنجبوا طفلاً لتتقدوا الزواج».

وعندما فكرت بجديّة في الموضوع، أحسست أنه لم يكن أمراً «يتقد» الزواج بل «يغلق» الزواج، ويجس الزوج والزوجة في التزام متبادل تجاه طفلها. لم أكن أرغب في حبس أجد أو نفسي في أي شيء. كنت أريد أن نعيش معاً بشكل حقيقي. في الحقيقة، لم أكن أريد طفلاً أبداً. كان شرط الزواج من أجد أننا لن ننجب أطفالاً، وهو اتفاق وافق عليه رغم أنه كان يرغب بهم، فلما وجدت نفسي أفكر بإنجاب الأطفال، أدركت أنني كنت أتصرف في حالة من اليأس المجنون: إن جلب الأطفال إلى علاقة غير سعيدة سيكون كارثة. ما لم أكن أعرفه هو أنه عندما لا نقول الحقيقة - الحقيقة البسيطة، الصادقة، غير المرشحة - حول ما نشعر به داخل القلوب، فإن المشاعر التي نحاول إخفاءها تصبح أكثر قوة. ويصبح الألم أكثر إيلاماً، تصبح الوحدة أشد، ويصبح الحزن أكثر عمقاً. نما حزني لأنني كنت خائفة من قول الحقيقة البسيطة: كنت أبقى في الزواج ولأء لرجل جيد جداً، ولكن قلبي لم يكن سعيداً بعد ذلك.

في استيائي والإحباط والارتباك، أصبحت في النهاية قاسية تجاه أجد. كنت أتحدث مع أصدقائي بلغتي العربية، وأنا أعلم أنه لن يفهم الفروق الدقيقة في المحادثات أو اللنكات أو الموسيقى. بهذه الطريقة، عزلته بمهارة. أود أن أدلي بملاحظات قاسية حول أشياء يمكن أن تعرفها الزوجة فقط، وأن تؤذي زوجها. كنت غير صبورة معه ولم أكن منتبهة عندما كان يشاركني صدمات الطفولة التي كانت تطفو على السطح. عندما طلب النصيحة المتعلقة بعمله، لم أجبه. لم أكن مهتمة. في الوقت نفسه، شككت في حبه لي وأصبحت أشك به إذا أظهر اللطف تجاه امرأة أخرى. أصبحت القسوة هي القاعدة. كلما انغمس في ذلك، أصبحت أكثر برودة وأكثر استهتاراً في أخذ حبه كأمر مسلم به. وعندما كان الحب يتعلق بالظهور، فعندئذ لم أكن أحضر، سواء بالنسبة له أو لنفسي. إذا كان الحب يتعلق بالحضور ورؤية ما يمر به الشخص الآخر والتواصل من خلاله، فحينها توقفت عن الحضور. لم يكن لديّ الشجاعة لأخبره بما كان في قلبي، ولا يمكنني دفع نفسي لمواجهة صمت خاص بي، غير قادرة على الاعتراف بأنني غير سعيدة. أصبحت قبيحة. كنت قبيحة في سلوكي تجاه الرجل الذي أحببته. عندما تتجنب الحقيقة لتجنب الآخرين، يصبح صمتنا سكيناً أكثر حزمًا ويتعمق أكثر. صمتنا يؤذي الآخرين. فنحن نسبب الضرر حتى ونحن نعتقد أننا نتجنب ذلك.

قبل أن تتوفى، دعت أناييل مجموعة من الأصدقاء المقربين لزيارتها في سان فرانسيسكو. كنا مجموعة من الصديقات، نتسكع، نضحك، نطلب الطعام الإيطالي. أعطتنا أناييل جلسة خاصة مع قارئة بطاقات التارو. يوجد حديث في التراث الإسلامي يقول: كذب المنجمون ولو صدقوا. أنا أؤمن بذلك. لأنه بغض النظر عن كيفية العيش نفسياً، لا يمكن لأحد أن يعرف الحقيقة المطلقة. على الرغم من أنني كنت أشك في طريقة الحصول على هذه الرؤية، إلا أنني ما زلت غير قادرة على مقاومة استكشاف المجهول الغامض.

لقد قمت بتحديد موعد، وبدأت قارئة بطاقة التارو من خلال خلط البطاقات. طلبت مني سحب عددٍ منها ونشرها على الطاولة بيننا. عندما فتحتها وألقت نظرةً.

● قالت: «أوه، أنت عازبة».

● «لا، أنا متزوجة»، قمت بالتصحيح لها.

اعتذرت، عدلتها مرة أخرى، وطلبت مرة أخرى سحب عدة بطاقات. نظرت مرة أخرى:

● «تقول إنك وحيدة ولست في علاقة».

● «لا، لا، أنا امرأة متزوجة»، قمت بالتصحيح لها مرة أخرى.

مررنا بالعملية مرة أخرى، ومرة أخرى، قالت البطاقات نفس الشيء. بدأت بالبكاء. هذه المرة فهمت: «أنا متزوجة، نعم، لكنني حقاً وحيدة». كانت هذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها الاعتراف بهذه الحقيقة. إن اليوم الذي نطرح فيه الحقيقة بصوت عالٍ هو اليوم الذي نواجه فيه كل الخيارات، كل التحولات. يجب أن نقرر ما هي الإجراءات التي ينبغي اتخاذها والتي لا ينبغي اتخاذها؛ إما سنواجه هذه الحقيقة ونفعل شيئاً حيالها أو سوف ننكرها ونبتعد عنها ونبدأ بالموت قليلاً من الداخل.

عندما عدت إلى بيتي بعد زيارتي أنابيل، جلست على الأريكة وبدأت بالبكاء. لقد اعترفت أخيراً بحقيقة تخصني أنا وأمجّد، لكنني لم أكن أعرف ما الذي يتوجب عليّ فعله حيال ذلك في ذلك الوقت. كنت أعرف من كتابة مذكراتي أنه عليّ الرغم من صعوبة رحلة الحقيقة فإنها تستحق عناء مشيها. و فقط عندما أقص حقيقة حياتي يمكنني أن أنزل عن كاهلي العبء الثقيل الذي يثقل عليّ وأتوقف عن الاختباء خلف نفسي وخلف الحياة. كنت لا أزال أبكي على الأريكة عندما جاء أجد إلى البيت. عندما رأى دموعي، عرف الحقيقة. «تريدين أن تركيني، أليس كذلك؟» كنت أمسك برأسَي بين يدي وأومات بالإيجاب. أجل.

كانت شجاعة أجد، وليست شجاعتي، هي التي سمحت لي بأن أوضح ما هو حقيقي، كان الأمر مؤلماً. عندما تكون الحقيقة مكشوفةً في العراء، فإنها تخلق جسراً يمكن أن نُعبّر عبره على الرغم من جدراننا ودفاعاتنا. لأول مرة منذ فترة طويلة، جلسنا معاً. في ذلك اليوم في غرفة المعيشة، مع الموسيقى المفضلة لدينا التي تلعب في الخلفية، تأملنا معاً. ثم، ببطء، وبطء، بدأنا نتحدث. يمكننا أخيراً أن نتحدث بشكل عميق عن حياتنا وزواجنا وبعضنا البعض. فعلنا ذلك دون لوم. لقد امتلكننا كلماتنا وأفعالنا وعملياتنا. كنت أعرف أن عدم بوحى بحقيقة مشاعري له، إنما كنت أخاطرُ بفقدان حب واحترام أجد. كنت محظوظة؛ فقد كان أجد (وما زال) لطيفاً معي. كان يعلم أن روحي تتوق إلى استكشافات جديدة في حياتي، وفهم أعمق لنفسي، وتتوق إلى الحرية التي كنت قد ذقتها من خلال كتابة الحقيقة عن الماضي. بعد بضعة أيام، بعد أن تحدثنا بصراحةٍ وأمانةٍ مع بعضنا البعض، غادر أجد. لم يكن عمق احترامنا والمحبة لبعضنا البعض موضع تساؤلٍ مطلقاً. كنا نعرف أننا سنكون دائماً أصدقاء. كنا نعرف أيضاً أن هذه كانت نهاية ما كان لفترة طويلة علاقةً محبةً. بعد أن غادر، وجدت نفسي أقضي المزيد من الوقت في المنزل، في الحديقة والمطبخ، وزرع الزهور وتجربة وصفاتٍ جديدة. في السنوات القليلة الماضية التي عشناها معاً، كنت قد ملأت جدول مواعيدي بالسفر والاجتماعات.

لم أكن أتجنّب أجد بوعى. اعتقدت أن عملي يتطلب مني أن أكون مشغولة. عندما جاء أجد لزيارتي بعد شهرين، وجدني في المطبخ والبستنة، سعيدة في سلام. «أستطيع أن أرى ذلك الآن أنت سعيدة»، قال، إنه يلاحظ ابتسامتي المكتشفة حديثاً. «إن أكبر تعبير عن الحب لك يا زينب، هو السماح لك بالرحيل. هذا هو مقدار حبي لك». لقد تأثرت بكلماته، وكما كان دائماً، بفضل سخائه، استطعت أن أرى أنه كان يعاني الكثير من الألم. اليوم الذي نحمل فيه قصتنا الخاصة بأنفسنا هو اليوم الذي نبدأ فيه بإعادة التفاوض على علاقاتنا مع أولئك الذين كانوا يحملونها من أجلنا. في حالتي مع أجد، لم نكن نعرف كيف نتطور معاً داخل زواجنا. لذلك تركنا الزواج وتطورت علاقتنا إلى صداقة مقربة وناضجة بدلاً من ذلك. بعد أقل من عام، ذهبت أنا وأجد إلى محكمة الطلاق. سيكون كذباً أن أقول بأنه لم يكن لدي أي حزن بشأن نهاية هذه العلاقة. لقد أصبح أجد أفضل معلم في الحب غير المشروط قبل الزواج، وخلال الزواج، وبعد الزواج. عندما التقينا لتناول العشاء في الليلة التي سبقت تاريخ المحكمة، قدمت له هدية عبارة عن صندوق فارغ مصنوع من الخشب المطلي باللون الأسود. لم نتعاق أو نبكي، بل نظرنا إلى بعضنا بعبث الحب والحزن. قلت له: «أتمنى أن يملأ هذا الصندوق الجديد صداقتنا الجديدة واستمرارنا بالاحترام والحب والإعجاب لبعضنا البعض».

اقتسمنا أشياءنا، عارضين على بعضنا كل ما نريد أخذه. لم تكن هناك ثمة منازعات. وكنا كلانا نريد أن نكون كريمين ونعطي الأولوية لمحبتنا واحترامنا لبعضنا البعض على كل المشاعر الأخرى التي نشأت أثناء هذه العملية. لقد اجترنا اللحظات التي لا محيد عنها من الانزعاج والحساسية قدر استطاعتنا. في اليوم التالي، دخلنا قاعة محكمة الطلاق ونحن نمسك بيدي بعضنا البعض. بدت الدهشة على محيا القاضية وقالت: «ألن تتطلقا؟»، وعندما أجبت بالإيجاب أمرتنا بالوقوف قبالة بعضنا البعض في ممرين منفصلين. وكررت هل أنتما متأكدان؟ أو مات بالإيجاب. عندئذ أعلنت طلاقنا النهائي.

إن عيش حقيقتنا هو الطريق إلى الحرية. هذا لا يعني أن الجميع سوف يعجبهم ذلك. عندما نكتشف ما هو صحيح بالنسبة لنا وما هو غير صحيح، قد لا يرغب الأشخاص الذين اعتادوا على معرفتنا بطريقة معينة في التعامل مع من نكون. قد يتحدى ذلك أفكارهم أكثر من اللازم، والأفكار عنا وعن أنفسهم. كان من الصعب مواجهة حقيقتي فيما يتعلق بزواجي. لقد طرح خبر انفصالنا وطلاقنا مع أصدقائنا وعائلتنا مجموعة خاصة من التحديات. هذه الأحاديث الحميمة أثارت ردود فعل مختلفة. كان هناك من حمل ألماً وقصصنا بالحب والاحترام، بدون حكم. إن أسرتينا، اللتين كانتا تحباننا كثيراً، سألتانا مراراً وتكراراً إذا كنا متأكدين من الانفصال، لكننا دُعمنا في نهاية الأمر في قرارنا. آخرون لم يكونوا داعمين لذلك. كان البعض حزيناً ومحبطاً، حيث رأوا أن تفكك زواجنا كان بمثابة نهاية العلاقة التي كانت مثالية لهم، مثل نهاية الحب نفسه. كان بعضهم محرّجاً، وألقى باللوم على جرأتي في رغبتني في شيء مختلف عن رجل رائع مثل أجد. حاول بعض معارفي إغراءه بمجرد خروجه، وآخرون فعلوا الشيء نفسه معي. بعض الناس قاموا بالنميمة وحاولوا خلق الاحتكاك بيننا. من بين الذين كانوا غاضبين ومدمرين صديقتي مارغريت. خلال الغداء، شاركتها ما مررت به للتوصل إلى قرار. سألت المزيد والمزيد من الأسئلة، وأصبحت مثل المدعي العام الذي كان معي على الموقف. وأخيراً، قالت مع خليط قوي من الغضب والاستياء، «هذا قرار جريء وشجاع». لم أستطع فهم غضبها. اتصلت مارغريت بأجد وتكلمت عني. اتصل أجد بي مباشرة بعد ذلك: «زينب، هناك أشخاص يحاولون تفريقنا. أريد فقط أن أخبرك أنني أرى ذلك. علاقتنا هي أهم شيء بالنسبة لي». لم يمض وقت طويل قبل أن نُحل صداقتنا مع مارغريت بالكامل. استغرق الأمر بعض الوقت لفهم أنه عندما يتجرأ شخص واحد على قول الحقيقة الخاصة به، يصبح مثل مرآة حياة الآخرين، يعكس درجة

الحقيقة التي يعيشون فيها. ما هي شبكة معقدة من الأكاذيب والخداع - وخداع الذات - التي نسجت في حياتهم؟ غضب مارغريت لم يكن حقيقة بسبب انفصالي عن أمجد. كان ذلك أكثر انعكاسًا لأي تحدٍّ كان يمر في زواجها الذي لا تستطيع تحمله. أظهر غضبها أنني لمستها، وأزعجتها، وأشرت عن غير قصد إلى شيء غير مريح في حياتها. سواء كنا نعيش حياتنا بشكل كامل أو نفشل في العيش فهذا مسؤوليتنا وحدنا. إنها حياتنا، أنفاسنا، وفرحنا الخاص على المحك. كان من مسؤوليتي أن أكون صادقة مع نفسي ومع أمجد. الفشل في القيام بذلك كان فشلًا نفسيًا.

بعد أن قيلت لي الحقيقة وكان الطلاق النهائي، فقد حان الوقت لأكون وحيدة مرة أخرى. كنت مع أمجد طيلة حياتي خارج العراق، وقد آن الأوان لمعرفة من أنا الآن بدونه. اتصلت بصديقة كانت قد وجهت دعوة مفتوحة للبقاء في منزلها في المكسيك. قالت بكرم: «ابقي هناك طالما احتجت، ابقي حتى تستعيد روكك». بعد يومين، كنت هناك. كان للمنزل بركة وتحيط بها الحدائق المورقة. الأهم من ذلك، كان هادئًا، لا أحد حوله. في الأسبوع الأول، لم أفعل شيئًا سوى البكاء والأكل والنوم. كما بدأت في الخروج من شرنقتي، والتخفيف من نفسي إلى الوجود، قرأت من خلال رف كتبها كتبًا ملهمة حول المرأة والطبيعة والنشاط والتغيير. مارست اليوغا، تأملت لساعات في كل مرة، مشيت على الشاطئ وحيدة، وانغمست نفسي في النوم بقدر ما احتاجت له. بدأ الإبداع ينبض بداخلي. لقد وجدت بعض الألوان المائية وبدأت الرسم للمرة الأولى في حياتي. بدأت الكلمات تتدفق في سيل من الصور الشعرية. شعرت بأنني على قيد الحياة أكثر مما كنت عليه منذ سنوات. في أحد الأيام، في أحد مسيراتي الطويلة على الشاطئ الرملي الأبيض الفارغ، شعرت برغبة بالرقص. لوحدي على الرمال، من دون أي شخص حولي، كنت أتجول في فرح مطلق. شعرت بالسعادة! هذا عندما أدركت أنني أنا كعكة سعادتي الخاصة. لا أحد يستطيع أن يأخذ هذه السعادة مني، ولا يمكن لأحد أن يعطيها لي. أيًا كان من حضر إلى حياتي، فسيكون الزينة على الكعكة، لكنني سأظل دائمًا الكعكة نفسها. بعد أسابيع قليلة من العيش بهدوء والسماح لنفسي بالراحة، والاستكشاف، والإبداع، شعرت بأنني أرسيت نفسي وحررتي وفرحتي، أشياء كنت أبحث عنها خارج نفسي لسنوات. كان من السهل جدًا أن أشغل نفسي بالعمل بدلاً من معالجة الاحتياجات والدوافع التي كانت تظهر في داخلي. عندما حزمت حقائبي للعودة إلى المنزل، أدركت أنه سيكون عليّ إجراء بعض التغييرات في حياتي العملية، على الرغم من أنني لم أكن أعرف بالضبط ما الذي سيحدث. كنت أعرف فقط أنني أريد أن أبقى أكثر بالبهجة التي نمت بلا جهد عندما هدأت. وعندما عدت من المكسيك، كانت أنفاسي أكثر تساعًا وعمقًا. استطعت أن أكون بدون عبء العيش في كذبة بعد الآن. جعل هذا كل شيء أكثر سلامًا.

لكن هذا لم يكن نهاية رحلتي. في الواقع، كانت البداية. لطالما لدي المزيد من الأرض تحت قدمي، سأعرف المزيد عن هويتي وما يجعلني أشعر بالسعادة. أظهر لي هذا الوعي أن لدي المزيد من العمل إذا أردت حقًا أن أعيش في الحقيقة في كل جزء من حياتي. كانت ليلة الأحد، وكنت في المنزل لوحدي. كنت أشعر بالضيق، غير قادرة على الاستقرار والهدوء. لصرف نفسي، حاولت أن أرتب. هذا لم ينجح. بعد ذلك انشغلت بالقراءة. هذا أيضًا لم ينجح. كان الأمر أشبه بحكمة لم أستطع خدشها.

وفجأة خطر لي خاطر: لو كان أمجد معي، لكان اختياري قد وقع على شيء قاله أو فعله لإزعاجي، ولكن قد وضعت اللوم عليه. ولكن قد تسببت في شجار. لكنه لم يكن موجودًا: كان المنزل خاويًا على

عروشه، وكانت غرفتي فارغة، وكان السرير الذي كنت أستلقي عليه يضميني أنا فقط.

عندما حدث هذا، رأيت إصبعي - الإصبع الذي كان يشير إلى أمجد - يشير إلي، متهمًا إياي. فكرت: أوه لا. هذا أنا!

وللمرة الأولى في حياتي، أدركتُ أنه بدلاً من مواجهة نفسي، كان من عادتي أن أشير بإصبعي إلى الشخص الذي أمامي مباشرة وألقي اللوم عليه بخصوص قلقي واستيائي. لم يكن يولي اهتمامًا كافيًا، ولم يكن يسمعني، ولم يكن يبالي، وكان يقوم بالأشياء على نحوٍ خاطئٍ، وهلم جرا، وهلم جرًا.

بدأ ذهني يمتلئ بالهمس من الألم والإحباط الذي أوقعته، ليس فقط بأمجد، ولكن أيضًا على العائلة والأصدقاء والزملاء، ما جعلهم جميعًا مصدر سخطي. أدركت أنه إذا كنت أرغب في مواصلة تذوق الحقيقة والفرح والحرية اللذيذة في حياتي، فقد كان يفترض بي اتباع إصبعي الخاص والنظر إلى ما كان يشير إليه. وبعد عام من الطلاق، واجهني ما كنت قد تركته أمامي: أم جميع الرحلات، الرحلة التي تغور في الداخل، الرحلة التي تقودني إلى نفسي.

الفصل الثالث

حياة نجاحنا

«لا تتطلب أحلامنا منا التضحية بالنفس»

عندما نصبح هادئين ونسمح لأنفسنا بأن نكون على ما نحن عليه فقط، فإنه غالبًا ما تتم الإجابة على الأسئلة الملحة لدينا. يمكن أن يكون هذا الأمر منافياً لحس الناس المسيرين والذين يملكون الأمور أو الذين يمضون الكثير من الوقت في التفكير. لكن الإجابات توجد في أغوار كينوناتنا، إن كان بمقدورنا فقط إيجاد الوقت والفراغ لسماعها. عندما كنت أتصارع لتطوير دوري في العمل، أدركت أنني بحاجة إلى الهدوء من أجل الاستماع للحكمة في أعماقي، لكنني لم أكن متأكدة من كيفية الوصول إلى ذلك الهدوء. عندما كنت في الرابعة والأربعين من عمري، كنت أتلقى جوائز رفيعة المستوى وتغطية صحافية لأعمالي الإنسانية ولإنشائي جمعية «نساء من أجل النساء الدولية» منذ عمر الثالثة والعشرين. نمت منظمة «نساء من أجل النساء الدولية» من حملة تبرعات صغيرة قمت بها مع زوجي أجد أن ذلك، وعدد قليل من المتطوعين الذين كانوا يعملون في قبو منزل أهل أجد، إلى منظمة إنسانية كبرى تضم سبعمئة موظف وتمتلك مكاتب في عشرة بلدان. نساعد الآن مئات آلاف النساء الناجيات من الحروب ونوزع ملايين الدولارات كمعونات. وقد تغير دوري من العمل مع النساء في مناطق النزاع إلى قيادة جهود المنظمة لجمع الأموال. بغض النظر عن كل إنجازاتي، وإنجازات جمعية النساء من أجل النساء، كنت أشعر بالفشل. لم يبد لي ما كنا نجزه جيداً بما فيه

الكفاية أو عظيمًا كفاية لكي يفعل التأثير الذي حلمت به. كنت أريد أن يسمع العالم حقًا أصوات وأفكار ووجهات نظر النساء الناجيات من الحرب والفقر، لا أن يشعر بالسوء تجاههن. قد لا تكون تلك النساء متعلمات أو قد لا يتمتعن بالقدرة على الكلام، ولكنهن يتمتعن بحكمة حقيقية للحديث عنها. على الرغم من ذلك، يبدو أن العالم يفضل مشاهدة معاناتهن، وملابسهن الممزقة، ووجوههن المحطمة، ورؤية الدم والأوساخ. لقد اكتشفت أن الشفقة تجمع المال، لكنها لا تحمل الناس على سماع أصوات النساء، أو مشاهدة كرامتهن، أو مشاهدة قوتهن. كنت أريد من الناس ألا يعطوا المال لمجرد رؤيتهم الصور المروعة واستماعهم إلى القصص الرهيبة، بل أن يصغوا على نحوٍ أكثر عمقًا وأن يغيروا الصورة النمطية عن أولئك النساء. كنت على يقين بأن هذا هو الحل للقضاء على معاناة النساء على صعيد العالم. لكن التحول في المواقف لا يحدث بالسرعة الكافية. سببت لي مشاعر الإحباط والفشل حرجًا عميقًا. لم أكن أريد الاعتراف بها لأي كان، سواء أكان مرشدي أو زميلتي أو صديقتي، ولا حتى إلى طبيبي النفسي. كان بمقدوري الإفصاح عن تلك المشاعر فقط في خصوصية أفكاري، ولكن في معظم الوقت كان ذهني في حالة من العجلة. كنت أشعر بالقلق وعدم الراحة، من دون متسع كافٍ للتفكير كثيرًا. ولربما كنت أقوم بإشغال نفسي أكثر من اللازم في العمل والنشاطات الاجتماعية تفاديًا لمواجهةٍ أعمق مع قلبي.

حتى أن تسلية نفسي أصبحت مزعجة في نهاية الأمر. لقد آن الأوان للقيام بالمزيد من استكشاف مشاعري. وللقيام بذلك، كنت بحاجة إلى سلام الصمت. ومن دون أن أعرف أي شيء عن تأمل الزن، حجزت مكانًا لنفسي في معتزلٍ لمدة أربعة أيام. لم تكن لدي أدنى فكرة عن الشيء الذي أدخل نفسي فيه؛ كل ما كنت أعرفه أن المركز يتمتع بسمعة جيدة وأني سأراقب أفكاري وأنا أجلس وأسير في قاعات التأمل وفي الغابات مع المشاركين الآخرين، والذين لم أكن أعرفهم. وسيوفر لي عدم معرفة الناس بعضهم بعضًا والهدوء والأجواء غير المألوفة في منزل جميل في الغابة مكانًا آمنًا للتأمل. بدا الأمر مثاليًا. في اليوم الأول، اخترت سيلاً من المشاعر المؤلمة، والتي أردت تجنبها كلها. كنت قد تأملت في المنزل سابقًا، بعد اتباع إرشادات الأصدقاء أو دروس اليوغا أو مقاطع الفيديو التي كنت أشاهدها على الإنترنت، ولكن لمدة عشر دقائق فقط في كل مرة. لكن عندما جلست لساعاتٍ على الوسائد الصغيرة المستديرة على الأرضية في اليوم الأول، شعرت بالألم في كل جزء من جسدي. أعلن عقلي العصيان. كنت أركز على كل حركةٍ يقوم بها المشاركون الآخرون في محاولةٍ مني لإلهاء نفسي عن الغور في الأعماق. وعندما كان يتهدد شخصٌ ما أو يعطس أو يغير وضعية جسده، كنت ألاحظ ذلك. كان الانتباه إلى تفاصيل النمط في السجادة أو صوت الجرس النحاسي الذي يحدد الزمن، أسهل عليّ من طرح الأسئلة التي جئت كي أطرحها على نفسي. في نهاية المطاف، استقر جسدي واسترخى، وخيم الصمت. وبدأت أنسى كل عادات تسلية الناس الصغيرة من حولي على وسائلهم الخاصة. لقد تجرأت في النهاية على سماع أفكارى الخاصة والمشاركة في محادثة داخلية. سألت نفسي لماذا أنت في غاية الانزعاج في الداخل؟ غمرني فيض من المشاعر: إذ كنت أشعر بالحنين من التعبير عن مشاعري بالفشل على نحوٍ علني. تساءلت لم الحنن؟ وسمحت لأصدق فكرة بالإجابة. كان حزني فقدان علامتي الشخصية المميزة، وحزني التكلم أكثر من الإنجاز. وعار ألا أكون ناجحة كصديقاتي الناجحات؛ القلق من أن الناس قد يشعرون بالسوء تجاهي أو يتعالون عليّ، أو اضطراري للتخلي عن أحلامي الكبيرة والرضى بما أنجزته حتى الآن، وكنت أخشى العيش ببقية حياتي برفقة هذا السخط الذي لا يهدأ. كان لدي الكثير مما كنت أريد القيام به. ماذا سيحصل لو لم أستطع فعل ذلك؟ هل كنت أعمل بجدٍ

كاف؟ هل كنت أقوم بأفضل عملٍ أستطيعه؟ وهل كنت أدفع بأقصى ما أستطيع؟ وهل كنت أعطي كل ما لدي؟

وبحلول اليوم الثاني، كنت أتفحص كل زاوية من زوايا عقلي. كنت أريد النظر إلى جميع الأسئلة التي تنشأ من زوايا مختلفة. أتحتُ لنفسي سماع كل فكرة والشعور شعورًا تامًا بكل إحساس - مشاعر الشك والعار والحزن والقلق والحرج، كل شيء - . كان اختبار كل تلك المشاعر أشبه ما يكون بالمرور في مخزن يعج بالفوضى. تفحصت تلك الأفكار والمشاعر من الداخل كما أتفحص محتويات صندوق قديم، وكنت أتبنى الفكرة التي أحتاج لها وأرمي ببقية الأفكار. فإن استولى عليّ القلق، راجعت سبب قلقي. ما سبب هذا القلق؟ ما مصدره؟ هل هو حقيقي أم غير حقيقي؟ كنت أبقى مع الإحساس حتى أعالجه وأهضمه، ثم أحرره.

عندما حلّ اليوم الثالث، كان ذهني فارغًا في نهاية الأمر. كنت قد اكتشفت كل شيء حتى لم يعد ثمة مشاعر ولا مزيد من الفوضى والأسئلة والإجابات. لقد عملت من خلال تلملي ورغبتني في الإنجاز أكثر مما كنت قادرة على القيام به. كنت أشعر بالصمت فقط في الوقت الحالي. كان مشهدي الداخلي أشبه ما يكون بغابات ثلجية جميلة في الخارج، هادئة، باستثناء أصوات صغيرة كانت تحيط بي من حينٍ إلى آخر. لم تكن لدي أية أفكار أو مشاعر. لم يعد عقلي يتكلم. لقد تم تحريري من ارتباطي بمن كنت بالفعل، أو بمن كنت أشعر أني من المفترض أن أكونه. لا شيء كان يتمتع بأهمية في هذا الصمت. إن روابطنا بمن نعتقد أننا من المفترض أن نكون، هي كالسلاسل التي تلتف حول أعناقنا. فنحن تغلف هوياتنا بالأدوار والألقاب والإنجازات الخارجية التي نضفي عليها قيمة، خاصة عندما يتعلق الأمر بعملنا. إذ يقدر رجل الأعمال الثري مقدار ما يستحقه ماليًا. وتقدر عالمة الأبحاث العلاج الذي تعمل عليه. وتقدر الكاتبة الكتب التي تكتبها وتنشرها. وفي حالتي، أقدر مدى التغيير الاجتماعي الذي يمكن أن أحدثه من خلال دفاعي عن حقوق المرأة وعملي في المجال الإنساني.

في البداية، قد يبدو أن سعي المرء أو هويته أكثر قيمة من عمل الآخر. فمن المؤكد أن علاج المرض أكثر أهمية من عدد الكتب التي يبيعها المؤلف. ومن المؤكد أن إحداث تغيير اجتماعي يحسن حياة آلاف - إن لم نقل ملايين - الناس أهم من تكديس ثروة فرد واحد. لكن على المستوى الأساسي، وبغض النظر عن مهنتنا، فإن إنجازاتنا موجودة في المكان الذي نعر فيه على قيمنا الذاتية الجوهرية، هناك نشعر بالثبات. إن الروابط هي الروابط بغض النظر عن كون أو بما نحدد هويتنا به. فعندما نقدر أنفسنا بما ننجز ومقدار ما ننجز، فإن أرواحنا تظل رهينة لهذه الروابط إلى الأبد. بغض النظر عن مقدار ما نقوم به، وعدد الدولارات التي نجمعها، أو العلاج الذي نكتشفه، أو الكتب التي نبيعها، أو الأشخاص الذين نساعدهم، فإن ذلك لن يكون كافيًا لتحقيق ذواتنا بشكل دائم. قد يظن العالم أنني قد أحرزت النجاح، لكن إن لم يكن هناك نقطة نهاية لمقياس نجاحي، فإنني لن أتوصل أبدًا إلى قمة النجاح ذهنيًا. هذا يعني أنه وبغض النظر عن مقدار ما كنت أعمل، ومدى الجهد الذي كنت أعمل به، وعدد النساء التي كنت أساعد، ومقدار التمويل الذي أمتته، فإن ذلك لن يكون كافيًا أبدًا. لقد حدد عملي هويتي بالكامل، وكنت أعتقد ذهنيًا، أنه لن يكون بوسعي النجاح في ذلك. كانت تلك بمثابة سلسلة كبيرة جدًا تلتف حول روحي، وثقل كبير يُثقل كيانِي. والأمر الذي كان يجلب لي العار أن إدراك ذلك كان أشبه ما يكون بقطع الجبل السري.

وفي اليوم الرابع من الخلوة، رقصت روجي بحرية في فضاء لا حدود له. إذ شعرت بالفرح من دون سبب ولأني سبب. لم أكن أبالي بمن كنت وبما أنجزت وبما لم أنجز. ولم تعد المخاوف المتعلقة بعملتي تُثقل علي. كل ما كنت أشعر به هو شعورٌ لا حدود له في نفسي، كينونة نقية من دون أية توقعات. وفي هذه اللحظة بدأ كل شيء ممكناً. عدت إلى المدينة بعد خمسة أيام من التأمل، بعد عودتي بأيام قليلة انغمست مرة أخرى في ضغط القيادة المفروض أن أقوم به وأحققه وأنجح به وأنفس وأعمل بجد. لم تتمكن خلوة وحيدة قصيرة من تغيير نمط حياتي - أو ذهني - على الفور. لقد منحتني فقط طعمًا لما يمكن أن تكون عليه الحرية من الارتباطات. كان الأمر أشبه ما يكون بتذوق الشوكولا لأول مرة: إذ لا يمكننا وصف لذتها حتى نتذوقها بالفعل، ومن ثم لن يكون بمقدورنا نسيان هذا الطعم. الآن وقد تعرفت على مصدر ألمي والطريق إلى حرיתי، كان لدي طريق واضح لاتباعه.

تمثلت خطوتي الأولى بالحديث مع الأصدقاء عن مشاعر العار والفشل التي كانت تتابني. كنت أكتشف أنه إن كشفنا عن أسرارنا فإننا نحرق أنفسنا من ربقها. كانت تلك الأحداث تثير المزيد من الأسئلة: ما الذي يعنيه النجاح حقًا؟ ولماذا نتحدث كثيرًا عنه كهدف جدير بالاهتمام، ونتجنب الحديث عن الألم والتحديات التي نواجهها في الطريق لإنجازها؟ يحتفل العالم بالنجاح. كما أنه يميل إلى تمجيد وتبسيط الرحلة التي يجب على جميع رواد الأعمال والفنانين وأي شخص ناجح القيام بها للوصول إلى النجاح. إن الطريق إليه هو مثل ركوب لعبة الأفعوانية التي ترتفع وتنخفض على نحو مثير. فنحن نمضي الليالي يتتابنا القلق بشأن التدفق النقدي والفواتير، ثم نحتفل بفرح عارم عندما يحقق برنامج كبير النتائج المرجوة. وعندما يتم تجريد التحديات من التجربة، فإن ذلك يفسح المجال للقليل من المجال للقصة الحقيقية للأفراد الذين يحاولون جعل المستحيل ممكناً. وعندما يتم الاحتفال فقط بالنتيجة وتحدث قليلاً عن الرحلة، يمكن أن يبدو المسار موحشًا، وفي بعض الأحيان مخيفًا جدًا للناس الذين يقطعونه. قادتني هذه المحادثات مع الأصدقاء والزملاء إلى التساؤل عمًا إذا كنت قد خسرت أي شيء من نفسي أثناء تحقيق طموحي في عملي. ناقشت الأمر مع صديقي ليو وأنا في رحلة طويلة من نيويورك إلى دبي. كان يتم الاحتفاء بنا في قمة عالمية كبرى لنجاحاتنا كقادة عالميين شباب. دارت محادثتنا عن قصة البحث عن أنفسنا الحقيقية.

كان ليو ناجحًا جدًا في عالم الأعمال، لقد كان ذكيًا ولديه كاريزما وحسن المظهر. كان ذلك النوع من الأشخاص الذين يثق الناس بهم. كان مصرف سيتي بنك قد جندته في سن العشرين مع اثنين آخرين من مجموعة مؤلفة من ألف وخمسة مرشح. رأى المصرف أنه يمتلك المزيج الصحيح من الصفات ليرتقي قمة التمويل الدولي. لقد استثمروه، وقدموا له منحًا دراسية وتدريبًا مرموقًا وأتاحوا له الوصول إلى الاجتماعات الحصرية. كان ليو يسير في مسار نخبة القيادة من فترة ما قبل التخرج الجامعية.

عندما بدأ ليو وزميلاه الشابان وظائفهما في البنك، تم إعدادهم للعمل فيه، أراد مدير البنك مقابلتهم. في التحضير لتلك المقابلة كان ليو قد اشترى بدلة غالية الثمن بلونه المفضل - اللون البني -. كان زيه أنيقًا للغاية وغير تقليدي إلى حد ما، وصل ليو إلى الاجتماع واثقًا ومتحمسًا، خلال لحظات من دخوله المكتب، استدعاه المدير لحديث خاص.

قال وهو يمنح ليو بطاقة: «هذا هو اسم وعنوان خياطي. اذهب إليه ليخيط لك بدلة جديدة. في هذا العمل، تكون البدلات زرقاء دائمًا. وتكون سوداء للمناسبات المسائية. ويكون القميص دائمًا أبيض. ولا يكون ملونًا على الإطلاق. ويكون الحذاء دائمًا إما أزرق أو أسود أو بنيًا، ويمكن لربطة عنقك أن تكون بلون

ما، ولكن لا تتطرف. ودائمًا ما تكون الجوارب بيضاء أو زرقاء أو بنية أو سوداء. ليس ثمة ألوان غير تقليدية هناك. لا لا مزيد من هذا...» وأشار المدير التنفيذي إلى البدلة الأنيقة. «لا ترتدِ بدلة بنية مرة أخرى. فالبدلة البنية لا تلائم هذا المكان».

أخذ ليو البطاقة. وحرص على أن يخيظ لا بدلة واحدة فقط بل عدة بدلات زرقاء. وعلى مرّ السنين، أتى مسار القيادة أكله. إذ كان يكسب الكثير من المال ويرتقي مدارج عالم المصارف. كما قابل وتزوج امرأة جميلة ملتزمة بالعمل من أجل العدالة الاجتماعية. عندما سألته كيف كان يقيس النجاح، كان يعتقد أن مقياس النجاح هو المال. لكنه كان بالفعل يكسب الكثير من المال - لسيتي بنك وليمان براذرز وغيرهما من المصارف - ولم يتوقف العمل أبدًا. كان يكسب المزيد والمزيد، ويعيش حياة عظيمة، وكان يبرم الصفقات في جميع أنحاء العالم، من تشيلي إلى لندن إلى سويسرا إلى نيويورك. ولم يكن يفكر أبدًا ما هي عتبة نجاحه الخاصة. ما مقدار المال الذي كان بحاجة لامتلاكه كي يعتبر نفسه ناجحًا؟ ما مقدار المال الذي كان كافيًا؟

بعد عدة سنوات، وبعد سنواتٍ من العيش في رغد بلغه الضوء. كان أطفاله يلعبون في خزانة ملابسه الكبيرة في أحدث منزل من منازلهم.

سألته ابنته: «بابا، هل اللون الأزرق هو لونك المفضل؟».

أجابها قائلاً: «لا أدري، لا أعرف. لماذا يا عزيزي؟».

أجابت: «جميع بدلاتك زرقاء. وملابسك الأخرى زرقاء أيضًا. لذلك يبدو أنك تحب اللون الأزرق».

حتى ذلك الحين، لم يلاحظ أن جميع بدلاته كانت من نفس اللون. كما أنه لم يلاحظ أن جميع قمصانه كانت بيضاء، وأن كل أحذيته كانت بنية أو زرقاء أو سوداء، وكانت جميع ربطات عنقه محافظة باستثناء واحدة أو اثنتين كانت تحتوي على شريط أحمر أو درجة من اللون الوردي. كان يتبع في زيه صيغة النجاح، ولقد نجح بالفعل. ولكن لم يعد بإمكانه تذكر ما كانت أذواقه والأشياء المفضلة لديه.

قال لي: «هل ارتديتُ البدلات الزرقاء لأنني كنت أحب اللون الأزرق؟ أم لأن هذا ما أخبرني بفعله رئيسي في العمل؟ لم أستطع تذكر ذلك». أي جزء من الحياة كان يعيشه انطلاقًا من ذوقه أو رغبته الحقيقية؟ وما هو الجزء الذي كان يعيشه فقط انطلاقًا مما كان يتوجب عليه فعله؟

يشبه الكثير منّا ليو. إذ أننا نعرض مظهر أو سلوك النجاح. فنحن نصعد إلى القطار الذي حدده لنا أبائنا وعائلاتنا ومعلمونا ورؤساء أعمالنا وثقافتنا، ونواصل الانطلاق والانطلاق، ونكتسب الزخم، ونلوح للأشخاص الذين يعجبون بنا ويحسدوننا. ومع ذلك، نادرًا ما نتوقف لنسأل أنفسنا «من أنا في هذه الرحلة؟» أو، كما يسأل سكان أميركا الأصليين، متى كانت آخر مرة رقصت فيها رقصة حياتي؟ متى كانت آخر مرة غنيت فيها أغنية حياتي؟

يتطلب الأمر منّا شجاعة لطرح هذه الأسئلة. يتطلب الأمر منّا شجاعة سؤال ما إذا كان طريقنا الحالي، والذي كان مثمرًا وواعدًا ذات حين، يخطّ من قدرنا أيضًا. ما هو تعريفنا للنجاح، وهل نعيش وفقًا له؟ وإلى أي مدى تعلمنا قلوبنا ذلك التعريف؟ أين نقف الآن؟ هل فقدنا طريقنا كليًا؟ فكّر في المحامي الذي كان حلمه الوحيد أن يكون روائيًا متفرغًا أو المدير الذي يريد إطلاق شركة ناشئة. قد يتطلب الأمر تحديدًا

للإصغاء إلى ما تخبرنا به قلوبنا واستكشافه. إن التزام الطريق المعتاد يعني المشي على أرضية صلبة: ممارسة القانون أو أن تكون مديرًا يلبي توقعاتنا وتوقعات الآخرين. إن الاستجابة لنداء قلوبنا واستكشافها أشبه ما يكون بالقفز من الجرف إلى المجهول.

نخشى القفز من ذلك الجرف، كما أننا نخاف أيضًا من عدم القفز. إذ أن قلوبنا تريد الإصغاء للمجهول برغم أن المجهول مرعب. فإن نحن قفزنا، هل سنهبط بسلام؟ هل نمتلك الشجاعة الكافية لتحرير أنفسنا، بغض النظر عما سيأتي بعد ذلك؟ أم نبقى بدلاً من ذلك على حافة الهاوية المتقلقلة ونكبث النداء داخلنا.

بعد قرابة عقدين من تأسيس منظمة «نساء من أجل النساء الدولية» ورعايتها لتصبح واحدة من أكبر منظمات حقوق المرأة في أميركا، وقفت بنفسي على هذا الجرف. كنت في مكنتي في وقت متأخر من إحدى الليالي، أراجع جداول البيانات وأعين الأرقام التي كنا بحاجة إليها حتى نصل إلى الربع التالي من السنة. وبما أن المنظمة قد نمت كثيرًا وكانت تواصل النمو، فغالبًا ما كنت أجد نفسي في هذا الموقف - ليس في الميدان-، ليس في لقاء ومساعدة النساء الذين كنا نقوم بخدمتهن، ولكن في التحديق في الأرقام والذهاب إلى حفلات الاستقبال والاجتماع بالجهات المانحة. كنت بمثابة وجه المنظمة، وكنت بحاجة للوجود في كل مكان. ومع ذلك، لم يكن شغفي الحقيقي جمع الأموال. كان شغفي هو بالعمل المباشر مع النساء في بلدانهم، والاستماع إلى قصصهن والتعلم من حكمتهن أثناء إعادة بناء حياتهن.

غمرتني فجأة كل تلك المشاعر في ذلك المساء. شعرت أنني محاصرة في الزاوية. كنت منهكة، في غاية التعب. كنت قد منحت الجمعية كل ما أملك - شغفي ووقتي وخصوصيتي، وعصارة قلبي وروحي. ولسنوات وسنوات لم آخذ وقتًا للاستمتاع أو الاسترخاء. لقد عصرت كل قطرة من قطرات روحي في سبيل النساء اللواتي كنا نساعدهن وفي سبيل المنظمة. وكانت تفصلني مسافة زمنية بعيدة جدًا عن الأيام الأولى غير المرهقة عندما كنت أذهب أينما شئت، وأقدم المساعدة لمن يحتاج لها. أمسكت برأسي بين يدي وبدأت بالبكاء.

في تلك اللحظة، انفتح باب مكنتي، وهرعت زميلتي إيريكما والتي لم تكن قد قرعت الباب - لم تكن تعلم أنني ما زلت هناك-. أرادت فقط أن تضع وثيقة على مكنتي.

جمدت في مكانها بعد أن رأته وجهي مبللاً بالدمع، وقالت: «هل أنت على ما يرام؟» كانت إيريكما مسؤولة عن جمع التبرعات، لذلك كانت تعرف مدى الإجهاد الذي كنا نعاني منه.

بكيْتُ قائلة: «لقد صنعت وحشي من عملي». فنفس المجموعة التي أسستها انطلاقًا من الحب والشعور بالإلحاح أصبحت سجنني. كنت أشعر بأي شيء باستثناء أني حرة. نظرت إلي إيريكما نظرة تفهم، ثم أغلقت الباب لتمنحني الخصوصية.

إن ما بدأت كجهد شخصي صغير لمساعدة النساء في اليوسنة والهرسك قد أصبح مهمة كبيرة للغاية. كنت محاطة بالموظفين والمانحين والهيئات والذين كانوا يتطلّبون كل لحظة من لحظات حياتي. وبغض النظر عما كنت أمنحه من نفسي، كان ثمة المزيد والمزيد من العمل الذي كان يتعين علي القيام به والمزيد من الطلب لمقابلتي. كنت في غاية الإرهاق. لكنني لم أكن أعرف متى أو كيف أتوقف. فعندما كللني تاج النجاح، أطبقت القيود حول قدمي.

كان التزامي، وطموحي لمساعدة النساء قوياً لدرجة أنني لم أراجع خطوة إلى الوراء، وكنت أتساءل عن نوع النجاح الذي يرضيني. في اللحظة التي أدركت فيها أن الآخرين كانوا يعتقدون أنني كنت ناجحةً تمامًا، كنت، مثلي مثل ليو، قد نسيت نفسي. إذ أعمانى التركيز المستمر والملح على عملنا عن أسئلة من نوع «ما نوع الحياة التي كنت أعيشها خارج عملي وقضيتي؟» «من كنت خارج ارتباطي بمهنتي؟» ومن كنت داخل تلك المهنة؟ «كنت مضطلة بمهمة تغيير العالم. كل ما كان باستطاعتي رؤيته هو هذا الهدف. كان بمقدوري العمل من دون توقف لإمضاء بعض الوقت مع العائلة أو الأصدقاء. لم يكن يوجد شيء آخر أكثر أهمية - لا صحتي ولا رفاهتي. ولم يكن لدي حلم آخر.

كان يكمن خلف خوفي من القيادة هذه الشحنة التي تدفعني باتجاه الأمام. لقد رأيت قادة في العالم يتسببون في الانفصال بدلاً من التواصل، والانقسام بدلاً من الوحدة. وقاد الكثير منهم بأسلوب الغطرسة بدلاً من أسلوب التواضع والحب. وكان نشوئي بالقرب من صدام حسين يضفي لونا على علاقتي بالقيادة والسلطة. كانت تلك الصفات بالنسبة لي مرادفة للفساد وإساءة المعاملة. لذلك وبدلاً من تحديد نوع الصفات القيادية التي كانت تعجبني أو التي كنت أرغب في تنشئتها في دوري كمديرة تنفيذية، كنت أرى فقط ما لم أكن أريد أن أصبح عليه وكنت أرفض كل شيء.

كنت أعرف أمراً واحداً منذ البداية هو أنني لن أكون واحدةً من هؤلاء الأشخاص الذين يحتفظون بالسلطة مهما كان الأمر. لم يحدث هذا فقط للديكتاتوريين وحدث ذلك لأرباب الأعمال وأقطاب الإعلام ورجال الأعمال الاجتماعية والناشطين والنسويين والعاملين في المجال الإنساني. السلطة هي القوة، ويتعلق الناس بالسلطة. لقد قطعت عهداً على نفسي أنه في اللحظة التي تصبح فيها المنظمة في حالة جيدة، ربما بعد عشرين سنة من بدئها، سأتركها. وباستثناء تلك القيمة المؤكدة، لم أفكر أبداً بما كنت أقوم به كقائدة.

عندما نعمل انطلاقاً من الخوف والرفض، فإننا نقع في خطر السماح للآخرين بملء هذه القيم من أجلنا. ونتوقف عن حيازة عمليتنا أو تحديد اتجاهنا. ونتوقف عن التدقيق في قيمنا الخاصة. لم أكن أعلم أن قول «لا» فقط لما لم أكن أريده من دون استبداله بأي نوع من أنواع «نعم»، كان يجعلني عرضة لأفكار الآخرين حول ما يجب أن أفعله.

لم تواكب مهاراتي القيادية الطريقة التي نمت بها جمعية نساء من أجل النساء الدولية. ففي عامنا الأول ساعدنا ثلاثاً وثلاثين امرأة، ثم مئة، ثم ألف، ثم بضعة آلاف، وواصلت الأرقام نموها إلى مئات الآلاف. كنت متحمسة لأننا كنا نُحدث تأثيراً، حتى ولو كان ذلك يعني مجرد ابتسامة على وجه امرأة واحدة. لقد حملني ذلك على الإيمان بإمكانات التغيير وتحقيق الأحلام. فإذا كان بوسعي أنا، المهاجرة إلى الولايات المتحدة في أوائل العشرينات من عمرها من دون خبرة في العمل ومن دون مال، الوصول إلى الكثير من النساء وبناء جمعية من العدم، إذا بوسع أي كان فعل ذلك. كما أظهر لي أن المثابرة يمكن أن تجعل المستحيل ممكناً، حتى عندما يكون الصراع جزءاً من العملية.

لكن كان من الصعب مواجهة حقيقة أنني أصبحت قائدة. إذ أنني لم أكن أرغب بذلك، كل ما كنت أريده هو إنجاز المهمة فقط. في أحد الأيام زارت متبرعة من مؤسسة ما مكاتبنا. قمت بجمع الموظفين لمقابلتها، جلسنا جميعاً على طاولة بيضاوية الشكل. لم أهتم كثيراً بالمكان الذي اخترت الجلوس فيه. بعد

الاجتماع، أخذتني المانحة جانباً وقالت: «يجب أن تجلسي على رأس الطاولة». «هذه هي الطريقة التي تظهرين فيها قيادتك».

كنت قد سمعت الكثير عن حاجة المرأة للاحتفاظ بسلطاتها، وكيف كانت النساء يترددن في تويي زمام القيادة بينما يقفز نظراؤهن من الذكور لتسنم هذا الدور، فقلت: «حسناً»، سأفعل ذلك. تلك أصبحت عادتي. فعندما يقترح أحد الأصدقاء أو المانحين أو الاستشاريين أن أفعل شيئاً كهذا، كالجلوس على رأس الطاولة، أو ارتداء ملابس معينة للإشارة إلى وضعي، أو التأكد من تويي منصب الرئيس، كنت أعمل بالنصيحة من دون تفكير. إذ كان عليّ أن أرسخ صورة القائدة، عندئذ كنت أفترض أنني بحاجة إلى كل علامات القوة والنجاح هذه. كنت أعتقد أنني أقوم بهذا الدور، على الرغم من أن أياً من هذه الأشياء لم يكن يتمتع بأهمية بالنسبة لي.

كان الأمر أشبه ما يكون بارتداء الأقنعة، والتظاهر بشيء لم أكن أعرف عليه في قلبي. كنت مثل ليو وهو يشترى تلك البدلات الزرقاء. لقد دخلت في الدور المتصور مسبقاً للقيادة الواثقة، ليس لأن ذلك ما كنت أريده، بل لأنني اعتقدت أن هذا ما توقعه الجميع مني.

ومن دون شعور واضح بنفسي كرئيسة للجمعية، تملّكني شعورٌ بالارتباك. حاولت إظهار القيادة تجاه موظفيّ، لكن في الحقيقة بدأت أخشاهم. خشيت أن يحكموا عليّ إن لم أعمل بجهد أكبر مما كنت أطلب منهم العمل. لقد خشيت أن أغمرهم بعاطفتي أو نفاذ صبري عندما كانوا يعملون أقل مما كنت أريد. كنت أخشى أن أفرض ضغوطاً عاطفية لا لزوم لها من خلال الحديث عن الأحوال التي كنت أشهدها في الميدان، لذلك لم أتحدث سوى القصص الأقل قساوةً. كنت أقوم بتصفية نفسي وقمع مشاعري، ولكن إحباطي كان يتسرب فقط من الحواف، على أي حال كان الجميع يشعر بذلك. كان انعدام الأمن لدي يولد ضغطاً على الجميع من حولي عندما كانوا يحاولون التوافق والعمل بأخلاقيات العمل التي رسختها بثبات.

عندما نحيا حياتنا ونحن نخاف من الآخرين، فإننا نوقد شعلة خوفهم تجاهنا. إنها حلقة مفرغة تتوقف فقط عندما نخفض جدراننا ونظهر بدلاً من ذلك نقاط ضعفنا بصدق.

وبعد ما يقرب من عقدين، أصبحت أسافر أقل وأمضي المزيد من الوقت أمام الكمبيوتر لتحليل جداول بياناتي. كان يدبر وقتي فريق ينظر في كل دقيقة من برنامجي، فيحجزني في اجتماع تلو الآخر، وفي مناسبة اجتماعية تلو الأخرى، وكان كل ذلك بهدف جمع الأموال. كنت بعيدة عن أتباع تدفق عاطفتي في الميدان مع النساء اللواتي كنت أوجد لخدمتهن.

وفي عملي، كما هو الحال في المراحل المتأخرة من زواجي، أخذ قلبي بالصمت، كنت أتقيأ مذاق الحياة. كنت أتصرف كقائدة؛ أنا لم أقبل نفسي كقائدة. كنت أحظى بالنجاح من حيث المهنة والجوائز، لكنني لم أكن أشعر بالنجاح في الداخل. لم أسمح لنفسي بالتوقف أو التفكير أو النمو على الصعيد الشخصي. كان بقاء المنظمة ونموها يستهلكاني تماماً، وكنت أبرر التركيز على الأمرين لأن الحاجة إلى مساعدة المزيد والمزيد من النساء حول العالم كانت ملحّة، ولم تنتف تلك الحاجة أبداً.

كنت أكافح من أجل حرية المرأة، لكنني خسرت حريتي الخاصة. أردت أن تكون المرأة سعيدة، لكنني لم أعرف معنى السعادة في هذا الوقت. كنت أرغب في أن يحققن أنفسهن في حياتهن حتى يتمكن من مشاركة

مجتمعاتهن أفضل ما لديهن، ولكنني لم أحقق ذاتي. لقد ضحيت بنفسني باسم خدمة القضية، ولكن ربما لم تكن القضية تتطلب تضحيتي.

كنت أريد العودة إلى مصدر عاطفتي، لإمضاء بعض الوقت مع النساء اللواتي كنت أخدمهن. كان حبي لهنّ هو الذي دفعني إلى العمل بجد لفترة طويلة، وكان ذلك بعد كل اعتبار سر نجاحنا كمنظمة. اعتقدت أنه إذا كان بإمكانني إعادة الاتصال بهنّ فإنه يمكنني العثور على سعادتي مرة أخرى. فقررت القيام ببعض الرحلات إلى مكاتبنا في مناطق النزاع المختلفة، من أفغانستان إلى رواندا.

كانت تجربتي مع يعقوبة، وهي امرأة أفغانية، هي التي قادتني إلى الوعي المذهل إلى أنني بحاجة لتغيير حياتي. جلست أمامي في مكتب نساء من أجل النساء الدولية في كابول وهي تخبرني بقصتها. على الرغم من أنها كانت قصة مثيرة للعواطف، إلا أنني وجدت نفسي متعبة تمامًا وأجرجر نفسي كما لو أن ذلك كان كل ما يمكنني فعله للإصغاء. تحدّثت عن كيف ووجها أهلها في سن السادسة لتسوية الديون المالية، وكيف شعرت أن أسرتها قد خانتها، لكن الزواج انتهى بحب الصبي الذي تزوجت به. أكملت زواجها في سن الخامسة عشرة وولدت طفلها الأول في سن السادسة عشرة بفرح شديد. ثم تغير كل شيء. إذ قتلت عائلتها زوجها، ظلًا منها أنها تحررها من الزواج. كانت في غاية الغضب: بادئ الأمر تخلت عنها كطفلة، ومن ثم سلبتها حريتها كمرأة شابة. كان زوجها المعيل الرئيسي للعائلة.

ظلت يعقوبة تعيش مع أهل زوجها الفقراء. للبقاء على قيد الحياة وتربية ابنتها، تعلمت صنع القبعات وبيعها في شوارع كابول. وفي أحد الأيام، اتهمتها حركة طالبان بارتداء الصنادل المفتوحة، والتي كان ارتداؤها في العلن محظراً على النساء. فقامت بجلدها في الشارع كي تلقنها درسًا. أخبرتني أنها شعرت بالإهانة الشديدة عندما تعرضت للضرب علنًا للحد الذي أمسكت بذراع الرجل الذي كان يجلدها في محاولة منها لمنعه. فتفاجأ هو وأعضاء حركة طالبان الآخرون معه. إذ لم تتجرأ امرأة مسبقًا على فعل ذلك. بعد لحظات قليلة من الصمت، ضحك رفاقه عليه: «أوقفتك امرأة! إنك تستحق الأمر. الآن اتركها تذهب». إن شجاعة يعقوبة وقليلًا من الرحمة أنقذها.

أصغيت لآلاف النساء وهن يروين قصصهن عن البقاء والشجاعة والأمل. كنت أحمل كل واحدة منها في قلبي. لكن وجدت عقلي يهيم وأنا أصغني إلى يعقوبة. همس قلبي: لقد سمعت هذه القصة من قبل. لقد أصبحت قصة البؤس والمرونة والألم والقوة مألوفة للغاية. كنت فارغة ومستنفدة، وحتى أنني كنت أشعر بالملل.

كان الإمساك بنفسني وهي تشعر بالملل أمام النساء اللواتي كنت قد كرّست حياتي من أجلهن خيانة كبيرة - لهنّ ولنفسني -. في تلك اللحظة أدركت أنني أريد تغيير ما كنت أقوم به.

لم يكن من السهل الإفصاح أنني لم أعد سعيدة في وظيفتي، وأنني كنت مستاءة من القائدة التي أصبحتها، وأنني لم أعد أجسد رغباتي في عملي. كان الأمر محيرًا لأن كل جانب من جوانب حياتي كان يدور حتى ذلك الحين حول عملي. كان من الواضح أنني فقدت توازني بعد لقائي بيعقوبة. وفقدت صوتي وفرديتي وفرحي. لم أكن أعرف كيف أتوقف، أو بما أبدأ بدلاً من ذلك. كنت أعرف فقط أنني لا أستطيع التبشير بالقيم التي لم أستطع تجسيدها بنفسني. فإذا كنت أو من حقًا بحرية المرأة في تحقيق إمكاناتها الكاملة، فعندئذ لم يعد بإمكانني أن أدير ظهري لحالتي ببساطة عن طريق العمل بجد أكبر. كنت أريد معالجة ذلك.

أراد قلبي الصامت أن يتكلم مرة أخرى، وكنت أريد حريتي الخاصة، على الرغم من أن التخلي عن سلامة عملي وراحة نجاحي سيكون كالقفز من الجرف إلى المجهول.

أعلنت استقالتي من منصب الرئيسة التنفيذية لمنظمة نساء من أجل نساء الدولية بعد بضعة أشهر من رحلتي إلى كابول. وقفت على ذلك الجرف، ورغم أن القفزة بدت مرعبة، فإني قفزت. آن الأوان لمغادرة ما كنت قد بنيت به بالكثير من الحب والعاطفة.

كان فكّ ارتباطي بمنظمتنا أشبه ما يكون بالطلاق. لقد بدأت بذلك، ولكن تفاصيل كيف ومتى وماذا سأقول، ولمن سأقول ذلك كانت مؤلمة للغاية. لم يكن الوداع سهلاً لأيّ من الطرفين، ولقد أثار تنحّي من منصبي الكثير من المشاعر لدى الجميع. إذ شعر بعض الزملاء بأنه تمّ التخلي عنهم، وكان بعضهم الآخر يشعر بالارتباك، في حين كان آخرون يشعرون بالحزن. وشعر آخرون بالسعادة لرحيلي. كان الأمر أشبه بالأيام الخوالي عندما كانت تذهب العائلة بأكملها إلى المطار لتوديع أحد أحبائهم: فيمزح بعض الأقارب، ويكيي الآخرون. يكون البعض غاضبين وصامتين، في حين يتجنب الآخرون كل شيء. لقد خُبر فريقي كل هذه المشاعر. كانت مشاهدتهم أمرًا شاقًا، كالوقوف في مركز الإعصار. يسحبني يميناً ويساراً. أثناء ذلك، كان بمقدوري التمسك بأميرٍ واحدٍ فقط: كنت أريد الإصغاء لصوت قلبي مرة أخرى.

تدافع مشاعر الشك والارتباك والخوف والقلق تجاه ذلك الفراغ الكائن بين القفز والهبوط. فكل قفزة نابعة من الإيمان لها هذا الفراغ بين القفز والهبوط. أمضيت الأشهر التي تلت استقالتي على حدّ سواء في الاستراحة والشعور بالقلق حول المستقبل. كان الدفاع عن حقوق المرأة يمثل هدف حياتي، ولن أحيّد عن هذا أبدًا. لم أكن أقول وداعًا للقضية بل كنت أقول فقط «أراك لاحقًا». كنت أمل أنني بالقيام بهذه القفزة النابعة من الإيمان سأعرف في الوقت المناسب ما كان قلبي يدعوني إليه. لكن على المدى القصير، تخليت عن الحياة الثابتة والهوية التي كنت أعرفها: النجاح المهني والأمن المالي والمغامرات في جميع أنحاء العالم. من أنا الآن؟ في كل مرة كنت أسحب فيها نقودًا من حسابي، كان القلق يتتابني، فيما إذا كنت قد وفرت ما يكفي للعيش حتى أعثر على طريقي مرة أخرى. كانت الحياة مختلفة: هل يمكنني دفع فواتيري الآن؟ هل يمكنني الاعتناء بنفسني في وقتٍ لم أكن أتقاضى فيه راتبًا؟

وفي المناسبات الاجتماعية، كان من شأن أسئلة بسيطة مثل «ماذا تعملين؟» أن تحملني على الشعور بالتوتر وعدم الارتياح. كنت أقول في البداية ما كنت أقوله لمدة ثماني عشرة سنة: أعمل مع الناجيات من الحرب. وإن طرح الناس المزيد من الأسئلة كنت أعترف أنني لم أكن أعمل الآن.

وعندما كانت تتوفر عندي الشجاعة للقول بأني لم أكن أعمل الشيء الكثير هذه الأيام، كنت أشعر أنني لست على ما يرام. كانت نانسي، وهي صديقة قديمة، تقوم بزيارة ولاية كاليفورنيا ودعتني لتناول العشاء. عندما وصلنا إلى السؤال عمّا كنت أعمل، تجرأت على الإجابة بصدق. «لا شيء. لا أعمل شيئًا حقًا هذه الأيام».

ضحكت نانسي وسألت مرة أخرى: «لا، ما هي أحدث مشاريعك؟» كان الناس معتادين على سماع أيّ بلد أو مدينة كنت قد زرتها للتو، أو كانوا معتادين على سماع قصص البقاء على قيد الحياة التي كنت شاهدةً عليها، والمحادثات التي كنت أجريها. لم يكن أيّ منا يعرف ما يفعله عندما لم أعد أتحدث عن أحدث مغامراتي الغريبة.

قلت لها: «في الغالب، أقوم بالحياكة، والطهي، والبكاء، والنوم، وممارسة الرياضة، والتأمل». بلى، كنت أفكر في مشروع جديد، لكن لم يكن لدي شيء محددٌ بخصوصه حتى الآن. لم أكن متأكدةً أيّ منا كانت تشعر أكثر بعدم الارتياح: أنا، التي كنت أندفع إلى الأمام بقوةٍ على مدى سنواتٍ طوال، أم هي في عدم معرفتها ما تفعله حيال جوابي الحقيقي.

كانت محادثتنا تناضل في سبيل العثور على نقطة اتصالٍ أخرى. فتحدثنا عن أخبار الأصدقاء المشتركين، وأحدث الأفلام، والسياسة، لكننا لم نستقر أبدًا على ما هو مريح.

كنت أشعر بلا شك وكأن وحش الخوف يثم على كتفي ويهمس باستمرار في أذني بكلّ الأشياء التي يجب أن أخاف منها. هل سأقف على قدمي ثانية؟ هل كنت أريد العودة إلى ما أعرفه وما هو آمن، متجاهلة مرة أخرى الألم الذي كان يسكن قلبي؟ هل كان هذا الخطر يستحق ذلك العناء حقًا؟

كان الاختيار هو إمّا أن أصغي إلى وحش الخوف أو أن أطلب منه الصمت وأن أثق بذكاء قلبي بدلًا من ذلك. كانت الثقة بنفسني هي ما أحتاج فيها للشجاعة الحقيقية، كنت بحاجة للهدوء في هذا الفضاء الذي كان يتّصف بعدم المعرفة، حتى برغم أن الخوف كان يعتريني. لم أكن أعرف إن كنت سأبسط جناحي، أو إن كانت مخاوفي ستخونني، أم إذا كان شعوري بالهدف سيكبحني. كان الأمر يبعث على البهجة والرعب في آن معًا.

بدأت أسمع نبض قلبي وهو ينبض بصمت في الأشهر التي تلت استقالتي بطرقٍ لم أعهد لها مسبقًا. كان الألم يظهر عندما أكون في المنزل لوحدي. لم يكن الألم يتعلق فقط بالشعور بالوحدة والشك بالقيام بالقفزة، بل كان يتعلق بكل المشاعر التي كنت أكبتها بخصوص عمليات الاغتصاب والقتل، وجميع المشقات ومظاهر القسوة التي كنت شاهدة عليها في جميع أنحاء العالم وعلى مرّ السنين. كانت تتدفق من جسدي دفعة واحدة. كان الأمر مذهلاً.

غيّرت عملية إعادة تعريف نفسي بنفسني كل شيء. تعلمت أن أعيش مشاعري بدلًا من محاربتها. كنت أنظر إلى الحزن وأقول: «حسنًا، هذا ما يبدو الحزن عليه». أو «أوه، ثمة غضب. أعرف إنه نفاذ الصبر». وكلما أزلت شعورًا سلبياً أو ذاكرة صعبة أو قمت بمقاومتها، كلما أصبحت أكثر توفًا وأكثر إلحاحًا. كانت مقاومتي تُضخّم قوة المشاعر الكائنة في داخلي، في حين كان مجرد السماح لها يجعلها تمر على نحوٍ أسرع. لذلك بدأت بالسماح لها بالاستيلاء عليّ من دون أن يتولاني الذعر أو من دون التستر عليها. وكانت دائمًا تغادر في نهاية المطاف - سواء استغرق الأمر منها ساعة أو يومًا أو أسبوعًا. وحلما عرفت ذلك، أصبحت كلّ عاطفة كتابًا في مكتبة حياتي. وعندما كنت أدرسها وأستكشفها، كنت أفهمها - وأفهم نفسي - على نحوٍ أفضل.

كان الأمر مؤلمًا، ومع ذلك منحني اختبار هذه المشاعر الشديدة الفرصة لمعرفة ما كنت أشعر به بالفعل تجاه الكثير من الأشياء. أخذت أطرح أسئلة مثل: هل كان الموظفون هم الذين يفرطون في احتجاز كل وقتي، أم أنا التي كنت أفعل ذلك بقبول كل الدعوات؟ حتى تنحّيت، لم يكن لدي أدنى فكرة عن هذه الأشياء الأساسية. اكتشفت أنني كنت أعطي إجابات بنعم أكثر من الإجابات بلا عندما كان يتطلب الأمر مني القيام بالأشياء، وكنت أغيّر رأيي باستمرار حول مكان وزمان الاجتماع. لقد كنت أنا المسؤولة عن اكتظاظ برنامجي بالمواعيد طوال الوقت. ولم يكن بوسعي إلقاء اللوم على أيّ شخصٍ آخر.

لقد أتاح لي الاتصال بنفسي، أكثر من أي شيء آخر، مستوى اتصالٍ أعمق مع الناس من حولي. ففي اللحظة التي أتمكّن فيها من الظهور بصدقٍ مع نفسي، سأتمكن من الظهور بصدقٍ مع الآخرين. وعندما توقفت عن إطلاق حكم على كل السبل التي أخفقت بها أو فشلت، توقفت عن إطلاق حكم على إخفاقات الآخرين أيضًا. كان الأمر أشبه ما يكون بعالمٍ يجرب الدواء على نفسه قبل وصفه للغير. وعندما كنت أفهم كل شعورٍ تمامًا، كان يتولد لديّ الكثير من التعاطف مع الجميع. تعلمت الثقة بجسدي والإصغاء إلى حدسي الغريزي. وأحطت نفسي بأشخاص كنت أثق بمنظورهم كما أحطتها أيضًا: بالأقران والمرشدين والمعالجين. وبدأت اكتشاف الكيفية التي أردت العيش بها انطلاقًا من هذا المكان الجديد للوعي الذاتي وتجربة الدعم الجديدة هذه، ومن كنت أريد أن أكون، والماهية التي قد يبدو عليها إيقاع الحياة الجديد.

بدأت بتبني وتطبيق نفس المفاهيم التي كنت أشجع العالم على تبنيها وتطبيقها على نفسي. فإذا كنت أريد من المرأة أن تكون سعيدة وحرّة في التعبير عن نفسها بشكل كامل، فالأولى بي أن أكون سعيدة وحرّة في التعبير عن رغبات قلبي. وإذا كنت أشجع الناس على إبداء اللطف تجاه الآخرين، كنت بحاجة إلى إدراك معنى اللطف تجاه نفسي. وإذا أردت أن يكون الناس شجعانًا وأن يقفوا ضد الظلم، فقد كنت بحاجة لامتلاك الشجاعة للتعبير عن حقيقتي في أسط السياقات، سواء أكان ذلك في اجتماع عمل أو في تجمع عائلي أو مع موظفين، في دائرة أصدقائي، أو في نفسي. لقد كان الأمر يتطلب الشجاعة للتغلب على الخوف والغور في أعماق نفسي والتكلم بصوت عالٍ. لكنني لم أعد أرغب في مداراة أي شخص. ولم أعد أرغب أبدًا بإخفاء حقيقتي أو بناء جدار خوفٍ مرةً أخرى عندما كنت أخشى الآخرين.

كل ما كان باستطاعتي فعله هو أن أكون صادقةً في تطلعاتي واحتياجاتي وأمالي ومخاوفي ومواطن ضعفي. كنت بحاجة إلى أن أكون نفسي في العلن، وأنا أعلم تمام العلم أنه سيكون ثمة أوقات أغمر فيها الناس بمشاعري أو أكون صريحةً أو نافذة الصبر. الآن، بوسعي أيضًا أن أكون على درايةٍ بسلوكي وأثره، وأن أبقى منفتحةً على ردود فعل الآخرين تجاهه. وبدلاً من الاختباء، أو الخوف، أو الاستياء من الانتقاد، صار بوسعي سماع الانتقاد والاعتراف به، إذا كان صحيحًا، دون شعورٍ بالهلع. إذ كان من الممكن أن أقول: «أوه، نعم، أعرف أنني أتصف بنفاد الصبر. شكرًا للتذكيري بذلك».

ترك ليو، صديقي المصرفي، وظيفته في عالم المال لإدارة أعمالٍ أخرى في نهاية المطاف. لقد اكتشف أن لونه المفضل حقًا هو الأزرق، ليس لأنه لون النجاح المالي، ولكن لأنه يجب ذلك بالفعل. وتغيّر تعريفه لمفهوم النجاح بفضل مراقبة أطفاله ودعم زوجته. الآن، لم يعد كسب المال يكفيه. ويتأكد من أن أيّ مشروع جديد كان يقوم به يعود بالربح على العالم بيئيًا واجتماعيًا، وأنه يدمج بين الفوائد الاجتماعية والفوائد المالية.

فبدأ مشروعًا لإعادة التشجير وأسّس شركة كانت تساعد أربابها جزئيًا الشباب المهمشين في تعليمهم ومهنتهم. وكان يطلب على الدوام من فريقه والأشخاص الذين يخدمهم كي يتأكدوا من تحديد مفهومهم للنجاح. ويسألهم كيف سيعرفون، لوحدهم، عندما «يحققون النجاح». إنه يكسب الكثير من المال الآن، لكن حياته وعمله أكثر غنىً بطرقٍ أخرى. لقد تغيّر هدفه من إحراز النجاح المالي فقط إلى الحياة حياةً كاملة.

بقيت في مجلس إدارة «نساء من أجل النساء الدولية» لسنتين أخريين بعد تنحبي لدعم الانتقال إلى قيادة جديدة. غادرتها في الذكرى العشرين بالضبط لتأسيس المنظمة، مثلما كنت قد وعدت بنفسي عندما كنت في الثالثة والعشرين من عمري. أثناء هذين العامين، تبيّنت هدفي التالي. كنت أريد اكتشاف «الصلصة السرية»

التي من شأنها أن تؤدّي إلى تغيير دائم في حياة النساء. كان سؤالاً نحاول دائماً الإجابة عنه في منظمة نساء من أجل النساء الدولية. كان لدي ثقة تامة بأننا قمنا بالكثير من عمل الخير في العالم، ولكن يمكن أن يبدو أن المسائل المطروحة لا يمكن التغلب عليها. وفي إحدى رحلاتي الميدانية الأخيرة، سألت سيديا، وهي زميلة بوسنية، هذا السؤال.

قالت وهي تمسك بيدي: «زينب، الجواب بسيط. إن الصلصة السرية لمساعدة النساء هي الإلهام. فكل ما نحتاج له هو أن نظهر للمرأة أن هناك أملاً وسيلاً للخروج من اضطهادها وحزنها. وكل شيء آخر، كل برنامج وكل عمل هو مجرد أداة لمساعدتها في العثور على الشجاعة لتغيير حياتها».

سيكون هدفي التالي هو إلهام النساء من خلال عرض قصصهن من خلال مشاريع إعلامية في الشرق الأوسط وفي الولايات المتحدة. سأبدأ ببرنامج تلفزيوني ومنصة إلكترونية مخصص للنساء العربيات والمسلمات للإعراب عن أصواتهن وإظهار إمكانيات التغيير من داخل ثقافتهن ودياناتهن. كان ذلك البرنامج بمثابة وسيلة لبناء جسور صغيرة بين النساء في نفس المناطق بدلاً من بناء جسور كبيرة بين النساء من ثقافات وقارات مختلفة.

كنت في غاية الحماسة لمبادرتي الجديدة، لكن في فترة التحضير لإطلاقها، اعتراني بعض الخوف من القيادة. كنت أعرف أنني بحاجة لمعالجة ذلك الخوف، لكنني لم أفهم تمامًا ما الذي كنت أقاومه.

وأرشدتني محادثة مع صديقة ومرشدة إلى الطريق الجديدة. ذهبت إليها للإرشاد في برنامجي، والذي كان مستوحى جزئياً من برنامجها في أميركا. في خضم حديثنا بدأت بالبكاء من القلق والخوف من هذه الرحلة الجديدة التي شرعت فيها. سألت عما كنت أخشى منه.

أجبت: «أخشى من القيادة». وشرحت تجاربي السابقة، وكيف كنت أقاوم الدور، وكنت أتركه غير محدد، وكيف أن ذلك لم يفلح.

لقد غادرت اجتماعنا بعد ظهر ذلك اليوم بإدراك جديد مستوحى من حكمتها: كنت بحاجة إلى امتلاك زمام المبادرة، ولتجسيد قيمي الخاصة في كل خطوة، وفي كل عمل، وفي كل قرار كنت أتخذه كقائدة. فإن أنا سمحت للآخرين بتحديد مفهوم القيادة بالنسبة لي، فسأواصل الاستياء والخوف منها. عندما نقود انطلاقاً من الرغبة في إرضاء الآخرين، فمهما حاولنا فلن تكون القيادة جيدة بما فيه الكفاية. إذ أنه لا يمكننا أبداً تحقيق توقعات أو أحلام الناس الآخرين بخصوص من ينبغي أن نكون. يمكننا أن نكون صادقين مع صوتنا الحقيقي فقط، وحتى لو اختلف ذلك الصوت عما يجربك به العالم أنه ينبغي أن تكون.

أدركت فجأة أنه هنا كان ينبغي بي أن أكون صادقةً في تطبيق ما يشعره قلبي. وعندما يتعلق الأمر بالقلب، وليس بالقناع الذي كنت أشعر أنه يتوجب عليّ ارتداؤه، فإنه لن يكون عبئاً على الإطلاق.

كان بوسعي تقدير قيادتي لأول مرة بعد تلك المحادثة. كنت دائماً أتبع إحساسي الغريزي. كان بإمكانني تحمل المخاطر والبقاء في حالة من عدم اليقين حتى تنجلي الأمور ومعرفه ما العمل. كانت هذه نقاط قوة كبيرة أتاحت لي اجتياز لحظات الشك في حياتي. جلب لي إدراك ذلك الراحة. يمكنني الرجوع إلى الوراء، والنظر إلى الداخل، والاعتراف بأنني كنت قائدة، بأسلوبي الخاص وقيمي الخاصة.

ثم أصبحت مفاهيم القيادة والنجاح أكثر هدوءًا وتواضعًا. لقد فقدت معنى الفخامة وحتى معنى الخوف التي كانت تحملها في حياتي ذات مرة. فعندما نتحلى بالشفافية تجاه أنفسنا وقيمنا، تصبح القيادة مسيرة وضوح وتواضع ووعي ذاتي. ولن يعود العطاء والأخذ مقلقًا أو مرهقًا. لسنا مضطرين لغلق قلوبنا حتى نتمكن من التركيز على مهمتنا أو طموحاتنا، ولسنا مضطرين للتضحية بصحتنا ورفاهنا لفعل الخير في العالم. يصبح كل شيء تعبيرًا عن أنفسنا الأصيلة.

يغمرنى اليوم الفخر لتركي منظمة نساء من أجل النساء الدولية كما يغمرنى لقيامى بتأسيسها. فتأسيس منظمة شيء، والاستغناء عن السلطة طوعًا هو شيء آخر تمامًا. في الاستغناء عن السلطة، كنت أكتشف حقيقتي وأختبر كيف سيكون عليه الأمر إن أنا أصغيت لنداء قلبي وأفسحت المجال أمام التغيير وفهمت كل ما كان يعنيه. عرفت عن قرب كيف كان القفز من تلك الهاوية من دون أن أعرف كيف ومتى سأحط على الأرض، كنت أثق فقط بأنني سوف أحط على الأرض.

أن نكون قادة ونعترف بأننا قد نجحنا حقًا هو نفس أن نكون أناسًا كاملين: فنحن بحاجة لأن نكون أنفسنا بالضبط، في حقيقتنا. إنه الوقت الذي يمكننا فيه تقديم أفضل ما لدينا. فانطلاقًا من أصلتنا، يمكن أن نجرؤ على كسر القواعد المقبولة عمومًا وإنشاء قواعد جديدة تناسب مع من نحن. والذين يقاومون هذه المشاركة الإبداعية هم ببساطة أناس يعترهم الخوف. يتمثل عملنا بعدم جعل مخاوفهم مخاوفنا، بدلاً من ذلك نحن بحاجة إلى جعل حريتنا حريتهم. وهذا هو الوقت الذي بمقدورنا فيه القفز بثقة تامة وبأن أجنحتنا ستنفرد وسوف نهبط بأمان، حيثما وكيفما هبطنا.

الفصل الرابع

القيام بالتعويض

«لا يمكننا رؤية ذاتنا الكاملة
إلا عندما ننق بكل من الضوء والظل الكامنين
داخلنا»

جميعنا قمنا بشيء في حياتنا نشعر بالخرق من الاعتراف به. إذ نخشى أننا لن نكون محبوبين أو مقبولين إن نحن أمطنا اللثام عن الأشياء التي لا تشكل مصدر فخر لنا في أعماق قلوبنا، كالأوقات التي أضفينا فيها صورة نمطية أو حططنا من قدر شخص آخر، خدعناه أو سخرنا منه. من الصعب القيام بالتعويض في الأوقات التي كنا نسخر فيها شخصاً آخر أو نشاهد ظمناً، ولم نقم بشيء إزاءه. إنه من الأسهل توجيه أصابع الاتهام إلى جميع الأخطاء الكبيرة التي تحدث في العالم والقول: «المشكلة الحقيقية موجودة هناك، هؤلاء الأشخاص يقومون بأشياء سيئة للغاية؛ هؤلاء الناس هم الوحوش».

بوسعنا نكران أخطائنا الشخصية الصغيرة طالما أردنا ذلك. فمن السهل نكرانها. الأصعب من ذلك هو اعترافنا أمام أنفسنا أننا في حالة نكران. ومع ذلك، فإن نحن أصغينا، فإن همسات أسرارنا لن تختفي.

وهي أشبه ما تكون بالبعوض المزعج في ليلة صيفية قائظة: فبغض النظر عن مقدار ما نستخدمه من طارد للحشرات، فإنها تعثر على بعض بقع الجلد المكشوفة. ونكران أننا آثمون يُذهب بمصداقيتنا أيضًا. وبادعائنا أننا نعيش حياة مستقيمة خالية من الخطايا في حين نخفي خطايانا فقط فإننا نقوض نزاهتنا في الحقيقة. ونعتقد أنه إن نحن وقفنا في عين الشمس، فلن يرى أحد ظلنا. ولسوء الحظ، فدائمًا ما تتم رؤية ظلنا. كان صاحب بيت دعارة في دلهي في الهند هو الذي علمني هذا.

عندما طلبت مني محطة «سي إن إن» (CNN) أن أقوم بإعداد حلقة لبرنامج مشروع الحرية كجزء من مسلسل كانوا يخرجونه عن الإتجار بالنساء والأطفال، شعرت بالحماسة للفرصة بأن أسلط الضوء على موضوع مهم لي كناشطة بحقوق النساء.. اتصلت بصديقتي روشيرا غوبتا، مؤسّسة منظمة «آبني آب وومن وورلد وايد» (Apne Aap Women Worldwide)، وهي منظمة تُساعد النساء التي تتم المتاجرة بهن لممارسة البغاء معهن في الهند، لمساعدتي في تسهيل الاتصال بك بيت دعارة يكون مستعدًا للتحدث معي حول كيفية الإتجار. غالبًا ما كانت روشيرا تتواجد في منطقة الضوء الأحمر في نيودلهي، حيث كانت تساعد النساء في الحصول على المهارات والتعليم حتى يتمكنّ من التخلي عن العمل الجنسي مع كل الإساءات التي كانت ترافقه. فحتى لو هربن من منطقة الضوء الأحمر، كان من الصعب أن يعملن بأي مكان بسبب حكم المجتمع على ما قد واجهوه في الحياة، حتى ولو كانوا ضحايا المتاجرة الجنسية.

تمكنت روشيرا من ترتيب لقاء نادر بالنسبة لي مع حسن، وهو صاحب بيت للدعارة. وافق على التحدث معي بشرط أن أصوره في استوديو خياطة بيت الدعارة في الخلفية. افتخر حسن بكونه مختلفًا عن أصحاب بيوت الدعارة الآخرين. فهو لا يتخلى عن النساء المسنّات عندما يصبحن أقل جاذبية لعملائه. إذ كان يقدم لهنّ ولأطفالهن مأوى ويعلمهنّ مهارات جديدة حتى يتمكنّ من كسب المال في الوقت الذي لا يزلن يعشن تحت سقفه.

ذهبتُ لمقابلته في فترة بعد الظهر، وهو وقت يمضي بطيئًا في منطقة الضوء الأحمر. كانت النساء والفتيات يغسلن ملابسهن أو يزينّ أنفسهنّ بمستحضرات التزيين البراقة استعدادًا لعملاء المساء. كنّ جميعًا ينظرن إليّ وإلى طاقمي من المصورين ومعدّي الصوت من الشرفات أو من خلف النوافذ والأبواب. كانت كل الأعين تتركّز علينا ونحن نسير عبر الشوارع الملونة بالرسوم الجدارية وملصقات الممثلات المغطاة بمشابك الأسلاك الكهربائية. كان من الواضح أنني كنت أجنبية ولست من الهند.

عندما لا تعرف القوانين فإن منطقة الضوء الأحمر ليست مكانًا سهلاً. إنه عالمٌ سفليٌ له عالمه الخاص، وله قوانين لم تتمكّن من التعرف عليها كما لم نتعرف على سبل الأمان إن نحن قمنا بخرق تلك القوانين.

عندما وصلنا إلى بيت الدعارة، فتحت امرأة مسنّة الباب، وقادتنا إلى مكتب حسن، وقدمت لنا الشاي. كانت واحدة من النساء «المتقاعدات». وصل حسن بعد نصف ساعة، وكان من الواضح فورًا أنه كان ملكٌ عمله. كان رجلاً صغير الحجم، هزياً تقريباً، يتمتع بصوتٍ جهوري، وبمصافحة قوية، وسيرة قوية. كانت الخواتم الذهبية تغطي يديه في محاولة منه لإظهار ثروته وقوته. لم يتوقف هاتفه الخلوي عن الرنين. جلسنا في مواجهة بعضنا البعض للمقابلة، ولكن على مسافة بعيدة على نحو غير عادي بحيث تستطيع الكاميرا أخذ لقطات من عدة زوايا. وفي هذه المسافة معنيّ رمزياً أيضًا: كُنّا نتحدّر من عالين متناقضين تمامًا. إذ أنه كان يستغل النساء ويقمعهن، وأنا من تناضل من أجل حقوقهنّ وحرّيتهنّ.

فرح حسن عندما علم أنني مسلمة وسهّل الأمر بشرحه عن عمله بصراحة، وصف كيف كان يشتري النساء والفتيات، من الحادية عشر من العمر حتى العشرينات منه. كانت معظم الفتيات والنساء يأتين بسبب العنف أو الإساءة أو الفقر. وبسبب توفر القليل من الخيارات لدعمهن أو حماية أنفسهن، فلقد وقعن في أيدي المتاجرين. كان حسن يقوم كلاً منهن ليقدر فيما إذا كان يريد أم لا. وإن هو وافق، فإنه كان يقوم بإجراء الاتفاق على سفرهن أمامهم، حتى لو أنها لم تكن تتمتع بخيار في هذه المسألة.

أقول لها: «أشترتك مقابل هذا المبلغ. ينبغي عليك إعادة المبلغ لي من خلال العمل مجاناً لمدة خمس سنوات. ثم يمكنك المغادرة». وخلال الخمس سنوات تلك، كان يتوجب على الفتاة أو المرأة النوم مع ما بين خمسة إلى خمسة عشر رجلاً في اليوم. كان حسن يدفع لقاء طعامها ومأواها، لكنه كان يحسم هذه التكاليف من أرباحها، ويطيّل أمد دينها له. وإذا كان لديها طفل، فإنه يرسل الطفل إلى المدرسة، لكنه كان يضيف تلك التكاليف إلى ديون الأم. كان يصوّر نظامه على أنه يعتني بالنساء وأطفالهن، لكنه في واقع الأمر كان يجعل من الصعب عليهن الخروج من ديونهن والحصول على حريتهن بالفعل.

كان حسن واضحاً في عمله. يعرف كم كانت الفتيات والنساء مهيضات الجناح، ويعرف كيف يجني المال من ضعفهن. لم يكن يعاني من الازدواجية أو الندم على الإطلاق؛ كان رجل أعمال. وفي الواقع، كان ينظر إلى نفسه على أنه يوفر السلامة وفرص العمل للنساء اللواتي يعشن في الشوارع. لقد أصغيت إليه بفضول. أردت حقاً معرفة الكيفية التي كانت تدير الأمور عليها، حتى لو أنني أنظر إلى عمله كشكلٍ من أشكال الاستعباد.

ومع استمرار حديثنا، لم يكن حسن راضياً بأن يكون موضوع المقابلة. أراد أيضاً ان يقول لي شيئاً. أراد أن يتحدث عنّا جميعاً من الرجال والنساء الذين يعيشون خارج المنطقة الحمراء، وعن كيف أن تصرفاتنا ومواقفنا الجماعية تجاه هؤلاء النساء تقرّر مصيرهن.

وقال: «تضحكون للنكات التي تدور حول البغايا». كانت نظرتة ثابتة. «إنكم تحكمون على أولئك النسوة على أنهن لا أخلاقيات، لكنكم لا ترون كيف أنهن جزءٌ من النظام الذي أسسته، وأنتم تؤلفون نكاتها عنهن وتضحكون عليها. وتسجنونهن لكونهن عاهرات. ولكنكم لا ترون أن أبناءكم، وإخوتكم، وآباءكم، وأزواجكم هم الذين يخلقون السوق لشخص مثلي كي يستفيد منه. وبصفتكن نساء، فإنكن تُسنن معاملة خادماكن، وتدفعن لهن القليل من المال، وتطردنهن عندما لا تحبين عملهن. ما الذي تعتقدن أنه يحدث لتلك النسوة؟ من تعتقدن أنه يهبّ لإنقاذهن عندما تجربنهن على الخروج؟ أنا أقوم بإنقاذهن. أحملهن على العمل من أجلي، لكنني أيضاً أوفر لهن المأوى. تعتقدون أنكم تفنون على أراضية أخلاقية أكثر سموًا. لكنكم جزءٌ من الأمر الذي يجعل منطقة الضوء الأحمر ممكنة الوجود».

قلب الطاولة علي. حتى ولو أنني ناشطة في مجال حقوق المرأة، فلم أفكر في ذلك أبداً. كان على حق. كنت أنظر إليهن على أنهن نساء لا أخلاقيات. كنت أذهب إلى حفلات الغداء التي كان فيها الناس يحكون النكات التي تنطوي على المومسات. وكنت أشارك في الضحك من دون عناء التفكير في واقع حياة أولئك النساء، والظروف التي دفعت بهن إلى هاوية الدعارة. حتى ذلك الوقت، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما كان الرجال الذين كنت أجالسهم - الأصدقاء والزملاء والأسر والمعارف - قد شاركوا كزبائن في دعارة النساء، حتى في الوقت الذين كانوا يؤلفون النكات عنهن.

كان حسن على علم بهذه التناقضات. كانت لديه معرفة برجالٍ يدعون الشرف ولكنهم كانوا يشتركون الجنس سرًا من النساء في نظام كان يسيء إليهن ويحتقرهن. وكان عرف نساءً كنَّ يدعين أنهن متعلمات وواعيات، ومع ذلك كنَّ يعاملن خادماتهن وخدمتهن على نحو سيء. كان يعرف كيف كان الجميع يسخر من البغايا لكنهم كانوا يقومون باستغلالهن أيضًا. كان الناس الموجودون في منطقة الضوء الأحمر على دراية بمن كانوا. وكانت تلك المنطقة بقعة داكنة بالنسبة لي وبالنسبة للأشخاص الذين على شاكلتي ممن كانوا يعيشون خارج منطقة الضوء الأحمر. وحتى لو كنا نرفض رؤية الدور الذي نلعبه فيها، فإننا مشمولون.

كنا جميعًا جزءًا من المشكلة، فبغض النظر عن وضعنا الاجتماعي أو مستوى تعليمنا أو ثروتنا أو جنسيتنا فلطالما أنكرنا ذلك، متظاهرين بأنه ليس لدينا أي علاقة بحي الضوء الأحمر، كان حسن يشعر أن لديه ما يبرر عمله. غادرت مقابلتنا في ذلك اليوم وأنا على فهم بهذا. فعلى الرغم من أنني لم أوافق على أن نشاطه كان خيرًا - كما كان يحاول تصويره-، إلا أنه كانت لديه وجهة نظر: لقد آن الأوان بالنسبة لي أن أعترف بجزءٍ من القصة لا أن أشير إليه وحده فقط بإصبعي كرجل فظيع يستعبد كل هؤلاء النساء. كما أن الأوان لإجراء محادثات غير مريحة مع الرجال الموجودين في حياتي. لقد آن الأوان كي أسألهم ما لم يخطر ببالي أن أسألهم عنه من قبل: هل سبق لهم أن دفعوا مالا مقابل الجنس؟

كنت أعتقد أن الرجال الذين يستخدمون البغايا هم «الرجال الآخرون»، وليس الرجال في عائلتي أو دائرة أصدقائي ومعارفي وزملائي - الذين كنت أعتبرهم جميعًا متعلمين ومستنيرين ومهذبين. الآن، كنت بحاجة لمعرفة الحقيقة. علمتني تجربتي، أنه للحصول على إجابات صادقة يجب أن أطرح السؤال بفضول حقيقي، وبدون أفكار أو أحكام مسبقة. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تجري بها المحادثات الصادقة. في الواقع، كانت تلك هي الطريقة التي فتحت أسرار صاحب بيت الدعارة.

انطلاقًا من هذا الموقف كنت أسأل مختلف الرجال الذين أعرفهم في حياتي: «هل سبق لك أن دفعت مالا مقابل الجنس؟» بعض الرجال أجابوا أنهم لم يدفعوا مقابل ذلك أبدًا. ولكن أجاب الكثير من الرجال بنعم، الأمر الذي أثار دهشتي. وأخبرني الكثيرون منهم أن تجربتهم الجنسية الأولى كانت مع عاهرة. وأخبرني آخرون كيف أنهم كانوا يأخذون أبناءهم المراهقين إلى البغايا لتعريفهم بالجنس، أو كيف كانوا يستأجرون النساء أثناء سفرهم، وما إلى ذلك. وحتى أن بعضهم كان يجلب البغايا إلى منازلهم أثناء سفر زوجاتهم خارج المدينة. لم يشعر البعض براحة من التجربة ولم يقم بذلك مرة أخرى. في حين لم يشعر البعض بأي ندم وواصلوا فعل ذلك. كثير من المحيطين بي كانوا من الرجال الذين يدفعون المال مقابل الجنس، ولم يتوقف أي منهم ليفكروا في كيفية ارتباط أفعالهم بالإتجار بالبشر أو ليفكر في كيفية المساهمة في الإساءة لهؤلاء النساء اللواتي كانوا يواجهونهن.

يتمتع بعضنا برفاهية التستر خلف الملابس الجميلة والتعليم الجيد والحديث الأنيق. فالامتياز يحمي الامتياز (وبالعكس، يؤدي الفقر إلى المزيد من الضعف). فلم الحديث عن كيفية استخدامنا للبشر الآخرين عندما نحاول المضي قدمًا في عالم صعب؟ ولم الاعتراف برذيلة صغيرة أو استغلال ثانوي يبدو أنه لا يحظى باهتمام أحد ولا أحد يريد التخلي عنه؟

كلما عظمت مكائنتنا، كلما قلقتنا من فقدان هذه المكانة. إذا اضطلعنا بمسؤولية أفعالنا وتكاسلنا في الماضي، فإننا نخشى خسارة كل ما عملنا من أجله أو اعتدنا الاستمتاع به. كم عدد النساء اللواتي يتتابهن

الشك في أن الرجال المقربين منهم يذهبون إلى المومسات لكنهن ينظرن بطريقة أخرى بدلاً من المخاطرة ببدء شجار أو المخاطرة باستقرار العائلة؟ ما مدى استحقاقنا للعقاب بخصوص النساء في مناطق الضوء الأحمر الخاصة بنا، سواء أكان ذلك حرفياً أو مجازياً؟ وهل نزيد من ضعف الآخرين بدون أن نفكر حتى في ذلك - بدون الرغبة في التفكير في ذلك؟

غالباً ما تفاديت الإشارة إلى حقائق مزعجة كي لا أكون الشخص الممل أو المزعج في حفلة أو في بيئة اجتماعية. ولكن جاء دوري الآن للنظر في حقائق المزعجة. لم يعد بوسعي الإشاحة ببصري. وفي حين أنني لم أَدفع مالاً مقابل الجنس أبداً، كان عليّ أن أسأل نفسي ما الذي قمت به في حياتي والذي ربما سبب الضرر لشخص آخر أو تسبب في الظلم، سواء على نحوٍ جسيم أو طفيف، من دون أن أدرك ذلك. وكائنًا ما كان، كنت أريد التعامل معه وتحفيفه.

سألتني صديقتي بني عندما شاركتها بنظريتي: «لماذا تزعجين نفسك باستكشاف أخطائك الصغيرة عندما يكون هناك الكثير من الأخطاء الكبيرة في العالم التي نحتاج إلى مكافحتها؟»، «تكافحين من أجل حقوق المرأة في جميع أنحاء العالم - وهذا بالفعل أكثر بكثير مما يقوم به الكثير من الناس. لماذا تنقبن عن الأعمال غير العظيمة في ماضيك؟ ومهما كانت تلك الأعمال، فلا يمكن أن تكون بسوء الأضرار التي يسببها العنصريون، ومستعبدى النساء».

كانت محقة. فقضايا حقوق الإنسان كبيرة وملحة. ومع ذلك، كانت تركز حجتها على المدى القصير فقط. فإن نحن أردنا إحداث المزيد من التغييرات الدائمة في هذه القضايا الكبيرة، يجب أن تنبع أعمالنا من جوهر نزاهتنا، وليس من برّنا. فلكي نعيش في استقامة، نحتاج إلى إلقاء نظرة على الداخل والتعامل مع الأشياء في داخلنا والتي لم تُرد مواجعتها. لدينا جميعاً ما يُثقل كاهلنا سواء أكان ذلك الشيء كبيراً أم صغيراً. والاعتراف بأخطائنا هو السبيل الوحيد الذي نستطيع بفضل التخلّص من العار الذي يسكن قلوبنا - العار الذي نشعر به حتى في الوقت الذي لا يستطيع أحد رؤيته-. عندما نناضل من أجل القضايا الأعظم في العالم انطلاقاً من وعي كامل بأنفسنا في كل من نورنا وظلنا، فإن نداءنا للعمل تتمتع بالنزاهة الكاملة.

من السهل القلق بأن الصدق سيؤدي إلى تدمير كل ما بنيناه أو إيذاء كل من نحب، لكن الصدق لا يؤدي دائماً إلى الأذى. فإذا كان النهج مخلصاً، فإن تقديم الترضيات يحمل في ثناياه فرصة فعل الخير أكثر من الأذى. ثمّة حاجة إلى الإقرار بأعمالنا وعثراتنا على أقل تقدير في خصوصية حياتنا، وفي قلوبنا، أو مع الذين نثق بهم. يمكن أن تتمتع بنقاط الضعف، ومع ذلك نظل لطفاء مع أنفسنا. فإن نحن نظرنا مباشرة إلى المكان الذي جافينا فيه النزاهة، وتحدثنا إليه وخاطبناه وعالجناه، فإننا نخرج من ناحية أخرى أكثر قوة. إنه المكان الذي نعثر فيه على الحرية في أنفسنا كما نعثر أيضاً على التحرر مثل صاحب بيت الدعارة الذي يرى ظلنا بكل وضوح، ويستدعيه، ويستخدمه لتبرير تصرفاته.

لم يكن لقصة عاري علاقة بقصة كبيرة في العالم. ولم تكن لها صلة بأيّ فسادٍ مالي أو جنسي أو أخلاقي. ولم تكن قضية بحاجة إلى معالجة. لقد كانت قسوةً أظهرتها تجاه فتاة ضعيفة عندما كنت طفلة. حدث ذلك الأذى بعد ظهر أحد الأيام وانقضى في غضون ساعتين، لكنه أثقل عليّ حياتي بأسرها. لم أكن قد اعترفت به على نحو ملائم ولم أتمكن أبداً من التعويض عنه. كان يهمس في أذني، ولكنك يا زينب قمتِ بذلك، وكنت

أحاول إسكات تلك الهمسات، لكنها لم تتوقف أبدًا. وهكذا عاودتني القصة مرارًا وتكرارًا؛ إذ كانت تعيش في داخلي وتحمل ألمها الخاص. كان النظر إليها مباشرة ومعالجتها وتحريرها هو مفتاح حريتي ونموي.

بدأت قصتي في المصالحة عندما كنت ذاهبةً إلى حفل استقبال خاص وحصري لقادة حقوق المرأة في وزارة الخارجية الأميركية مع هيلاري كلينتون، والتي كانت حينذاك وزيرة خارجية. جلست في مؤخرة سيارة أجرة في واشنطن العاصمة في طريقي للحفل. كنت أتصفح بريدي الإلكتروني وأنا في حالة من الشroud، عندما شاهدت رسالة جديدة من جورج، وهو موظف عراقي شاب يعمل في مكتب منظمة نساء من أجل النساء الدولية في بغداد. كان موضوع البريد الإلكتروني: «هل من في هذه الصورة هي أنت؟».

كان في الرسالة صورة لي وأنا في الرابعة عشر من عمري، مستلقيةً في الفراش مع راضية، خادمة عائلتنا، التي كانت تكبرني بستين فقط. كنت أرتدي بيجاما زرقاء، وكان شعري طويلًا وكثيفًا. وكانت راضية في الصورة، ببشرتها البنية التي كانت بلون الشوكولا، وبغمازيتها الجميلتين، وهي جالسة بجانبني بشعرها الأشعث وأسنانها البيضاء المصفوفة، وهي ترتدي ثوبًا رثًا كانت ترتديه أثناء تنظيف المنزل.

حدّقت في الصورة. لم أر راضية منذ عشرين عامًا، على الرغم من أننا نشأنا معًا في منزل والدي. كانت راضية خادمة طفلة لدى عائلتنا. وعندما كبرنا، أصبحت مستودع أسرار حياتي والشاهدة عليها. لم يكن لدي أي خير عنها منذ أن أتيت إلى أميركا، على الرغم من سؤالي لمن حولي ومحاوله معرفة ما الذي حدث لها. وطوال هذه السنوات، كان عارًا سرّيًا يتعلق بها يراودني. كان لديّ اعتذارٌ لأقدمه.

كتبت بسرعة إلى جورج. «نعم إنها صورتي فعلاً!». من أين حصلت على هذه الصورة؟».

أرسل جورج البريد الإلكتروني الذي أرسلته راضية إلى راعيتها من منظمة نساء من أجل النساء الدولية، وهي امرأة تُدعى سوزان. كان الرعاة يرسلون ليس فقط ثلاثين دولارًا شهريًا للنساء الناجيات من الحرب، ولكن كانوا يرسلون الرسائل والصور أيضًا. وهذا ما ساعد في إقامة ارتباط وعلاقة عاطفية أكبر بكثير من مجرد إرسال الأموال. وبعد أن ساعدت مئات الآلاف من النساء، ربطني هذا البرنامج الذي صمّمته بالمرأة التي كنت أمل بالعثور عليها مرة أخرى يومًا من الأيام.

عزيزتي سوزان،

اسمي راضية جراد. لدي ستة أطفال، أربع بنات وولدان. لقد تم ترحيلنا من بغداد عندما قتل الإرهابيون زوجي. لقد نشأت منذ طفولتي في عائلة في غاية الفقر. كان والدي حارسًا في بغداد وكنا نعيش حيثما كان يعمل. كنت في الثامنة من عمري عندما تبنتنا عائلة في غاية الكرم. كانت والدتي قد عملت لدى العائلة قبل ذلك، لكنهم لم يشعروني أنني كنت ابنة مدبرة منزلهم. كان عند العائلة ابنة. كنت أحبها أكثر مما أحب نفسي. وكنت أرتدي ملابسها وأنام في فراشها. وكنا نأكل ونلعب معًا. لقد انفصلنا منذ أصبحنا بالغتين وأنا أبحث عنها. أنقذتني في الطفولة. أنا سعيدة الآن لأنني عثرت على أختٍ أخرى فيك. شكرًا على هذا الدعم. سأرسل لك صورتي مع صديقة طفولتي القديمة، أختي. ليس لدي أي شيء منها سوى

صورها وبعض ملابسها التي أعطتني إياها واحتفظت بها. كنا أنا وزينب طارق
رشيد شقيقتين من الطفولة وعشت في حزن عندما فقدتها.

سلام

راضية

كانت تشير إلى كنية والدي وجددي، رشيد، بدلاً من الإشارة إلى اسم عائلتي، سلبي. أحببت جورج
«إنها صورتني حقاً. هل تعرف ما إذا كانت قد سمعت باسمي مرتبطاً بمنظمة نساء من أجل النساء الدولية؟»
قال إنها لم تكن تعرف أي شيء. «حسناً، من فضلك لا تخبرها عني. سوف آتي إلى العراق لزيارتها، وأريد أن
تكون مفاجأة. تأكد أنها بخير حتى أصل إلى هناك، ويمكنني تدبير الأشياء بنفسني. أنا أعرف هذه المرأة. إنها
جزءٌ من حياتي.

انحصر تفكيري في اجتماع وزارة الخارجية رفيع المستوى، لكبار القائدات النسائيات في أميركا،
براضية. فلقد استحضرت رسالتها ماضيّ إلى حاضري مباشرةً. كانت في العاشرة من عمرها عندما أتت
للعيش معنا، وكنت قد بلغت الثامنة. كان والد راضية حارساً، وكانت والدتها خادمةً. كان لديهما ستة
أطفال وكانا بحاجة لعمل راضية لدفع تكاليف تعليم أخيها الأكبر. وفي منزلنا، كنا راضية الفقيرة، وأنا
الثرية، ابنتين لأمي. ومهما حاولت الحضور في حفل الاستقبال في ذلك المساء، فإن قلبي وعقلي عادا إلى
طفولتي، في بيتي في بغداد مع أختي المفقودة.

استغرق الأمر مني خمسة أشهر للعودة إلى العراق. في بغداد أقليت زميلي العراقي جورج وابن خالي
أحمد الذي أراد الانضمام إلينا، وقمنا بقيادة سيارتين إلى الجنوب من بغداد إلى مخيم للمشردين داخلياً في
محافظة كربلاء. عبرت رحلة القيادة أميالاً وأميالاً من الصحراء، عبر نقاط التفطيش الأمنية، ومرّت ببساتين
البرتقال والتي كانت تظللها أشجار النخيل، ومرّت بالعديد من القرى الصغيرة الواقعة على حافة نهر
دجلة. وعندما دخلنا مدينة كربلاء، وهي مدينة محافظة دينياً في وسط العراق، غطيت سروال الجينز وقميص
التي شيرت - والتي هي الملابس المدنية العادية في بغداد - بعبائة سوداء كانت تلفني من رأسي إلى أخمص
قدمي تبعاً لتقاليد كربلاء.

كانت الطرق الترابية المتّجهة إلى مخيم النازحين داخلياً مليئةً بالمجاري المفتوحة والمياه القذرة والقمامة. لم
تكن منطقة حكومية رسمية بل مجموعة غير رسمية من المنازل الطينية التي تمّ بناؤها على نحو عشوائي،
حيث كان يلجأ إليها كل شخص أو عائلة من أي مكان كانوا يهربون منه. توقفنا في مكتب «نساء من أجل
النساء الدولية» لكي نقل أمل، المنظمة والمدربة التي كانت تشرف على قضية راضية محلياً. كانت أمل تزور
راضية وأطفالها بانتظام للتأكد من أنهم كانوا على ما يرام حتى أتمكّن من الوصول إلى هناك.

قادتنا أمل في الطريق المؤدية إلى راضية. كانت دليلنا إلى المخيم والشخص الذي قدّمنا لراضية. كان من
الواضح أننا كنا متطفلين على المكان. كان بوسع الناس أن يروا ذلك من طريقة مشيتنا وحديثنا وارتدائنا
للملابس - وحتى من كيفية ارتدائي للعباية - وأنا كنا من العاصمة.

عندما وصلنا إلى منزل راضية الطيني البسيط، قامت أمل بطرق الباب، بينما وقف البقية في الخلف،
وعندما قرّعت قائلة: «أنا أمل، أمل»، فكرت أن الأمل يطرق باب راضية. الأمل بأنه يمكن أن يلتئم شملنا.

الأمل بأن إعادة اتصالنا بها سيمكننا من تقديم يد المساعدة لها، بصرف النظر عما عانت من التشرد والفقر واليأس. فتحت راضية بابها وهي ترتدي العباية أيضًا، إلا أن عباءتها مغطاة بالغبار. كانت ترتديها كما لو أنها لا تخلعها أبدًا. وقفت أمامها، لكن نظرة الاستغراب كانت تشي بأنها لم تتعرف عليّ. وكان هناك جزءٌ مني لم يتعرف عليها أيضًا. قلت: «أنا زينب». هزت رأسها وكأنها تقول إنها لا تعرف زينب.

كررتُ القول «أنا زينب».

بعد بضع ثوان، ارتسمت نظرة من الصدمة وعدم التصديق على محياها. «زينب. زينب؟ زينب، ابنة أم زينب؟».

أكدتُ بنعم أني كنت زينب. خطت إلى الأمام. «يا زينب! يا زينب! لو تعرفي فقط ما الذي حدث لي».

احتضنتني راضية وهي تبكي وتتنحب. حاولت الكلام لكن العاطفة قد تملكنتني. لقد عثرت عليها أخيرًا. وفكرت، هذه الفتاة - هذه المرأة - كانت جزءًا من عائلتي لفترة طويلة، وأحببتها وأشتقت إليها كثيرًا. راضية التي كنت أبحث عنها وأريد التعويض لها.

أمسكت بيدي وقادنتني إلى منزلها. كان مكوّنًا من غرفتين من الطين وحصير وفرش مكدسة جانبًا، لا تختلفان عن الغرفتين اللتين نشأت فيهما. كانت قد تغيرت كثيرًا خلال عشرين عامًا. تعرفت على الغمازة في خدها، لكن وزنها كان قد ازداد وكانت تمشي بطريقة مختلفة عن مشية المرأة الشابة التي كنت رأيته فيها آخر مرة عام 1990. كان الشك لا يزال يتتابني أني أتحدث مع المرأة المقصودة. أمسكت يدها اليسرى ورفعت أكمامها لرؤية علامات الحروق التي كنت أتذكرها. كانت قد حرقت نفسها عندما كانت طفلة بينما كانت تحضر الخبز في التنور العراقي التقليدي. كانت الحروق موجودة هناك. ابتسمتُ وسألته إذا ما كنت لا أزال أحمل علامات الوحم على بطني. نعم، نعم، أكدت لها قائلةً نعم، نعم.. كان بمقدور شخص عرفني كطفلة أن يعرف أنها كانت لدي من قبل. ثم قفزت إلى الخزانة الوحيدة في الغرفة الفارغة وتناولت إبريق الشاي وبيوضًا رخامية وألبوم صور قديمًا كانت تحتفظ به من الأيام التي كانت تعيش فيها مع عائلتي. قالت: «أملك القليل جدًا من الماضي». اضطرت للهروب من بغداد بعد أن قتلت الميليشيات زوجي. ولأني خرجت على عجلة، كان بإمكانني فقط أخذ ما هو أكثر أهمية بالنسبة لي. هل تتذكرين هذه الأشياء التي أعطيتني إياها عندما كنا طفلتين؟».

كانت بالفعل راضيتي. لم يقابل ابناها وبناتها الأربع أنا وفريقي لأنهم كانوا في غاية الخجل، لذلك اختبأوا في الغرفة الأخرى بينما كانت تقص لي قصة حياتها.

«قضى زوجي في القتال السني الشيعي. كان يمتلك متجرًا للإلكترونيات، وكانت أحوالنا تسير على ما يرام. بنينا منزلنا معًا وكنا في غاية السعادة. جاء رجلان إلى متجره بعد ظهر أحد الأيام وأطلقوا عليه الرصاص في الرأس - لأنه كان شيعيًا-. فشعرت بالرعب من أنهم سيأتون ليقتلونني وأولادي أيضًا. وبعد أقل من أسبوعين، حزمت كل ما يمكنني حمله في شاحنة صغيرة وأتيت إلى معسكر النازحين داخليًا. غادرت منزلي الذي بنيناه آجرة بعد آجرة. غادرته بشق النفس! كانت كربلاء مكانًا أكثر أمنًا بالنسبة لنا. لكن لم يكن لدي دخل، ولم أكن أتمتع بالحماية، وكان لدي ستة أطفال كي أؤمن لهم لقمة العيش. وعد بعض أفراد العائلة بمساعدتنا - أشقاء زوجي ورجال آخرون في العائلة - ولكن لم يقدم أي منهم المساعدة».

تركوني وحدي كي أدافع عن أطفالي. حصل هذا قبل أربع سنين. منذ ذلك الحين، عانيت من الفقر المدقع. قاسيت الأسوأ يا زينب. كنت جائعة، من دون طعام أقيت به أطفالي. إن بقاءنا على قيد الحياة كان بمثابة معجزة».

شرحت راضية كيف كانت تحمل مسدس زوجها وتسهر الليل بطوله لحماية أطفالها من أي هجمات في المخيم. كانت في بعض الأحيان تعيش على الخبز والطماطم فقط، وكانت تمضي أياماً من دون مياه.

«قاسيت الأمرين يا زينب. كنت أناديك في مرات عديدة في قلبي. لا أستطيع تصديق أنكِ عثرتِ عليّ». وعندما قالت هذه الكلمات، تعانقنا وبكىنا.

كان هناك الكثير للتحديث عنه. ولكن في البداية أردت أن أولي الاهتمام للأمر الأساسي. أردت التأكد أنه يتم الاعتناء بأسرتها. كان علينا أن نعرف كيف نؤمن لها دخلاً شهرياً منتظماً. وكانت بحاجة إلى سكن أفضل، وكان أطفالها بحاجة إلى المساعدة في المدرسة، وكانوا جميعاً بحاجة إلى المزيد من اللحوم والبروتينات الأخرى كي يتناولوها. كنت في غاية السعادة عندما علمت أن إحدى بناتها تدرس إدارة الأعمال في الكلية، بينما كانت الأخرى تدرس التمريض، وكانت بنت أخرى تستعد لدراسة الصيدلة. أصابتنى الصدمة أيضاً من أنها زوّجت بناتها في سن الخامسة عشر أو السادسة عشر، ولكنني تفهّمت لم فعلت ذلك عندما أوضحت لي أنها أرادت أن تضمن الحماية لهن لمواصلة تعليمهن. كانت تفعل ما يؤمن الحماية لبناتها. فقد وضعت تعليمهن كشرط من شروط الزواج. كان من السهل النظر لتصرفاتها على أنها متخلفة إذا لم يأخذ المرء في الحسبان الظروف التي واجهتها. لم أستطع الحكم على اختياراتها حتى لو كنت ضد تزويج الفتيات في سن مبكرة.

سألت راضية بعد أن تم الاعتناء باحتياجاتها الفورية إذا كانت ترغب بالمجيء لزيارتي في منزل خالي بحيث يتوفر لنا الوقت لمعرفة أخبار بعضنا بعضاً. وافقت. وبعد بضعة أيام، التقينا في بغداد في بيت الخال فؤاد على نهر دجلة حيث أمضت هي أيضاً الكثير من طفولتها.

عندما وصلت راضية أغدقها كل من خالتي وخالي وأبناء خالي بالعناق والقبل، وشربنا جميعاً الكثير من الشاي العراقي مع الهيل، وأكلنا الفاكهة والكليجة مع التمر. جلسنا في غرف لم تكن جدرانها من الطين على الإطلاق، كما هو الحال في منزل راضية، بل من القرميد المتين المزين بالسجاد الفارسي، ومصابيح الكريستال، ولوحات لنساء راقصات. كان المنزل لا يزال يحتوي على حديقة خضراء مليئة بالورود المزهرة، كالغاردينيا والياسمين حيث كنا نلعب ونحن أطفال. كنت أسبح في بركة السباحة هناك مع أبناء خالي في حين كانت راضية تراقب في حال احتجنا إلى المساعدة.

كان الجميع في عائلتي يتساءلون عما حدث راضية أثناء حوادث الغزو والميليشيات التي كانت تتحارب، لكن لم يعرف أحد مكاناً للعثور عليها. ففي خضم العنف الطائفي، أصبحت الأسر في بغداد معزولة داخل أحيائها الفردية. حدث هذا الأمر لراضية، كما حدث للملايين العراقيين الآخرين. بعد الشاي، اعتذرت أنا وراضية من التجمع العائلي كي ننقضي أخبارنا الخاصة. كان هناك الكثير للحديث عنه. فحياتنا قد تغيرت، وكذلك نحن. جلسنا في غرفة المعيشة في الطابق الثاني، واسترحنا على الأريكة البيضاء، تحت لوحات الخيول العربية. كان بإمكاننا أن نطل على نهر دجلة من المكان الذي جلسنا فيه. عندما خلعت راضية غطاء رأسها، رأيت أن شعرها كان لا يزال يحتفظ بتجعيدة جميلة. وخلعت حذاءها أيضاً، وارتمت

على الأريكة، وتنهدت بارتياح. أمسكت بقدميها بيدي لتدليكهما بينما كنا نتحدث عن الطريقة التي كنا نتسكع فيها في نفس الغرفة أيام كنا طفلتين.

كنا نضحك كفتاتين صغيرتين لدى استعراضنا لطفولتنا. كنا قد تزوجنا كلانا قبل عشرين عامًا شابتين في مقتبل العمر. كنت أعيش بشكل غير مباشر قصص رسائل حبها ولقاءاتها السرية عندما وقعت في غرام صابر، صديق أخيها. وكنت أريد معرفة كل شيء عن خططهم الهادئة للتوفير والزواج. كانت تعرف أنني قد غادرت من أجل زواج مرتب تقليدي في أميركا من شخص لم أعرفه. ومباشرة بعدما بدأنا حديثنا، كان ثمّة قرع على الباب، ودخلت الخادمة الجديدة، وهي امرأة من إندونيسيا – كانت قد خلّفت وراءها ثلاثة أطفال للعمل في بغداد – لتقدم لنا القهوة والبسكويت. هداًنا بينما كانت الخادمة الجديدة تقوم بخدمتي وخدمة الخادمة السابقة.

نظرت إلى راضية. حانت اللحظة. قلت لها: «لا أعتقد أنني قد قدمت لك اعتذاراً عن الكيفية التي أذيتك فيها عندما كنا طفلتين». عرفت راضية على الفور عمّا كنت أتحدث. وتذكرت ذلك اليوم أيضاً. إذ كان بمثابة نقطة تحولٍ في علاقتنا.

في اليوم الذي انتقلت فيه راضية إلى بيتنا، شرحت أُمّي لماذا أرسلها والداها للعمل من أجلنا. فالدخل الإضافي كان سيساعد عائلتها. كان والدها يقوم بحراسة منزل عائلتنا عندما كنا نذهب في عطلة، وكانت والدتها تقوم بأعمال التنظيف في منزلنا. الآن اشترى والداها أرضاً خارج المدينة، وكان يتوجب عليّ معاملة راضية كفردٍ من أفراد الأسرة.

قالت أُمّي: «الآن لديك أخت».

أخت؟ لم أكن أريد أختاً. كنت مرتاحةً بكوفي الفتاة الوحيدة التي تلفتت انتباه والديها. لذلك تجاهلت راضية في البداية.

كان عالمي الخاص يستهلكني، وكنت أقوم بواجباتي المنزلية وألعب مع صديقتي، ودمى الباربي التي تخصّني، وجميع ألعاب الطفولة الأخرى التي كنت أحبها. ومثلها مثل معظم الخادِمات اللواتي يقمن في المنزل، كانت راضية توجد في الظلال كسبح. فلم أكن أراها أبداً ولم أكن أعرف أين تنام، وأين كانت تحتفظ بملابسها، أو كيف كانت تحب تمضية وقت فراغها. كانت راضية هناك لتقوم على خدمتي وخدمة عائلتي. هذا كل ما كانت تعنيه بالنسبة لي.

كانت لامبالاتي قاسية، لكنها كانت حقيقية. ثم بعد ظهر ذات يوم عدت إلى المنزل من المدرسة وأردت تناول المثلجات. كنت في الصف الأول. كانت أُمّي لا تزال في العمل، وكان والدي في إحدى رحلاته، لذا كنت أنا وشقيقي في المنزل مع راضية. كنت لا أزال أرثدي الزي المدرسي، تنورة زرقاء وقميص أبيض، وكانت راضية ترتدي الفستان الذي كانت ترتديه للتنظيف، وتعدّ طعام الغداء للعائلة.

قلت لراضية بصوت أمر جداً: «أريد تناول مثلجات جوز الهند».

أجابت قائلةً: «لا، لا يمكنك ذلك. عليك انتظار أمك. تناولي طعام الغداء من ثم المثلجات

قلت: «أريد تناول المثلجات الآن، قبل الغداء».

«لا، لا يمكنك ذلك. لن أقدمها لك. عليك الانتظار حتى الغداء». واصلنا على هذا المنوال حتى فقدت أعصابي. «أنت مجرد خادمة. تتمثل مهمتك في القيام بما أتمناه!»، كان صوتي حادًا وباردًا لدرجة أنني تراجعته إلى الخلف عندما قلت ذلك.

تجمّدت وجه راضية، واغرورقت عيناها بالدموع. وارتعشت شفتها السفلى عندما صرخت بصوت متهدج: «أنا لست عبدتك!».

ركضت خارجةً من المنزل إلى الشارع وأغلقت الباب الأمامي خلفها بعنف. انتظرت عودتها وأنا أشعر بالصدمة. وبعد نصف ساعة أو ما يقارب ذلك وعندما لم تعد تملكني الذعر. بحثت عنها لكنني لم أتمكن من العثور عليها في أي مكان. ذهبت للجلوس في المطبخ وقد تملكني شعورٌ بالمرض بسبب الخوف. كنت أعرف أن والدي ستغضب إن هي اكتشفت أنني قد تسببت في هروب راضية.

عندما عادت والدي إلى المنزل، سألت أين راضية. كذبت قائلة: «لا أعرف، لقد غادرت للتو». لم تصدّق أمي كذبتني. وأصررت على معرفة ما الذي حدث. لذا أخبرتها بنسخة مخففة عن القصة الحقيقية. قلت لأمي: «لقد بالغت في رد فعلها»، كما لو أنه لم يكن بمقدوري فهم ما الذي أزعجها كثيرًا.

هرعت أمي خارجةً من المنزل. وبعد ساعة أو ما يقارب ذلك، عادت إلى المنزل برفقة راضية. كانت راضية قد ذهبت إلى أقارب لها كانوا يعيشون في الجوار. وبمجرد أن رأيت وجه أمي، أدركت أنها عرفت القصة بأكملها. أوه، كان يتملكها الغيظ! كان من السهل معرفة متى تكون والدي غاضبة. إذ تكبر عيناها، حتى تصبح في وضعية الاستدارة تقريبًا، وترصع قطرات صغيرة من العرق شفتها العليا. لم تصرخ أو تفعل أي شيء مثير. أخذتني جانبًا، وثبتت كتفي على الحائط، وحدثت في بعينها الحادثتين الثاقبتين.

«ما فعلته كان قاسيًا. كان في غاية القساوة». كانت كلماتها قصيرة وحادة. «لا تفعل ذلك أبدًا مرةً أخرى مع أي شخص. هل فهمت؟».

كانت عيناها مفعمتين بالغضب لدرجة أنها بدت أنها تخرق عمودي الفقري. لم تكن بحاجة لشرح أي شيءٍ آخر.

أمرت أمي قائلةً: «يجب عليك الاعتذار منها». قدمت اعتذاري لها. وبعد ذلك، كان والدي يوكلان إليّ القيام ببعض الأعمال المنزلية، وبمرور الوقت تغيرت علاقتي وموقفني من راضية. فبدأت أسمح لها باللعب معي، وفي نهاية المطاف بدأت أوليها اهتمامًا. حتى ذلك الحين، كنت أشبه ما أكون بواحدة من أخوات سندريلا غير الشقيقات اللئيمات. لقد منحني تلك اللحظة بارقة عن عدم إحساسي بمشاعر شخصٍ أقل حظًا مني. على الرغم من أنه مع مرور السنين انتهى بي المطاف إلى خدمة أفقر الفقراء، فإن تجربة قساوتي في مرحلة الطفولة لم تفارقني أبدًا.

تذكرت راضية تلك اللحظة بوضوح أيضًا قائلة: «كان يبدو الأمر كما لو أننا كنا على طرفي نقيض. كان والدك يقدم لك كل ما تريدين، في حين كان والدي يرسلني إلى العمل. لذلك كنت أشعر بالغيرة والكره تجاهك».

أطالت راضية الحديث عن مشاعرها، مشاعر لم أكن قد سمعت بها من قبل. عندما كبرنا في العمر، كنت أظن أننا صديقتان حميمتان. لكن بدا أنه كان لديها أكثر مما كنت أعرف لتقوله. كانت حيويةً وصریحَةً وهي تتحدث.

«كان ثمة عمل من أعمال المنزل كنت أكرهه فعلاً، يا زينب - ترتيب سيريك! فبغض النظر عن عدد المرات التي جريت فيها حملك على القيام بذلك، لم تفعل ذلك أبداً. ولم يكن بإمكانك تحمل محاولاتك للقيام بخبز الكعكة! ففي كل مرة كنت تقومين فيها بإعداد كعكة، كنت تتسبين بفوضى كبيرة، إذ كنت تكسرين البيض وكنت تذرّين الطحين في كل مكان. وكنت الشخص الذي يضطر إلى القيام بالتنظيف بعدك. بالطبع كنت أستاذ من ذلك. لماذا يتوجب عليّ القيام بالتنظيف في حين كان يتوجب عليك الذهاب إلى المدرسة؟ كنت في غاية الدلال. كان والداك يقيمان لك أفضل حفلات أعياد الميلاد. كنت أستمع بها، لكنني كنت أدرك أيضاً أنه لا أحد سيقم مثل هذا الاحتفال من أجلي. وكنت دائماً تتحدثين عن عطلاتك في لوس أنجلوس واليونان. كان ذلك يثير غيظي.

«كانت والدتك هي التي تجعلني أشعر بالراحة وبأني محبوبة. كانت في غاية اللطف والكرم معي. كانت تمنحني كل شيء: ليس مجرد أشياء مادية، ولكن كانت تمنحني الكثير من الحب. كانت تعانقني وتقبلني وتقول لي إنني ابتتها. ما زلت أتذكر رائحتها العطرة».

لم تتكون لديّ أدنى فكرة بأن راضية شعرت بالألم بعد يوم قسوتي ذلك. كانت تصف حقيقة لم أكن حتى قد فكرت بها. لم أكن أعرف ما الذي يعنيه أن تكون الشخص غير المرئي الذي كنت أخلفه ورائي في المنزل بينما كنت ألعب وأتابع أحلامي ودراساتي. لقد كانت شبح المنزل الذي ينظف الفوضى التي كنا نخلفها وراءنا.

لم أفكر أبداً بالحياة من وجهة نظر الخادمة، بحقيقة أنني لم أضطر أبداً إلى ترتيب سريري أو إلى غسل ملابسني. عندما كبرت، أصرت والدتي على عدم تعلمي الطهو والتنظيف أبداً لكيلا يتوقع أي رجل ما أن أقوم بهذه الأعمال لمجرد أنني امرأة. لقد أتبعته وأمرها بسرور بالغ وفي وقت لاحق اعتقدت أنها تشبّه نسوية. كانت والدتي في غاية الحماس كي تعلمني أن أكون امرأة قوية ومستقلة. لقد أدرجت هذه القيم في الخطابات التي ألقيتها حول حقوق المرأة في جميع أنحاء العالم، وكنت أعتقد أنها رسالة تقدمية.

وفي الحقيقة، لم يخطر ببالي أبداً أن هذه القصة قد تحمل جانباً غير مريح. فلقد غفلت والدتي أن تتذكر أنه كي يتم تحرير نساء من أمثالي من تلك الأعمال المنزلية المضجرة، كان يتوجب على شخص آخر القيام بها. ومن المحتمل أن يكون ذلك الشخص امرأة أخرى، وعلى الأرجح امرأة فقيرة لم يكن لديها خيارٌ مثل راضية. وعندما أصغيت إلى ذكريات راضية عن طفولتنا، نظرت إلى تعاليم أمي على ضوء جديد. كانت تبدو تلك التعاليم أقل استنارة من وجهة نظر راضية.

قلت لها: «أنا في غاية الأسف يا راضية، أنا في غاية الأسف ليس فقط لقسوتي في ذلك اليوم، بل لأنني لم أعر اهتماماً للكيفية التي كنت تشعرين بها خلال تلك السنوات».

تعانقنا وبكىنا. كان لدى راضية المزيد لتقوله. واصلت التحدث على نحو جازم ولكن من دون غضب. لقد أخبرت قصتها بقوة معينة لم أكن قد سمعت بها من قبل.

«تم إرسال جميع أشقائي الستة إلى المدرسة، لكنني كنت كبش الفداء. عملت لكي يستطيع أشقائي عيش حياتهم. وعندما سألت أبي لماذا لم يرسلني إلى المدرسة، أجبني قائلاً: «أنت فتاة. ماذا ستفعلن في المدرسة؟ لا أكاد أستطيع تحمل أعباء هذه العائلة مادياً. ينبغي عليك مساعدتي للبقاء على قيد الحياة والعناية بأشقائك». لا أزال أستطيع الشعور بالحزن لرؤية فتيات أخريات كان يُسمح لهن بدخول عالم كان مغلقاً إلى الأبد بالنسبة لي. حلمت بارتداء زي مثلهن وحمل الكتب إلى المدرسة مثلهن، والقيام بالواجبات المنزلية مثلهن، لكنني لم أتحدث أبداً عن حلمي مع أي شخص».

«مع مرور الوقت كنت أجلس معك يا زينب، بينما كنت تعملين وظائفك المنزلية. لم يكن باستطاعتي القراءة أو الكتابة، لكنني كنت أسألك عن الحروف والكلمات، وكنت تشرحنيها لي. هكذا تعلمت. كنت أكس أرض البيت، وأصيحخ السمع إلى الكلمات التي كنت تكررنيها، وأقولها بصوت لا يكاد يسمع بيننا كنت تقولينها بصوت عالٍ. كنت في غاية الشوق للتعلم، وأحياناً كنت أحفظ المقاطع حتى قبل أن تحفظها. عندما أصدرت الحكومة قانوناً ينص على وجوب التعليم الإلزامي، أرسلني والداك إلى فصل مسائي قريب من منزل. كنت في غاية الحماس يا زينب، لمجرد الحصول على حقيقتي المدرسية الخاصة وملئها بأقلام الرصاص والمأحي والدفاتر التي كانت تقدمها لنا الحكومة. لم أكن أبالي بأنني كنت أذهب إلى المدرسة في المساء حتى أتمكن من تنظيف المنزل أثناء النهار أو أنني كنت الطفلة الوحيدة بين العديد من النساء البالغات. كنت أحصل على أعلى الدرجات!».

في نهاية الأمر توقفت راضية عن العمل لصالح عائلتي، وأكملت تعليمها، وحصلت على وظيفة بدوام جزئي في النادي الريفي الذي كانت تذهب عائلتي إليه. ثم عملت كموظفة استقبال في المطار حيث كان يعمل والدي. لم تتوقف أبداً عن كونها أحد أفراد العائلة، وكانت تزورنا على نحو متكرر وكثيراً ما تقضي الليل عندنا. وازدادت ثروتها أكثر عندما تزوجت، وازدهر متجر إلكترونيات صابر. كانت قصة جميلة لسمعها المرء. بعد ذلك، أدت وفاة صابر بعد مرور ستة عشر عاماً إلى انحدار حياتها مجدداً إلى نقطة الصفر، وعودتها مرة أخرى إلى الفقر المساوي الذي عاشته في طفولتها، والذي كانت تعمل بجهد للنجاة منه.

في تلك الليلة، استمتعت راضية بحمام ساخن في منزل خالي. لم تكن قادرة على أخذ حمام ساخن لسنوات منذ نزوحها. بينما كانت تستحم، جلست أنا وعائلتي في غرفة المعيشة لمناقشة التزاماتنا الأخلاقية تجاهها. لم تكن مناقشة مباشرة. انضم إليّ البعض في الشعور بأنه يتوجب علينا مساعدة راضية لخدمتها لنا كطفلة، وشعر آخرون أنه قد تم دفع رواتب عادلة لها منذ غادرت عائلتنا، ومع أنه يجب أن نساعدنا للخروج من وضعها، لم يكن لدينا ما نعوض عنه. واتخذنا أنا وإخوتي الذين كانت تربطناها أوثق العلاقات قراراً نهائياً. سنبه راضية بعض الميراث الذي ورثناه عن أمنا ودعمها حتى تعود حياتها إلى حالة جيدة وحتى يصبح أبنائها جميعاً راشدين ويتمتعوا بحياة مستقرة.

وببعض المساعدة، انتقلت راضية إلى منزل جديد في كربلاء وحصلت على وظيفتها من نفس الوزارة التي وظفتها عندما عملت في المطار. أنهت بناتها الثلاث دراستهن في التمريض والإدارة والصيدلة وتسرب طفلان من المدرسة وحتى كتابة هذه السطور كان لا يزال واحداً في المدرسة الثانوية. أتحدث معها بانتظام الآن كصديقة حقيقية وشقيقة فؤاد.

لا تموت قصص عارنا المخفية أبدًا. يمكننا اختيار التمسك بها ومحاولة إبقائها مخفية، أو يمكننا النظر إليها مباشرة ومعالجتها وحلها والخروج منها. الخيار هو خيارنا. فعندما نحتفظ بها، فإنها تطاردنا، وتسجننا في همساتها. عندما نوافق على إطلاق سراحها، يتوجب علينا مواجهة أنفسنا. حالفني الحظ بأن عثرت على راضية ومُنحتُ الفرصة للاعتراف بأفعالي التي حدثت في الماضي والتخلص منها مباشرة. فعلت هذا من أجلها، لكن أكثر من أي شيء آخر، فعلت ذلك من أجل نفسي. كنت بحاجة ماسة إلى تحرير نفسي من عبء الذنب والعار الذي كان يلاحقني. إن تعويض الأشخاص الذين آذيناهم في حياتنا هي عملية مستمرة. فبغض النظر عن مدى وعينا، فإننا نرتكب أخطاء تؤذي الآخرين. لا يتوقف التعويض عندما يتم حل موقف واحد. بالأحرى، يبدأ بالمبادرة الأولى ويتواصل من هناك. بدأت بادرتي بإيجاد راضية.

في بعض الأحيان أعتقد أنه توجب عليّ التجول في جميع أرجاء العالم والعمل مع آلاف النساء اللواتي يحاولن الإفلات من العنف والفقير لمجرد العثور على نفس المرأة التي كنت أبحث عنها طوال الوقت – والتي أنا مدينة لها باعتذار من الأعماق. وفي التعويض لراضية، عرفت من العواطف والحقائق ما لم أكن قد فكرت به سابقًا. ما كنت لأدرك ما الذي كان يعنيه أن تكون المرأة موجودةً في الظل، تنظف فوضى حياة عائلي، وتعاني من عدم اكتراثي، وتعيش دائمًا بتلك الدرجة من الأذية.

يحمل الناس الكائنون في ظلال حياتنا أسرارنا. ويعود أمر إيصال هذا الظل إلى النور لكل واحد منا. في هذه العملية يكمن تعلمنا. ولا يهم مدى كبر هذا الفعل أو صغره. ما يهم أكثر هو كيف نشعر داخل قلوبنا. ونحن بحاجة إلى الانتباه إلى المكان الذي يؤلمنا ضميرنا فيه. كنت أدرك أن تلك كانت قصة عاري، واستغرق الأمر مني حياتي لمواجهتها وامتلاكها. وعند القيام بذلك، حلّ وعيٍّ أعمق في حياتي. أدركت أن القيام بالتعويض والاعتذار كان نوعًا من الحرية، ولذلك قررت الاستمرار في ممارسته. وإذا قُيِّص لي أن أرى صاحب بيت الدعارة مرة أخرى، سيكون بوسعي القول له: «نعم، أنا أعرف عاري، وقد انكبت عليه. قد لا يكون بوسعك استخدامه ثانيةً أبدًا لتبرير عارك».

الفصل الخامس

الغوص في ظلماتنا

«عندما نعيش حياتنا بالغضب،
نخاطر بأن نصبح الطاغية التي كنا نحاربها»

الحقيقة مثل قصة سيف الملك آرثر. ففي الأسطورة، يمكن فقط للمالك الشرعي للسيف، والوريث الحقيقي للمملكة، أن يسحبه من الحجر الذي عُرس فيه. هذه الفكرة تنطبق علينا جميعًا أيضًا، لكي نكون الملك الكامل أو الملكة الكاملة لمملكة حياتنا، نحن أيضًا بحاجةٍ لملك سيفنا الخاص، من أجل أن نعيش بالحقيقة.

كل شخص يمكن أن يحمل سيفه ويجلس على عرشه. يمكن لكل واحدٍ تجسيد سلطتها وحكم المملكة في حياتها. ولكننا لا نستطيع فعل ذلك إلا عندما نواجه بشجاعة وصرامة بكل جانب من جوانب أنفسنا. فالمتنمر الذي يتفاخر بسلطته وقوته الجسدية وكلماته الحادة لا يمكنه النجاح في المطالبة بسيفه إلا عندما يعترف أيضًا بمخاوفه ومشاعره بعدم الكفاءة وعدم الأمان. لتمسك سيفها حقًا، يجب على المرأة التي تستمتع بالاهتمام الذي تحصل عليه من الرجال عن طريق الإغراء، أن تعترف بألمها وانعدام الأمان والحاجة إلى الحب أيضًا. فالحقيقة لديها امتلاء بذاتها. إذا أردنا الاحتفاظ بها في جوهرها وفي مجملها، نحتاج إلى

الاعتراف بجميع جوانبها، حتى تلك التي لا نحبها. هذه ليست مهمة سهلة، ولكن إذا كان هدفنا هو الجلوس حقاً على عرش حياتنا، فإن مواجهة أنفسنا لأمرٍ ضروري. بالنسبة إلى كثيرين منا، من الأسهل العيش في حقائق جزئية. من الأسهل إلقاء اللوم على الآخرين أكثر من رؤية أنفسنا وظلالنا.

إنها تدبير أنفسنا وتخدير مشاعرنا بدلاً من مواجهة ما لا يعمل في حياتنا. من الممتع أكثر أن نحيط أنفسنا بالأشخاص الذين يتفوقون معنا أو يشبهوننا ويغذون عدوانيتنا نحو مواقف وسلوكيات الآخرين أكثر من محاولة رؤية الجانب الآخر - أو الجوانب الأخرى - للأشياء. هذه الحقائق الجزئية تشتت انتباهنا عن مواجهة تعقيداتنا وتواطئنا. نضع الناس في فئات بسيطة من الصواب والخطأ، حيث من السهل الحكم على مواقفهم والتغاضي عما نسهم به في المشكلة. نقول: «لدينا قيم جيدة، لكن لديك قيم سيئة»، أو «أعمالنا أخلاقية، ولكن أنت تخدم نفسك»، وهكذا.

إن القبض على سيف الحقيقة يتطلب كامل قوتنا العقلية والنفسية. حيث علينا أن نواجه ظلالنا. إذا لم نفعل ذلك، فالحياة عادةً ما تجبرنا على وضعها في الحسبان. على أي حال، ووضعنا في مواقف صعبة أو حتى مؤلمة حتى ندرك أننا لسنا بلا لوم. ستواجهنا الحقيقة دائماً، إن لم يكن الآن، ففي نهاية حياتنا، عندما نتوسل لمزيد من الوقت لحل ما لم نتطرق إليه بعد. عندما نكون شجعاناً بما يكفي لمواجهة أنفسنا تماماً في تطابقتنا وتناقضاتنا، فإن شجاعتنا تُظهر لنا طريقاً جديداً إلى الأمام، وهي طريقة جديدة للاتصال والتواصل مع أنفسنا ومع الآخرين. في الأوقات المثيرة للانقسام، تعد هذه الملكية الكاملة لحيواتنا أمراً حاسماً. لطالما شعرت بالثقة في التعبير عن غضبي من القيم التي لا أنفق معها، سواء أكانت جنسية أو عنصرية أو أصولية. إلى أن جاءت نقطة فقدت فيها شخصاً عزيزاً عليّ بسبب حكمي على مبادئه. إن فقدان الصداقة والحب المؤلم جعلني أساءل عما إذا كان هنالك طريقة أفضل لنا لإشراك الجميع في اختلافاتنا.

لقد كان سامي مثل أخ صغير لي. عشر سنواتٍ من عمري، كان سامي في سن المراهقة عندما التقيت به، وكنت في أوائل العشرينات من عمري. كان ذلك في أوائل التسعينات، وكنت قد انتقلت للتو إلى واشنطن العاصمة. كان سامي مهتماً بالشؤون الدولية والسياسة العالمية، وعندما بدأت بالسفر والعمل في مناطق الحرب، قمت بمشاركته قصصه مع الأشخاص والمواقف التي واجهتها. شاركني في آرائه السياسية الأخيرة وما كان يدرس في المدرسة. وبما أنني لم أتمكن من رؤية أخي الحقيقي الذي كان في العراق، حيث كان السفر محظوراً بين البلدين لسنوات عديدة، أخذ سامي مكان أخي الصغير. كان قلبي يمتلئ فرحاً في كل مرة رأيته. كنت متحمسة دائماً لسماع وجهات نظره بينما تابع تعليمه، وبدأ مسيرته، وعلاقاته الرومنسية. في عام 2015، عندما أخبرني أنه وجد امرأة أحلامه وكان يريد أن يتزوج، سعادتي له ملأت قلبي، ولكنني أسفت لأنني لم أتمكن من مقابلة دوننا قبل حفل الزفاف بسبب سفري للعمل، وللتعويض عن تقصيري، قمت بتنظيم عشاءٍ حميم لنا نحن الثلاثة للاحتفال بحبهما، والتعرف عليها بشكل أفضل. واحدة من الأشياء المفضلة لدي مع الأشخاص الذين أحبهم هي المشاركة في أفضل طعام لقلبي، ولذلك حجزت طاولة لطيفة في مطعم لبناني. مع مقبلاتٍ صغيرة من الحمص، والتبولة، والفاصولياء لتوزع بشكل جميل على طاولتنا، بدأنا نتعرف على بعضنا البعض. تحدثنا عن كيف كان زفافهم رائعاً، وما فعلوه في شهر العسل، وكيف التقوا ووقعوا في الحب. كل شيء سار على ما يرام. كما أحضر الندل الفلافل والفتوش، لقد تحولت محادثتنا إلى الأحداث الجارية: كان زواج مثليي الجنس في يتردد كثيراً الأخبار في ذلك الوقت، وأثار ظاهرة الاحتباس

الحراري على موائل بعض الأنواع الحيوانية المهددة بالانقراض، وكذلك الحديث عن التطرف الديني في حياة الناس.

أعلنت دوناً أنها كانت ضد زواج المثليين. في الواقع، كانت تعتقد أن المثليين جنسياً محكوم عليهم بالجحيم. وأعلنت أنه «الإثم».

قلت: «لماذا نكذب حول جنسانية المرء؟» أجبت، دون أن أفكر كثيراً في ذلك. «أليس من الأفضل أن يكون الشخص صادقاً حول تفضيله الجنسي بدلاً من قمعه؟».

جوابها كان حاداً، «إن المثلية الجنسية هي خطيئة»، «لقد حرّم الله ذلك».

لقد صدمني هذا المنظور الجامد. «بالنسبة لي، من الأهمية بمكان أن نكون صادقين مع أنفسنا، مع الناس من حولنا، ومع الله بدلاً من إنكار حقيقة المرء وأن نعيش كذبة وضحت رأبي ولكن صوتي أصبح أقل صداقة. «إن الخطيئة هي في العيش في حياة زائفة تؤذي الآخرين في هذه العملية، وليس في المثلية الجنسية».

لم تكن حجتي مع دوناً تعمل، لم ترغب في سماع وجهة نظر أخرى. أصبح الهواء بيننا أكثر برودةً. لذلك قمنا بتحويل موضوع الحديث وانتقلنا للتكلم عن البيئة والحيوانات المعرضة للخطر بسبب الاحترار العالمي. «الحيوانات في رأبي أكثر خلقة وصداقة وأمنة، لأنهم لا يكذبون مثل الإنسان».

«لا يمكنك مساواة الحيوانات والبشر»، ردت دوناً. «نحن الكائنات المتفوقة. لدينا الحق في استخدام الأرض وكل شيء من أجل مصلحتنا». «أنا أختلف معك» قلت، وقلبي ينبض أسرع. «أعتقد أن الحيوانات ذكية، حتى لو لم تكن نعرف كيف تفهم أو كيف نقدر ذكاءها». لقد ذكرت كيف تمت دراسة ذكاء الحيتان والفيلة والغربان، على سبيل المثال، لفترةٍ طويلةٍ. لقد رفضت دوناً هذا. «نحن لا نعرف على وجه اليقين. هذه الدراسات هي مجرد فرضيات». وجهات نظر دوناً بدأت تثير غضبي. من كان سامي يتزوج؟ وصل النادل لإزالة المقبلات واستبدالها بالطبق الرئيسي. لكننا تجاهلنا أطباق الكباب والخضروات المشوية عندما انتقلت المحادثة إلى موضوع الدين الحساس. لقد ذكرت خبراً عن بعض أحداث التحرش الجنسي من الكهنة الكاثوليك ببعض الأطفال. أجابت دوناً بحدة: «في بيتنا، لا نتقد الدين. نحن نحترمه». كافحت لإخفاء مشاعري. ولكنني كرهت وجهات نظرها.

ذهبتنا ذهاباً وإياباً - قيمها وقيمي؛ قيمها، لقد كنا نتقاذف المعتقدات وكأننا نلعب المضارب في مباراة تنس. ارتفع صوتي، وضاعت عيناى. إذا لم تقم كلماتي بالتعبير عن شعوري بالإحباط، فإن كل جزء من سلوكي كان ليفعل ذلك. ومع ازدياد مشاعر الحزن بيننا، تدخل سامي. «لا تقلقي، يا زينب»، قال وهو يضع ذراعه حول زوجته الجديدة. «أنا أتفق مع دوناً على هذه القضايا. لا بأس» تعمّقت صدمتي.

ربما كان سامي يحاول أن يقطع التوتر المتزايد، ولكن في حقيقة الأمر أن كلماته أزعجتني أكثر. صديقي العزيز كان عنده هذه القيم أيضاً؟ استجوبت من عرفت وأحببت كل هذه السنوات. بعد كل شيء، كان يعرف وجهات نظري جيداً. حتى بعد أن كنت من المدافعين عن حقوق المرأة، كان يعرف مدى التزامي بالبيئة وحبى للحيوانات. هل فاتني شيء طوال الوقت؟ من كان بعد كل هذه السنوات؟ كنا نتحدث دائماً بصراحة عن السياسة والدين وكل شيء آخر. لم يكن أي شيء محظوراً على الإطلاق. في نهاية المساء، قبلنا

بعضنا وقلنا ليلة سعيدة ببرود. ولكنني كنت مدمرة. لقد تشاجرت لتوي مع أعز وأقدم أصدقائي. عندما عبرت عن تعجبي من قيم زوجته الجديدة. بالعودة إلى المنزل، شعرت بالضيق لدرجة أنني لم أستطع النوم. سارت الأمور من سيء إلى أسوأ. بعد بضعة أسابيع، كتب سامي رسالة لي تمنعني من التعبير عن آرائي لزوجته مرة أخرى. لم أكن لأتحدث أبداً عن أي قضايا سياسية أو دينية أو اجتماعية أو بيئية في وجودهما. سوف يتم الترحيب بي فقط إذا تمكنت من التحدث عن القضايا غير الخلافية. كنت أعرف ما يعنيه هذا. أنا لست جيدة في الحديث الصغير، وحياتي كلها هي سياستي وآرائي. فحياتي السياسية والشخصية هي واحدة ومتشابكة. لم أتمكن أبداً من انتقاء ما أتحدث عنه، مع أقرب صديق لي. كان اختيار إبقاء حبه وصداقته من خلال فرض رقابة على نفسي أو فقدانه للأبد أمراً صعباً، لكنني لم أستطع أن أوافق على الصمت. فهذا يعني خيانة نفسي وكل شيء وقفت من أجله.

لقد اخترت أن أخسر الصداقة وأحتفظ بصوتي، لكن هذا الاختيار حطّم قلبي. لقد فقدت أحد أصدقائي الأعزاء، وكان ذلك ثمناً باهظاً يدفعه المرء. عند التفكير في هذا الوضع الرهيب، سألت نفسي إذا كان بإمكانني القيام بعمل أفضل في إشراك دونا. لم يكن هناك شك في أن المناقشة نفسها كانت مستقطبة وكنت قوية في موافقي. كان من الواضح أيضاً أنني لم أقنع دونا على الإطلاق بأن قيمي هي الأفضل. لم تأت إلى طريقي في التفكير. بدلاً من ذلك، كنت قد وقفت إلى الجانب الذي فكرت فيه بأنه ليبرالي، منفتح الذهن، و«جيد»، ووضعت في مقابل الـ «هم»، جانب المحافظين، العقلية المغلقة، و«السيئة». لم يكن ذلك سهلاً. كيف يمكننا أن نتمسك بقيمتنا ونستمر في إشراك الناس الذين يريدون لنا بأن قيمهم تعارض قيمنا؟ هل من الممكن أنني لم أقدم آرائي وقيمي السياسية بشكل جيد، ولكنني حاولت أيضاً أن أتحدث بجديّة مع دونا عن أشياء قد تكون لها قيمتها أيضاً؟ وما هي الحقيقة الكاملة التي لم أرها؟ كنت أعرف لماذا وجدت أشخاصاً مثلها ووجهاً نظرهم مزعجة ومتعجرفة، ولكن ما الذي كانوا يرونه في داخلي ويثير غضبهم؟ ما هو الشيء الذي فاتني؟

أخبرت صديقاً موثقاً به، وهو طبيب نفسي، عن الوجبة غير السارة التي شاركتها مع دونا، وحول الكيفية التي اختلفت فيها معها وكيف فقدت محبة سامي. أو ما صديقي بطريقة تنم عن الفهم. «هل أنت على استعداد للذهاب إلى الظل الخاص بك كوسيلة لفهمها؟»، سأل وشرح كيف أن الدخول في ظلامنا الخاص، ورؤيته، وفهمه، يمكن أن يساعدنا على رؤية وفهم الظلام في الآخرين. تبدأ الرحلة بمعرفة أنفسنا أولاً، وهذا يعني الظلام في داخلنا وأن نستكشفه في حياتنا الخاصة. ذكرني شرح صديقي بقصة من جنوب الهند لقصائد الرومي من ترجمة كلومان بارك، تقول القصة إن «الصابون هو الأوساخ التي نشترها». وبينما نعرض الصابون على الأوساخ التي نحاول تنظيفها، يختلط الطرفان بعضهما البعض. والنتيجة هي النظافة، الشيء نفسه ينطبق عليّ، فإذا كنت أرغب في تنظيف عالم «الأوساخ»، ربما كنت بحاجة إلى البدء بفهم الأوساخ الخاصة بي. ولكن الرحلة الداخلية ليست سهلة. لرؤية الحقائق المظلمة، نحتاج إلى استكشاف ظلامنا الخاص، والبقاء متقبليين لما نراه، ومقاومة الحكم عليه. إذا أردت أن أرى حقاً بدون حكم، فسأحتاج إلى الفضول لدي. كنت أعرف من عملي في ثقافات مختلفة أنه كلما أتيت بالحكم، جذبت ستائر سميكة لحجب أي فهم حقيقي. فقط عندما أرتاح وأسمح للفضول أن يقود يمكن أن أفهم بعض التقاليد أو الممارسات من منظور جديد. هل يمكنني تطبيق هذه المعرفة على نفسي الآن؟ هل يمكن أن أرى ظلاً بلا حكم، ليس لتبريره، بل لفهمه؟ قررت أن أقوم ببعض الطقوس البسيطة التي تم تدريسها لي منذ سنوات من قبل مدرّستي أنجيليس آرين، المعلمة في تقاليد السكان الأصليين. بدأت بتنظيف بيتي وغمرت نفسي، وأعددت

نيتي لاستكشاف ظلمتي والمحافظة على فضولي بغض النظر عما يحدث. في سلام وخصوصية بيتي، صنعت مكانًا مريحًا للاستلقاء. أضأت الشموع واخترت بعض الموسيقى القوية لتغمر نفسي، والموسيقى المفضلة لدي، أغنية (Ennio Morricone) في (The Mission). بهذه الطريقة، وبمساعدة الموسيقى، كان بإمكانني أن أبطئ ما يكفي لاستكشاف الأماكن التي لم أكن أرغب في الذهاب إليها داخل نفسي. استلقيت، أغمضت عيني، وبدأت بالاسترخاء بسماعي للموسيقى. أخذت نفسًا عميقًا وتركت خيالي يطير. عندما أتت الصور من تخيالاتي، تركتها تغسلني. الصقر يطير فوق الحقل، وأجنحته ترفرف في مهب الريح. الحصان يركض في الميدان. الحقل يتحول إلى كهف، الصور تظهر، وتتغير، وتتحلل مثل الصور في الحلم. تابعتها واحدة تلو الأخرى، مسترخية تمامًا وبنقطة تامة. في نهاية المطاف، رأيت مكانًا لم يكن لدي أي فكرة عما في داخله: مكان الغرور. أنا؟ المتكبرة أو المغرورة؟ غير ممكن!

لقد انكشيت من هذه الرؤية. لقد رفضتها. لكنني تذكرت التزامي بعدم الحكم. عدت إلى العملية. إذن ما هي هذه الغطرسة؟

كان غروري مثل متمرّ مراهق أخذ كل ما يريد دون النظر إلى أي شخص آخر. كان يحق له، أن يكون واثقًا لأخذ ما يريد، وبصوت عالٍ. سمحت لنفسي للإحساس بهذا الشعور بالكامل، وحتى أحببته، فعدم الاهتمام بما قد يشعر به الآخرون، وأخذ ما أريد دون الشعور بالذنب أو الشك الذاتي. جاء في شعوري بالحرية، شعور لم أسمح لنفسي بالاحساس به سابقًا، وفي استسلامي لهذا الشعور، استطعت أن أرى كيف يشعر الآخرون الذين يأخذون ما يريدون - قطعة أرض، دبابة، مدفع رشاش - دون أي تردد أو ندم أو قلق. سمعت نفسي أصبح، «أعطني ذلك. إنه لي الآن!» عرفت بهذه اللحظة أن الشعور بالغرور رائع، فلم يكن الاهتمام بأحكام الناس مهمة على الإطلاق، فالغرور يعرف جوانبهم القبيحة، ولا يهتم بإخراجها، وحتى الاحتفال بها. غروري كان جريئًا وقويًا ووقحًا. لم أكن أريد أن أتوقف. شعرت بالقوة تمامًا وبالخلو تمامًا. ومن ذلك المكان العميق، تساءلت، إذا كان هذا الشعور عظيمًا هكذا، فما هو الحافز للتغيير؟ من سيتخلى عن هذا النوع من الغطرسة إذا لم تكن هناك حوافز كبيرة للتخلي عنها؟ قررت الذهاب بشكل أكثر عمقًا، وسألت، ماذا تعني هذه الغطرسة؟ وهناك رأيت غضبًا من كل الظلم في العالم. إذا كان إنصاف العدالة بمنع الظلم والسير على النور، فتعلمت من غروري بأن هناك أمور غير عادلة في الحياة، وهناك من الناس من يشعرون أن الطريقة الوحيدة للنجاح هي أن يكونوا جزءًا من الظلم. وفي نهاية الموضوع لا أحد يهتم، وفي هذه اللحظة لأول مرة أفهم رجال الميليشيات الذين يحملون سلاحًا ويقتلون الناس في العراق أو سوريا أو جمهورية الكونغو الديمقراطية أو جنوب السودان. فقط الآن استطعت أن أفهم كيف استمدوا شعورًا بالقوة من عنفهم، ليس فقط بأسلحتهم، ولكن أيضًا من خلال رؤية فساد السلطة في الآخرين. لقد سموا ما هو قبيح في الآخرين واحتضنوا ذلك. هذا هو الطريق الذي قرروا اتباعه في عالم غير عادل. وفي تلك اللحظة، رأيت أن ما وراء كل هذه الغطرسة في نفسي هو انعدام الأمن والخوف والألم العميق. شعرت بالغرطرسة وكأنها قناع كنت أرتيه لإخفاء جزء مشوه مني، ما هو إقناع من القوة لحماية القبح الداخلي من الظهور. كنت خائفة من أنني كنت امرأة طموحة بينما لم أكن محبوبة. كنت خائفة من أنني لا أملك أمنًا ماديًا؛ شعرت بعدم الأمان لانعدام الجمال؛ كنت مليئة الغضب من تدمير بلدي، العراق، من حرب الخليج الأولى والثانية، وكل الحروب التي سبقتها.

لقد شعرت بالاشمئزاز من أولئك الذين كانوا غافلين عن هذا الدمار والألم الذي سببوه لملايين من الناس. كنت قد دفعت كل هذه المخاوف، وعدم الأمان، والغضب العميق في داخلي. هناك فقط تفاقمت مخاوفي. هذا عندما شُغل المصباح الكهربائي. شعرت بالحرج الشديد من الحديث عنها، وشعوري بانعدام الأمن، والغضب، لكن هذه المشاعر كانت حيّة في ظلي. رأيت أن الأشياء لا تموت في الظلام. ربما دفنت مسائلي، لكنها كانت على قيد الحياة إلى حد كبير وأردت الاعتراف بها. أردت هذه الأجزاء القبيحة فيّ أن يُنظر إليها، لا خنقها. كان غروري مثل الغطاء على صندوق الأمانات الخاص بي. فقد أبقى على قوة هذه المشاعر «غير المقبول عليها».

كان الحب هو الذي حملني طوال هذه الرحلة الداخلية. لقد اضطررت لأن أثق بالخير الأساسي في داخلي. وإلا، لكنت قد فقدت نفسي في الظلام والارتباك وما كنت لأرى؛ وربما لكنت قد تخلّيت عن استكشافاتي عندما أشعر بعدم الارتياح. إن النظر إلى الداخل في عمق حقائقنا يمكن أن يكون مُربكًا. عندما بدا كل شيء مظلمًا، كان رسولي في الحب نعمة الإنقاذ. سمح لي أن أخوض في كل الخوف الذي نشأ.

وتذكر أنني كنت شخصًا جيدًا في أساسي، وهذا منحني الوصول إلى الاكتشاف على فريد من الأفكار أيضًا. أدركت أن الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها إيقاف الضرر الذي يحدثه ظلي هو احترامه بدلاً من إخفائه. إذا أعطيته بعض المساحة، وواجهته، وأجريت حوارًا حقيقيًا معه، فعندئذ يمكنني استبعاده من الصندوق حيث احتجزته لفترة طويلة. من خلال امتلاكه، أقوم أيضًا بمنع ظلال الآخرين من التلاعب بظلي لمصالحهم الخاصة. لا بد من ألا أخفي شيئًا بعد الآن. كان عليّ أن أمسك بظلاي بجانب ضوئي وأنا أتعامل مع العالم بدلًا من أن أؤدي ذلك فقط بنوري. يجب أن أعترف، «نعم، أنا غير متأكدة من نظرتي، ولكن هذه بالنسبة لي هي المعالجة الوحيدة التي عرفتها، وليست صناعة إعلاناتٍ للتلاعب. عليّ أن أعترف أنني نعم غاضبة مما يفعله الرجال بالنساء، لكن هذا لا يعني أنني سأعاقب الرجال كما لو أنهم جميعًا يفتقرون للإنسانية. نعم، لقد كسرت قلبي حالة الدمار في العراق، لكنني أرفض الانغماس في الكراهية من أجل الانتقام». أيا كان القبح فينا فإنه لا يجزؤ على التعبير عن نفسه بحرية. إنه يعلم أنه غير مقبول. لكنه يشتهي النور. وفهمًا لذلك، يمكنني أن أفهم أخيرًا هؤلاء الأشخاص الذين اعتبرتهم مضللين، من دوننا، إلى الآخرين، ومن ضمنهم المتطرفين دينيًا والذين كانوا يتصرفون من ظلالهم. وقد علم بعضهم أنهم كانوا كذلك، بينما بعضهم لم يفعل ذلك. أولئك الذين لم يعرفوا ظلوا مرتعدين من ظلالهم وغير راغبين في الاعتراف بأنها فيهم. استعاد آخرون ظلالهم، واستخدموها، وتلاعبوا بظلام الآخرين للحصول على ما يريدون، من السلطة والاهتمام. بينما قلة هم الذين يعرفون كلاً من ظلالهم ونورهم.

وبينما كنت أواجه صعوبة في فقدان صداقتي مع سامي، عاجلت معنى غروري الخفي، فكرت في رامي الحنان. كان رامي أبًا إسرائيليًا قُتل ابنته البالغة من العمر أربعة عشر عامًا على يد فلسطينيين. كانت تستقل حافلة المدينة مع زوج من الأصدقاء لشراء الكتب للمدرسة عندما انفجرت الحافلة. نشأ رامي في القدس كمواطنٍ مخلص في بيت صهيوني. لقد خدم في الجيش الإسرائيلي وكان فخورًا ببلده. لقد رأى نفسه على أنه يدافع عن إسرائيل وعائلته من الفلسطينيين الذين - كما تعلم - كانت لديهم ثقافة وقيم أساسية أدنى. عندما قُتل ابنته، تمزق قلبه. في خضم آلامه، سأل نفسه سؤالاً لم يحدث له من قبل: لماذا يكرهنا الفلسطينيون؟ كانت ابنته مجرد فتاةٍ مراهقة بريئة، بعد كل شيء. لم تكن جنديّة أو حارسة. لم يكن لديها أجنده. لماذا يكرهها الفلسطينيون لدرجة أنهم يقتلون أنفسهم ليأخذوا حياتها؟ لماذا كانوا يقاتلون مع كل ما لديهم، بالحجارة

والقنابل والحياة البشرية؟ لماذا كانوا غاضبين جداً؟ للإجابة على هذه الأسئلة، ذهب إلى غضبه وألمه، إلى حيث عاش «عدوه» الداخلي الخاص به، لمعرفة كيفية التعامل مع مشاعر ومحرك هؤلاء الناس الذين آذوه بأفعالهم بعمق. كان ذلك يعني التساؤل عما تعلمه طوال حياته.

بدأ رامي في التواصل مع الآباء الفلسطينيين الذين فقدوا أطفالهم. انضم إلى دائرة الأهالي، وهي مجموعة من ست عائلات فلسطينية وإسرائيلية من الشكالي الذين فقدوا العائلة بالصراع الذي بدأ بلا نهاية. لقد عبر نقاط التفتيش إلى الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية للتحدث إلى الآباء، بدأ يفهم خسائرهم وغضبهم. سمع رواية لفتاة فلسطينية تبلغ من العمر تسع سنوات أُطلق عليها الرصاص على رأسها من قبل جندي إسرائيلي عندما خرجت من المدرسة أثناء حظر التجوال. فيما طفّل فلسطيني يبلغ من العمر ستة عشر عاماً سُجن لمدة عامين بتهمة التظاهر مع العلم الفلسطيني في الشارع مع عدد من أصدقائه في المدرسة الثانوية خلال حظر التجوال. بينما فقدت أم فلسطينية طفلها عندما لم يكن مسموحاً لها عبور نقطة تفتيش أثناء الولادة. بعد سماع الكثير من القصص عن المظالم الفلسطينية، بدأ رامي برؤية ما لم يعرفه أبداً عن الواقع الذي يعيش فيه الفلسطينيون. فتحت عيناه على «العدو» - الذي كان يكرهه من قبل - في الواقع. لقد كانوا أشخاصاً عاديين مثله هُدمت منازلهم بينما كانت عائلات ممتدة تعيش داخلها؛ كانت قرى بأكملها وبلدات مقطعة بالجدران العملاقة حتى لا يتمكن الناس من مغادرة العمل أو إعالة أنفسهم. بدلاً من كره المعتدين الفلسطينيين مجهولي الهوية والرغبة في قتلهم لقتل ابنته، بدأ رامي بالوقوف إلى جانبهم. لقد جعله العمل معهم هذه الطريقة يحوز سبباً للاستيقاظ في الصباح. وبينما كان رامي يسير نحو الحقيقة، أدرك أنه كإسرائيلي فخور، لقد قام بالفعل بحماية جهله بالفلسطينيين. كانت لديه أسبابه لمحبة بلده، ولكن على مر السنين أصبح الحب والحاجة إلى حمايته جامداً. أصبح موقفه وهويته عقائديين. وتساءل لماذا لم يسأل نفسه هذه الأسئلة عن الفلسطينيين من قبل. عندما لا نرى ظلالنا الخاصة، نتصرف انطلاقاً من تلك الظلال ونلحق حتماً الألم بالآخرين، حتى لو لم تكن هذه نيتنا. يمكننا حتى أن نصبح نحن أنفسنا من الظالمين أو المعتدين. عندما نقول لأنفسنا قصتنا مراراً وتكراراً، ونبررها ونشمل أي شخص لا يشاركها، يمكننا أن نُصلب في هوية لا تسمح بتعقيدات مواقف الحياة الحقيقية. إنه من الأسهل استقطاب وجهات نظرنا، واتخاذ موقف، ومن ثم عدم التراجع عنه. ولكن عندما نرى ظلالنا، يصبح التغيير الحقيقي والتواصل الحقيقي ممكناً. إن السماح لأنفسنا بطرح الأسئلة يبدأ بخرق جدران المعارضة والكرهية. نرفع أغطية صناديقنا المغلقة ونتجرأ على النظر إلى الداخل. هكذا نتغلب على الخوف والكرهية وحتى القسوة التي قد تكون مخبأة في داخلنا.

عندما رأيت كيف عاش التكبر في أعماق نفسي، أصبحت أكثر فضولية حول كيف يمكنني تحمل المسؤولية الكاملة عن هذا الظل في داخلي. كيف يمكنني التواصل بصدق مع أولئك الذين لا أنفق معهم على قيمهم؟ ظللت أسأل، كيف يمكنني التعاطف مع الناس من حولي، الذين رأيتهم كـ «آخرين»؟ كيف يمكنني رؤية الأشياء من وجهات نظرهم؟ فكرة البحث عن أرضية مشتركة لم ترضني. لا توجد أرضية مشتركة بين أولئك الذين يعتقدون أن المثلية الجنسية هي خطيئة وأولئك الذين لا يفعلون ذلك؛ أو بين أولئك الذين يعتقدون أنه من المقبول أن يقتلوا من أجل السلطة وأولئك الذين لا يفعلون ذلك؛ أو بين الرجال الذين يعتقدون أن من حقهم انتزاع النساء مهما أرادوا ومن يعتقد أنه لا يوجد مثل هذا الحق. لكنني كنت أشعر بالفضول لمعرفة كيف يرى الطرف الآخر العالم بطرق لم أفعلها من ذي قبل. لقد رأيت أن هذا الفهم كان الخطوة الأولى في تعلم كيفية التفاعل بطريقة مختلفة. بصفتي ناشطة في مجال حقوق المرأة، تأثرت لفترة طويلة بغضبي على الرجال والظلم الذي أحقوه بالنساء. كان لدي الكثير من الأسباب التي تجعلني

غاضبة على العنف الذي تتعرض له المرأة في الحرب والسلام، وفي حالات الاغتصاب الجماعي، والتمييز، وتهميش أصوات النساء، والقوانين الاجتماعية التي تتطلب صمت النساء. يحدث سوء استخدام النساء والفتيات في جميع أنحاء العالم، في أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط وآسيا وأميركا الشمالية والجنوبية - في كل مكان - وغالبية هذا الاعتداء والعنف والإهمال تأتي من الرجال. اخترت العمل في أجزاء من العالم حيث كان هذا العنف أكثر وضوحًا في مناطق الحرب، حيث العنف ضد النساء ليس دقيقًا. إنه واضح مثل ضوء الشمس. كان غضبي من الرجال واضحًا تمامًا مثل ضوء الشمس أيضًا. لقد كان هذا الغضب في بعض الأحيان ينصبّ إلى الطريقة التي عاملت بها الرجال من حولي، حتى أولئك الذين أحبهم كثيرًا، مثل أصدقائي وأخوتي وأبي. كنت أشعر أن الفقاعة قد تصاعدت كلما أوردت تعليقات مبسطة عن قضايا المرأة أو ضحكت على نكتة جنسية. لم يكن ليعجبهم فيلم ذو شخصية نسائية مظلومة، أو ربما يتعاطفون مع رجل يقتل زوجته، أو شعور أن امرأة قد خطأتهم. حتى في هذه الأوقات، شعرت وكأنني سلبية ضد الرجال بسبب قمعهم للمرأة. لم أستطع التوفيق بين غضبي وحبّي للرجال الأقرب إليّ. لقد حملت هذا الصراع في داخلي لسنوات عديدة، غير قادرة على الاعتراف به حتى في نفسي. كان غضبي مبررًا بسهولة، وكان الدفاع لي للعمل بجدي، لكن ومع مرور الوقت، بدأ أيضًا ينفصل عني الجانب الآخر من القضية، أي قصص الرجال الحقيقية. كنت قد حصلت على مكان أريد فيه معاينة الرجال وحسب؛ لم أكن مهتمة على الإطلاق بإنسانيتهم. ولكن بعد فترة، كان لي لقاء قادمي إلى تحقيق مدهش لأفكاري مثل مرآة الحقيقة. في غضبي من الرجال، كنت أجازف بأن أصبح الشيء الذي احتقرته: أي الظالم. كنت أقاتل بشدة ضد الصور النمطية للنساء كضحايا فقط من دون أصواتٍ للتحدث إلى القوى التي أساءت إليهن، رأيت جميع الرجال مجرد معتدين دومًا يسيئون إليهن. لم أتوقف أبدًا عن التفكير في إمكانية أن يكون هذا الإنسان يعاني أيضًا، وأنه ربما يريد التكفير عن تجاوزاته، وأكثر من ذلك، أنه يمكن أن يكون حليفًا بالفعل. جاء هذا الإدراك بينما كنت أعمل في مخيم للنازحين في أفغانستان، بعد فترة وجيزة من وصول الولايات المتحدة والمجتمع الدولي، بعد 11 أيلول 2001 بفترة قصيرة. مثل العديد من المخيمات، كان مشهدًا واسعًا من الخيام، حيث كان الأطفال يلعبون في الطرق المؤقتة وتحفف الملابس على الحبال التي تتسرب عبر الموقع. لقد كان (هذا المخيم) على بعد أميال وأميال من الفوضى المنظمة على نحو خفيف في وسط الصحراء، من خيمة إلى خيمة، من شخص إلى آخر، من قصة إلى قصة. كنت واقفة مع زميلة أفغانية من منظمة النساء من أجل النساء الدولية، حيث أنهينا بضع ساعاتٍ من إجراء مقابلات مع النساء لمعرفة ما هي الخدمات الإضافية التي يمكننا تقديمها لمساعدتهنّ. هذا عندما رأيت رجلين أفغانيين في المكان يسيران ببطء نحونا. استطعت فقط أن أرى لحيتهما الطويلتين وملابسهم التقليدية. في رأيي، هذا كان يعني أنهم طالبان. خفت وأردت المغادرة فورًا. شعرت أنهما يسيران نحونا لا يذائنا أو قتلنا أو خطفنا. فكان من الواضح أنّي امرأة أجنبية في بحرٍ من الأفغان. محاولاتي للاندماج مع الموجودين لا يمكن أن تخفيني بالكامل. «دعينا ندخل السيارة ونخرج من هنا بأسرع ما يمكن»، همست إلى زميلتي سويتا. «هؤلاء الرجال هنا لقتلنا». «لا يمكننا ذلك»، أجابت، ممسكة يدي بإحكام. «يجب علينا البقاء. إذا غادرنا، سنجعل الناس يشكون فينا ولن تتمكن أبدًا من دخول المعسكر لمساعدة أولئك النسوة مرة أخرى. يجب أن نلتقي بهذين الرجلين ونفهم ما يريدان منا». استطعت أن أرى وجهة نظرها، وعلى الرغم من خوفي، بقيت واقفة. لقد وثقت في حكمها، لكنها شعرت بمخاطرة كبيرة. كنا نضع حياتنا على المحك دون معرفة ما إذا كنا نتخذ القرار الصحيح. جف حلقي واهترت يدي. كان الرجلان يسيران ويمشيان نحونا، ويزداد تركيزهما كلما اقتربوا. كان الهدوء مخمورًا ومذهلًا. مع كل خطوة أخذها نحونا، ضرب قلبي بشكل أسرع. ثم وصلنا. حاربت رغبتني في الجري ولكنني فوجئت

برغبتهم لمصافحة يدي. «نحن نريد أن نشكرك على مساعدة زوجاتنا»، قال الرجل الأكبر سنًا ببطءٍ وتعمدٍ: «هذا البرنامج الذي تقدمينه يجعل زوجاتنا سعداء، ويساعد عائلاتنا، لهذا نحن ممتنون لك». ضربتني كلمات الرجل مثل ضربة في المعدة. أخذت أيديهم وصافحتها. ابتسمت وتحدثت معهما، لكنني كنت أحاول أيضًا إخفاء صدمتي. كان مظهرهما الأفغاني التقليدي هو الذي جعلني أعتقد أنهما من طالبان، نفس القبعات والسراويل والسترات واللحى. لم يكونا لا ينتميان إلى طالبان فقط، بل كانا ضحايا لطالبان ذاتها! هؤلاء الرجال وعائلاتهم تعرضوا للترهيب والتشريد من قبل الأصوليين لسنوات. لقد كانت ملابس هؤلاء الرجال مجرد انعكاسٍ لتلك المنطقة في أفغانستان، وليست تعبيرًا عن موقفهم السياسي.

في تلك اللحظة التقطت التحامل الخاص بي. فإذ قضيت كل حياتي لمحو الصور النمطية على النساء، في هذه اللحظة كنت أنا الظالمة بنظرتي النمطية لهؤلاء الرجال، قضيت عمرًا من أجل أن يرى العالم النساء الناجيات من الحرب كإنسانٍ كامل وليس مجرد ضحايا. وأردت أن يرى العالم ما وراء تلك الصورة المجمدة لمعاناة المرأة، وأن يستمع العالم بدلًا من ذلك إلى أصوات النسوة وآرائهن، وأن يدعهن يسهمن في بناء السلام. كنت أعرف خطر القوالب النمطية. لكن في تلك اللحظة، افترضت أن هذين الرجلين كانا معتدين، قاتلين، مغتصبين، بناءً على مظهرهما ومخاوفهما.

بدلاً من ذلك، كان هذان الرجلان لطيفين وودودين وراعيين. تحدثنا عن مخاوفهما تجاه النساء وأخبرانا عن المصاعب التي مروا بها. عندما قالوا كم كانا يشعران بالامتنان لأنهما سعيدان كزوجين برؤية منظمتهما تساعد زوجتيهما، شعرت بثقل في صدري: ما هي الشجاعة التي بذلها هذان الرجلان ليشكرا مجموعة من النساء على تقديم شيء لا يقدران عليه وقد جردا من وسائل إعالة أسرتهما. لقد كانا مخلصين من قبل رجال آخرين أكثر قوةً منهما. لم يكن لدي حتى الشجاعة لانتظار سماع ما يقولانه.

هذه التجربة جعلتني أدرك أنني بحاجة إلى التواصل مع الرجال في مناطق الحرب التي كنت أعمل فيها وأحاول سماعهم، أحاول فهم ما يدور داخل رؤوسهم وقلوبهم، حتى عندما كانوا عنيفين. إذا كنت أرغب في وقف العنف ضد المرأة، فقد كنت بحاجة إلى التحدث إلى الرجال وإشراكهم في هذه العملية. للقيام بذلك، كنت بحاجة لتغيير وجهة نظري من الغضب إلى السماع والاستطلاع. كان يجب أن يحدث هذا التحول في قلبي، ليس فقط في كلماتي. وإلا، سأستمر في التغاضي عن الرجال الطيبين، والرجال اللطفاء، وآلامهم وتعقيداتهم.

إن رغبتني الجديدة في فهم وجهات نظر الرجال لم تضعف التزامي بحقوق المرأة وحريتها، وبالتأكيد لم تكن تعني نسيان الماضي والسماح باستمرار العنف الذي يمارسه الرجال ضد النساء. لكنها أرغمتني على النظر إلى عملي بطريقةٍ مختلفة. كنت أقل تقبلاً، جامدةً، حادةً، وثابتةً في أفكارتي. وجدت أنني تمكنت من فتح قلبي والاستماع إلى قصص أي شخصٍ مستعدٍ للتحدث معي، بما في ذلك أسوأهم، المعتصبون والقوادون والقتلة.

عندما بدأت التحدث إلى الرجال واستمعت بعناية إلى ما كانوا يمرون به، رأيت ذلك، تمامًا مثل النساء اللواتي عملت معهن، لم يُسمح لهم بالخروج عن النص الذي أعطاه لهم المجتمع. وكثيرًا ما كانت الناجيات من الحرب لا يلاحظن بشكل كامل من قبل المجتمع أو المجتمع الإنساني الذي كان هناك لمساعدتهن. لقد توقفت عن امتلاك هوياتهن الخاصة أو القدرة على صياغة مستقبلهن الخاص. وكان دورهن الأساسي هو

المعاناة، والبكاء، وتنظيف الدمار بصمت. بينما الرجال، من جانبهم الخاص، لم يسمح لهم سوى أن يكونوا أقوياء وأحياناً عنيفين. لم يتحدث إليهم أحد عن ألمهم وخسارتهم. كانوا يتوقعون ببساطة ابتلاعها. كان من المفترض أن يعملوا، وأن يجدوا الطعام، ويقتلوا ويهجروا، لكنهم تركوا في ثقب أسود عاطفي.

لقد كان هنالك رجل بوسني من سراييفو فتح عيني على تنوع تجارب ومشاعر الرجال. بدأت بحاجتي البسيطة للحصول على تدليك عندما كنت أعمل في أعقاب سراييفو التي مزقتها الحرب. زميلتي أوصت بشخص اسمه نُصرت، رجل طويل القامة وجسيم للغاية. إذ كان جسمه كبيراً، حتى أنه كان مخيفاً، بينما كانت ملامح وجهه لينة وبشوشة. كانت لديه عينان دافقتان، وابتسامة لطيفة للغاية، وشعر موج بالبيض والاسود يسقط على كتفيه. حدث التدليك في صمت في الاستوديو الخاص به. بعد ذلك، عرض أن يقلني إلى فندقتي، حيث كان يسير بالفعل في هذا الاتجاه. دخلنا سيارة رينو حمراء قديمة، وهي سيارة كان من الواضح أنها نجت كثيراً خلال الحرب. كانت سيارة صغيرة وتتسع فقط رجلاً بحجم نصرت. لم يكن هناك حتى شبر واحد بالنسبة له للتحرك. خلال الرحلة، سألته عن حياته، وما فعله قبل الحرب، وإذا ما كان في سراييفو خلال الحرب. أجاب نصرت: «كنت، وكان وقتاً عصيباً للغاية بالنسبة لي». وافترضت على الفور أنه كان يتحدث عن حصار سراييفو، البرد والجوع الرهيبان اللذان عانى منهما الناس، لذا علقت على ذلك. لكنه صحح لي. «نعم، كانت كل هذه الأمور صعبة للغاية، ولكن ما كان أصعب هو أنني لم أستطع القتال. كنا محاطين بالقناصة الذين كانوا يطلقون النار علينا مثل الحيوانات في أقفاص. حاولنا نحن رجال ونساء البوسنة فعل كل شيء للدفاع عن أنفسنا. لقد صنعنا أسلحة من لوازم المطبخ، وحفرنا أنفاقاً تحت الأرض بالشوك والمجارف، وتطوع العديد من الرجال للقتال بأي أسلحة كانت لدينا. لكن لم أستطع. لقد حصلت على مدفع رشاش، تدرت على كيفية استخدامه، جلست خلفه وإصبعي على الزناد، لكنني لم أستطع إطلاق النار. لم أستطع قتل أي إنسان، حتى ولو كان ذلك دفاعاً عن النفس». «وهذا أمر مفهوم تماماً. أعلم أنني لا أستطيع أن أقتل أيًا منهم»، قمت بالإجابة. «ليس عندما تكونين رجلاً. ضحك رجال آخرون عليّ. سخروا مني لعدم قدرتي على القتل، لمشاعري، لرفض المدفع الرشاش. كلفوني بالطبخ، وهو ما فعلته عن طيب خاطر، لكنني لم أتمكن من النظر في عيونهم أبداً. لقد كنت مجالاً لسخريتهم». لم يكن نصرت يهتم بأنه لا يستطيع أن يقتل. تعرض للظلم والإهانة من قبل مواطنيه. كان ألمه بسبب السخرية. عندما وصلنا إلى الفندق، شكرت نصرت ليس فقط على التدليك الرائع ولكن أيضاً على القصة التي رواها لي. إن سماع قصته وفهم ألمه يساعدان في شفاء قلبي. لم أكن لأعرف أبداً أن الرجال يحملون هذا النوع من الألم. كنت أشاهد مباشرة أن الرجال ليسوا جميعهم متشابهين، إذ لديهم مشاعر ونوايا مختلفة، ولكنني كنت أجمعهم معاً.

بعد فترة ليست بطويلة، سمعت قصة ساعدتني أن أنظر إلى الرجل المغتصب بنظرة جديدة لي. كنت في بغداد، أعمل في مكتب النساء من أجل النساء الدولية. سمعنا بفتاة في السادسة عشر من عمرها كانت قد اختطفت واغتصبت عندما انهارت قوات الأمن بعد فترة وجيزة من الغزو الأميركي وظهرت الميليشيات لحكم الشوارع. فاغتصاب النساء هو جزء من استراتيجية الميليشيات في العراق، وفي كل منطقة حرب، هذه إحدى الطرق التي سيطروا فيها على الناس ويضعفوا معنوياتهم وعبروا بها عن سطوتهم.

ذهبت برفقة زميلاتي إلى منزل هذه الشابة للتحدث إليها لمعرفة كيف يمكننا المساعدة. بكت بينما وصفت كيف جاء الرجال في منتصف الليل وجروها وأختها من فراشها، حيث كانتا نائمتين مع أمهما. في

مخبئهم، ناقش الخاطفون السعر الذي يمكن أن يحصلوا عليه إذا قاموا ببيع الفتاتين كعذراوين أو إذا اغتصبوهما أولاً.

«الرجل الكبير، الذي بدا أنه قائد المجموعة، قرر أنه يريد اغتصابي. فجرني إلى الغرفة الأخرى، وأجبرني على الاستلقاء على أريكة، بدأ بفك سرواله وهو فوقي، بكيت وتوسلت: «أرجوك، أرجوك لا تغتصبني. أليس لديك قلب؟» في تلك اللحظة نظر إلى عيني مباشرة وقال: «قلبي مات منذ وقت طويل. ثم اغتصبني»، هكذا همست.

بكيت لهذه الفتاة وللرعب والألم الذي عانت منه. لكن هذه المرة بكيت للمعتدي أيضاً. أدركت فجأة أنه حتى المعتصب الوحشي يمكن أن يكون في وضع أكثر خطورة من ضحيته. كان محبوساً في الظلام، غير قادرٍ على التغيير. أصيبت الفتاة، ولا شك، ولكن روحها كانت سليمة، وبالمساعدة، كنت أعرف أنها ستستطيع إعادة بناء قوتها الداخلية بعد تقديم يد العون والمساعدة. إلا أن الرجل الذي اغتصبها فقد روحه، وهذه الخسارة ليس لها أي إصلاح. لهذا، كنت أتعاطف. شعرت بالحزن لما لم يستطع العودة إليه، إنسانيته. فعندما يستهلك أحدنا بهذه القسوة القبيحة، فبالواقع كلنا نتأذى بخسارة كبيرة..

قد يكون من الصعب جداً سماع الطرف الآخر، لكنني أدركت أنه إذا أردنا تحقيق تحول جذري، لا يمكننا تجاهل قصص الرجال. واصلت بمقابلة الرجال من مقاتلين إلى جلادين، كلما أخبروني بالأشياء المروعة التي قاموا بها، كان قلبي يتسارع. ولكن ظلمت أرغب في فهم ما كانوا يحاولون الحصول عليه، ما الذي دفعهم، ما جعلهم يخافون، وماذا كانوا يحتجزون في قلوبهم. إذا ما أردت تعزيز الشفاء الحقيقي لدي، كان عليّ أن أساعد في خلق ثقافة جديدة، بحيث يمكن للرجل أن يجد هويته الخاصة وبحيث لا يكرر الابن جرائم والده بشكل أعمى. اضطررت لإظهار التعاطف للابن ووالده، ليس من باب العمى والنسيان، ولكن من خلال فهم الأنماط التي تقود الأفراد إلى التصرف بالطريقة التي يتصرفون بها.

كان من الصعب -الموازنة بين إيماني بأنه يجب معاقبة المجرم على جريمته وفي الوقت نفسه، يمكن التعاطف معه حتى يجد سبيلاً للعودة إلى المجتمع. لم يكن من السهل جمع هذه القيم في داخلي. ومع ذلك، لم أعد قادرة على مواصلة القتال من أجل حقوق المرأة من مكان الغضب ذاته. عندما دفعني الغضب، أصبحت الطاغية التي كنت أحاول محاربتها. فالغضب مهم لإشعال النار لمحاربة الظلم، ولكن لا يجوز أن يكون الوقود الذي يساعد على استمرار الحريق. غضبي وحده لم يكن كافياً لمحاربة الظلم، فبحد ذاته، يمكن للغضب أن يؤدي إلى سلوك رجعي، ولترسيخ المزيد من الجرائم؛ يمكن أن ينتهي الأمر بإحراق كل شيء، حتى ما نحارب من أجله.

ولذلك، قررت أن الوقت قد حان للبدء في الإظهار للرجال، بلغة يفهمونها، لماذا كانت أصوات وحقوق المرأة مهمة للغاية، ليس فقط للنساء ولكن بالنسبة لهم أيضاً. بدأت بالتعاون مع القادة الدينين والمليشيات في البلدان التي شهدت معدلات عالية من العنف ضد المرأة، مثل جمهورية الكونغو الديمقراطية وأفغانستان، وبدأت أتحدث مع الرجال لفهم وجهة نظرهم وتفكيرهم. أتذكر لقاءً مع مجموعة في رواندا. تجتمع حوالي خمسة عشر رجلاً جلسوا سوية على الأرض، يرددشون حول الزراعة والطقس وأشياء أخرى.

سألتهم: «قل لي، لماذا يضرب بعض الرجال زوجاتهم؟» في البداية ضحك الرجال وتحولوا بشكل غير مريح.

«أنا أسأل لأنني حقاً أريد أن أفهم وجهات نظر الرجال»، قلت. ضحك الرجال مرة أخرى.

ومع تضاؤل الضحك في صمت تحدث أحد الشباب: «هناك أيام لا أستطيع فيها العثور على عمل. في هذه الأيام آتي إلى البيت فارغاً. ليس لدي نقودٌ لشراء الطعام للعائلة. عندما أسمع زوجتي تقول، «إن الأطفال جائعون»، تزعجني لأنني لست أباً صالحاً. وبهذا أبدأ بضررها».

من البسيط أن نقول إن وراء العنف الأسري عارٌ، مثل هذا الذي لدى الرجل الرواندي. ولكن ربما يكون وراء العنف المنزلي الألم، وإذا كان هدفنا هو وقف العنف، فعلينا أن نسأل كيف يمكننا التعامل مع هذا النوع من الألم بشكل مختلف. ربما كنت أفكر، لقد كنت مدفوعة بالأسباب الأخلاقية لوقف العنف ضد المرأة، خاصةً أثناء الحروب، لدرجة أنني أغفلت ما الذي يدفع الرجال لذلك. في الحرب، العيش في فقرٍ مدقع قد يؤدي إلى أن تتغير أخلاق الناس. ماذا لو عرضت على الرجال أسباباً عملية ونافعة لتغيير سلوكهم، بدلاً من التركيز فقط على الدوافع الأخلاقية؟ إذا كان هدفي هو العثور على طرقٍ لوقف إساءة معاملة النساء التي كنت أعمل معها على الفور، فربما أحتاج إلى نهج مختلف.

لقد عملت مع فريقتي على تطوير برنامج تدريبي للرجال يُظهر كيف يمكن أن يكونوا قادة أفضل، وأن يحققوا المزيد من النجاح، وأن يعيشوا حياة أكثر صحةً عندما يوقفون عنفهم. فقد أظهرت الخسائر والمكاسب المحتملة لسلوكهم بمصطلحاتٍ منطقيةٍ بالنسبة لهم. بعد مرور عام على إحدى هذه التدريبات، جلس زعيمٌ متمردٌ في جمهورية الكونغو الديمقراطية أمامي مرتدياً زيَّ العسكري وسلاحه إلى جانبه، وقال: «قبل أن آخذ هذا البرنامج، في كل مرة هجمت على منزل رجلٍ ببنديتي ورأيت بأنه لم يكن لديه بندقية، كنت أغتصب زوجته. لم أفكر أبداً مرتين قبل فعل هذا. إلى أن دخلت في هذا البرنامج واكتشفت أنني إذا استمر هذا التصرف، قد أصاب بفيروس نقص المناعة المكتسبة أو السيدا، وأنقل العدوى لجميع أفراد عائلتي، وأخسرهم للموت. ويمكن أن أفقد جنودي أيضاً بفيروس نقص المناعة البشرية. لذا توقفت عن الاغتصاب لأنني لا أريد أن أموت ولا أن أفقد رفاقي وعائلتي. لقد أدى ذلك إلى قضاء المزيد من الوقت مع زوجتي. ومع مرور الوقت، تحسنت علاقتنا، التي كانت سيئة من قبل. بدأنا نثق في بعضنا البعض وبعد مرور الوقت بدأنا بحفظ أموالنا معاً. وهكذا اشترينا منزلاً أفضل، وحصلنا على حياة أفضل. والآن، أقضي وقت فراغي في التحدث إلى الجنود وأخبرهم بأنهم يستطيعون تحسين حياتهم إذا توقفوا عن الاغتصاب وقضاء المزيد من الوقت مع زوجاتهم».

لقد اكتنف قلبي الخوف عندما استمعت إلى قصة هذا الرجل. كنت أخشى من أحدىته العسكرية وملابسه وبنادقه. كان وجوده مخيفاً وغير آمن. لكنه كان بالفعل يساعد على وقف العنف الفوري ضد النساء في منطقته. ما زلت أعتقد أنه يجب تقديمه للمحاكمة ومعاقبته بسبب عنفه السابق. ولكن حتى ذلك الحين، كان لتغيير سلوكه وموقفه تأثيرٌ على الإيقاف الفوري للعنف ضد المرأة. وكانت تلك أولويتي للنساء اللواتي كنت أخدمهن.

إن التغييرات التي كنت أأمل بحدوثها حصلت. بدايةً، صدرت عن الاهتمام الذاتي للرجال. ولكن في وقت لاحق، عندما أمضى الرجال مزيداً من الوقت مع عائلاتهم، وعاشوا حياة أفضل، وحازوا المزيد من

المال، والسلام، والنجاح، حدثت التغييرات في قيادتهم الخاصة. تساءلت، ماذا لو كان خلف كل هذه المخاوف رغبة بسيطة بقبولها؟ ماذا لو كان هناك طريق لهذا القبول من خلال الحب بدلاً من الخوف؟

بعد تفكير عميق، استطعت أن أرى أنه ما قادمي كان الخوف أكثر من كونه الحب خلال العشاء مع دونا وسامي. وبما أن هذه الصداقة قد توترت، لم يكن من المحتمل أن أحصل على فرصة أخرى للتحدث إليهما أو إعادة محادثتنا، بقدر ما قد تأخر قلبي عن ذلك. ولكن كان لدي الكثير من الفرص للتحدث إلى الناس ذوي قيم مختلفة في بقية حياتي. بعد قليل من تلك الرحلة، دُعيت إلى عشاءٍ خاصٍ صغيرٍ في منطقة ثرية في كونيتيكت. في حفل العشاء هذا، كنت جالسةً مع امرأةٍ محافظةٍ سياسياً للغاية، كان ابنها يعمل محلياً كرئيسٍ لطاقم أحد النزلاء. وجاءت لزيارته من ولاية واشنطن. وكان من الواضح من ملابسها أنها كانت من خلفية متواضعة، وليست مثل بقية المدعوين في هذا العشاء الراقى.

تحول الحديث إلى النقاش المطروح آنذاك عن المسلمين في أميركا وما إذا كانوا يشكلون تهديداً للولايات المتحدة، كما كان يجادل بعض السياسيين. كانت القضية تهيمن على الأخبار في تلك اللحظة. معظم الناس في العشاء، كانوا ميالين للحركة اليسارية وضحكوا حول مدى سخرية ذلك التفكير للسياسيين الجمهوريين المحافظين. ولكنني لاحظت أن سالي لم تقل أي شيء. وبدأت في الانخراط معها. كنت قد أجريت للتو مقابلاتٍ مع أشخاص في ولاية مينيسوتا حول مخاوفهم من أن المزيد من المهاجرين المسلمين سوف يجلبون الأساليب القمعية لأميركا.

في البداية، كمسلمة بنفسي، وجدت أن هذه الآراء مسيئة للغاية. وقد تم بناؤها على الصور النمطية المؤذية. من المستحيل إطلاق تعميم حول مجموعة كاملة من الناس. لكنني أدركت أنني يجب أن أستمع بتفاهم وتعاطف، إذا أردت أن يتم الاستماع إلى وجهة نظري الخاصة. أخبرت سالي عن مقابلاتي وما اكتشفت من مخاوف الناس، سألتها: «هل هذه المخاوف معروفة لك أيضاً؟ سالي؟».

أومأت بالموافقة. توقفت وأخذت نفساً عميقاً. «أنا أعلم، الأخبار دائماً تعطينا أسباباً للخوف من المسلمين»، قلت: «أخبريني ما الذي يجعلك خائفة؟» لم يكن لدي أي فكرة عما إذا كانت سالي تعلم أنني مسلمة، وأصلي من العراق. الشيء الذي ربطنا في هذا الحشد، أنها هي أيضاً ليست من أغنياء المدعوين ومشاهيرهم، مثلي مثل سالي.

أخبرتني أنها كانت خائفة من أن المسلمين سيحضرون الشريعة إلى أميركا، وأنهم سيضطهدون زوجاتهم وأخواتهم وبناتهم، وأنهم قد يفرضون نفس القمع على المرأة الأميركية. وبدلاً من أن أتحمّل مشاعر الإحباط والغضب في تلك اللحظة، اكتشفت ما هي مخاوفها التي يمكن أن أتواصل معها وتحدثت معها.

قلت: «أنت تخشين من قدوم المزيد من المسلمين إلى هنا»، بنبرة محايدة «وأنهم سيغيرون مجتمعك».

قالت نعم، فقد كانت بلدتها ريفية صغيرة، معظمها من البيض، ومعظمها من الجمهوريين. لم ترغب في أن تتعرض القيم الأميركية في الحرية والديمقراطية للتهديد من قبل المتعصبين. كان من الصعب أن أسمع رأيها، لأنني أعرف أن العديد من المسلمين قد جاءوا إلى أميركا هرباً من الاضطهاد الديكتاتوري، والأنظمة الاستبدادية، والحرب، والأصوليين، واعتزوا بالفرصة التي مُنحت لهم للعيش بأمان وسلام مع ذلك،

فهمت مخاوف سالي. بعد كل شيء، وقعت بعض الهجمات العنيفة باسم الإسلام في أميركا، ولشخص لا يعرف المسلمين ولا معنى الإسلام، يمكنه أن يعمم على كل المسلمين بطريقته السلبية.

كان لفهمي تأثير فوري على سالي، عندما عرفت أنني لن أغلق الحوار، استرخت. وعندما شعرت أنني سمعتها وفهمتها، خفضت من دفاعاتها وارتباطها بأرائها. كان بوسعها أن تسمعني بطرق لم تكن لتستمع من خلالها على الأرجح لو كنت قد انفعلت وهاجمت. لقد أدركت أن عبارة «أنا أسمعك»، لا تعني «أنا موافقة».

قلت لها: «أنا مسلمة، وأستطيع أن أقول لك إن الشريعة ليست دستوراً؛ بل ليست حتى في كتاب. إنها تفسيرٌ للدين الذي يتغير من بلد إلى آخر ومن وقت إلى آخر. صحيحٌ أن بعض الأصوليين يستخدمونها لمصلحتهم الخاصة، لكن دورها بسيط في حياة الكثير من المسلمين. بالتأكيد ليس في حياتي ولا في حياة الملايين من المسلمين في أميركا».

كانت سالي تستمع. أخبرتها أن النساء اللواتي يرتدين الحجاب لا يقمن بذلك بالضرورة لأن عائلاتهن تجبرهن على ذلك. بعض النساء المسلمات المولودات في الولايات المتحدة يرتدينه كوسيلة للاحتجاج على الصور النمطية لهن. إنهن يشرن إلى أمنهن ينبغي قبولهن كمسلمات وكأميركيات. أخريات، مثلي، لا يرتدين غطاء الرأس ولا يؤمن به. «أنا امرأة مسلمة، وأنا لست مقموعة». قلت ذلك مع ابتسامة.

الآن، بدأت سالي بطرح الأسئلة حول المسلمين التي كانت تتساءل عنها دائماً. ما هو إيمانهم بالله؟ هل كان الإسلام ديناً عنيفاً أم سلمياً؟ لماذا قام الإسلام؟ في وقت آخر من حياتي كنت سأستجيب بعدائية وإحباط. ولكن في هذه الليلة أجبت على أسئلته المطروحة بحب واحترام.

«أنت تعرفين، يا سالي، إن المسلمين الأميركيين يخافون أيضاً من الأميركيين الآخرين الذين يهاجمونهم ويقولون إن عليهم العودة إلى بلادهم. بالنسبة للمهاجرين من أمثالي، هذا البلد هو الملجأ. عندما يدرك الآخرون أننا مسلمون، نخشى أن نتعرض للهجوم». قالت سالي: «أنت على حق تماماً»، «كلنا نغذي فقط مخاوف بعضنا البعض!» حديثنا هذا، الذي كان يمكن له أن ينفجر إلى حجة ساخنة مع الكثير من توجيه أصابع الاتهام، تماماً مثل محادثتي مع دونا، أصبح حواراً. أصبحنا شخصين يتقاسمان مخاوفهما ويتقاسمان تعقيدات العواطف بدلاً من اتخاذ موقفٍ صعبٍ من مواقفنا الثابتة.

ومع اقتراب حديثنا من نهايته، قالت: «أقدر حقاً أنك لم تتهميني بالعنصرية والتحيز. لقد سمحت لي بالتصدي لقضيتي بنفسي شكراً لك». لقد تأثرت بمحادثتنا هذه، وأعربت عن تقديري لانفتاح سالي وكرمها. لقد بنينا جسراً. إن حمل سيفنا الصادق يعني أننا لا نتحدث فقط عن قيمنا الحقيقية بل نتحدث عن نقاط ضعفنا الحقيقية أيضاً. فالروابط بيننا هي نقاط الضعف هذه، والتي تتجاوز مواقفنا السياسية أو الدينية أو الثقافية. كنت أنا وسالي متناقضتين سياسياً، لكننا وجدنا طريقة للتواصل. لم يكن الرجال الذين قابلتهم في مناطق الحرب جميعهم وحوشاً، ولم أكن أنا نفسي جيدة في كل شيء. مع هذا الوعي، يمكن أن أرى بوضوح أنه إذا واصلنا فقط توجيه أصابعنا إلى بعضنا البعض، فإننا نكون في خطر أن نغفل عن أنفسنا كبشر، كبشر طبيين يؤمنون أساساً بعمل الخير وإظهار المحبة والطيبة في حياتنا اليومية، بغض النظر عن مكان وجودنا في الطيف السياسي.

ماذا لو كانت هناك طريقة أخرى للمشاركة تتمثل بأن نكون صادقين بمشاعرنا إلى حد كبير، وبأن نكون مخلصين لتلك القيم؟ هل يمكننا تحويل مواقفنا الثابتة إلى هويات مرنة؟ هل يمكن أن نكون مثل رامى، الأب الإسرائيلي، ونعترف كيف يمكن لآرائنا المتأصلة أن تؤذي الآخرين بدون علمهم؟ ألا نستطيع أن نقف وراء خوفنا وانعدام أمننا حتى نصبح عنيفين وقمعيين نحن أنفسنا؟ هل علينا أن ننتظر خسارة فظيعة لنرى كيف تساهم مواقفنا وتصرفاتنا في تدمير ما نحبه؟

دعنا نقول الحقيقة الكاملة بمقياس إنساني، وعلى نطاق شخصي، بدلاً من أن نصرخ آرائنا بمواقفنا من هوياتنا المعتدة بنفسها. إذا كان هناك من يعارض الإجهاض في سياسته، فهل سيرفض دعم أخته عندما يصبح من الخطير بالنسبة لها أن تقوم بالحمل لفترة كاملة؟ ماذا لو كان حملها نتيجة للاغتصاب؟ هل سيحافظ على رايه المتشدد ضد الإجهاض إذن؟ عندما نرى تعقيدات ظروف الحياة الحقيقية، هل سنختار التعاطف أم أننا سنلتزم بشدة بخط حزبنا؟

ماذا لو أن المرأة التي تتهم رئيسها بالتحرش تعكس أيضاً كيف تعاملت معه كطريقة للارتقاء في الشركة؟ نعم، لقد أساء الرجال تقليدياً استخدام سلطتهم. نعم، لقد قام الرجال بالاعتراض على النساء والاعتداء عليهن بدلاً من رؤيتهن كبشر كاملين. لكن كمنساء، هل لجأنا إلى فنون الإغراء القديمة للحصول على ما كنا نريده عندما لم نعامل على قدم المساواة؟ يجب أن نسأل: أين بعنا أنفسنا؟ هذه هي ظلالنا.

إذا لم نشاهد هذا الظل ونتحمل مسؤولية كيفية حدوثه في أعمالنا وقراراتنا، فنحن في عرضة لخطر إساءة استخدام قوتنا الفردية. في الوقت نفسه، نحن نقوض شرعية مظالمنا.

هكذا يمكننا أن نطالب بسيفنا من الحقيقة، ليس بالصرح الأخلاقي، بل بإظهار مواطن ضعفنا ومخاوفنا، وفي تناقضاتنا أيضاً. الحقيقة الأكمل هي أننا نشعر بالغضب من مرتكب الجريمة بسبب إساءة معاملتنا ومن أنفسنا بسماحنا بالاعتداء. الحقيقة الأكمل هي أن الحياة معقدة، والمواقف ليست هي العواطف. كلنا نشعر بالألم عندما نفتقد الحب. كلنا نخشى التغيير.

إن المجهول يجعلنا عصبيين. لا أحد يريد أن يتعرض للتحرش أو الإساءة أو المضايقة. ونحن نشعر بالحرج عندما نسمح لأنفسنا بأن نُشترى أو نُسكت. فنحن نتمتع بالسلطة. ونحن خائفون من الموت. سيف الحقيقة يدور حول إظهار نزاهة الحقيقة الكاملة نفسها، الصالح والسيء والقيح في داخلنا، وليس فقط في العالم.

عندما نتحدث ونقف، ونعترف بظلالنا، سنواجه كل المشاعر التي كبتناها في الداخل: كل الإحراج، والرغبة، وعدم الاستقرار، والغضب، أو أي شيء تم إخفاؤه لفترة طويلة. وبهذا الشيء نحرر أنفسنا، فحينها نملك أنفسنا حقاً. ولن نستطيع أحد السيطرة علينا أو ابتزازنا. نحن ننمو في هذه العملية، ونصبح مثلاً على ما هو ممكن عندما نتحكم في أنفسنا وحيواتنا.

فقط عندما نرى الصورة كاملة بشكل واضح يمكننا أن نتعلم طريقة جديدة لمحاربة الظلام الأكبر في عالمنا. يمكننا أن نتعاطف ليس فقط مع الأشخاص الذين نعرفهم ونفهمهم، ولكن أيضاً مع أولئك الذين لا نتفق معهم. إذا أردنا إيقاف المتنمرين، نحتاج إلى فهم كيف يعيش المتنمر في أنفسنا أيضاً. عندئذ يمكن أن

يكون لدينا حوار جديد ينبع من ثنائية «أنا جيد وأنتم سيئون»، ولكن من خلال الاعتراف بما نحن عليه بشكلٍ كاملٍ.

لقد أدركت أن المتنمرين في العالم هم أنفسهم أقنعة لما هو قبيح في مجتمعاتنا. يأخذون ظلامنا لأننا نرفض القيام بذلك. عندما يكون المشاكس مستعداً فقط للإقرار بما هو قبيح، فهو الشخص الذي يتحكم في الظلال. يمكنه التلاعب بنا، لأننا نحن أنفسنا نرفض مواجهة حقائقنا المظلمة. نفقد السيطرة عليها، ونصبح بلا حيلة، ونوجه أصابعنا بغضب نحوه، ونعرض فقداننا للسيطرة عليها. والطريقة الوحيدة للتلاعب بهذا الأمر من أيدي المتنمرين هي أننا جميعاً نخلق مساحةً للحديث عمّا هو قبيح فينا كأفراد وفينا كمجموعة.

يمكننا مواجهة ظلام الآخرين فقط عندما ندخل في الظلام الخاص بنا أولاً. أتمنى أن ألتقي مرةً ثانية سامي ودونا وإذا أتاحت لي الفرصة سأقابلهما بملاء الحب.

الفصل السادس

مسامحة أنفسنا أولاً

«لا يمكن لأحلامنا الجديدة الوصول،
إلا عندما نزيل فوضى قصصنا القديمة»

«ينبغي أن نغفر حتى ولو لم يُطلب الغفران منّا». خطرت هذه الجملة على بالي عندما بلغت حالة من الصمت العميق أثناء معتكف للتأمل. حاولت في البداية إزالة هذه الفكرة. إن طلب أمر كهذا هو أمرٌ مبالغ فيه. فتقديم المغفرة للذين يعتذرون هو أمرٌ، ولكن هل ينبغي تقديمها عندما لا يتم طلبها؟ هذا أمرٌ آخر تمامًا. هل نطلب من الذين تعرضوا للغش أو الخيانة أو فقدان الثقة الغفران من قلوبهم من دون أي اعترافٍ أو ندم من الطرف الآخر؟ لا، إن ذلك أمرٌ كبيرٌ لأقوم بطلبه. لكن الفكر ارتقى مرة أخرى من تلك الفسحة الصامتة. «يجب أن نغفر حتى عندما لا يطلب الطرف الآخر المغفرة منّا». واصلت الإصرار على القيام بذلك.

بعد فترة من التأمل، واصلت الصراع مع هذا المفهوم. المغفرة فكرةٌ نبيلةٌ، ولكن التحدث عنها أسهل من ممارستها فعلاً. فنحن معجبون بها وننادي بها فكرياً. ونحن نشترى مغناطيسات البراد مكتوب عليها شعارات الغفران، ونشر المنشورات على صفحاتنا على الفيس بوك، ونقوم بدراسة أولئك الذين يجسدون

المغفرة، مثل نيلسون مانديلا أو الدالاي لاما. لكن عندما يتعلق الأمر بمغفرة الأشخاص الحقيقيين في حياتنا - كشركاؤنا الذين خدعونا، أو أصدقائنا الذين غشونا، أو زملاء لنا خانونا - ندرك مدى صعوبة وضع ذلك موضع التطبيق. أحياناً تتلفظ بكلمة «أسامحك»، لكن قلوبنا تظل باردة. وفي بعض الأحيان نحاول أن نضع الأذى خلفنا، معتقدين أن ذلك يكفي، لكننا لا نقوم بمعالجته أو نغفر لمن أوقع الأذى بنا. في بعض الأحيان يستمر الألم في قلوبنا لفترةٍ طويلةٍ حتى يصبح جزءاً من القصة الحميمة لمن نكون.

يقوم جزءٌ كبيرٌ من تاريخ عالمنا على الأذى والخيانة اللذين لم يتم التسامح معهما وغفرانها حقاً. ويتم نقل الاستياء عبر الأجيال. إذ تحمل العائلات والمدن والبلدان والشعوب جميعها انقساماتٍ لا يمكن نسيانها. ونرى أمثلة على ذلك من حولنا، بين الشعوب الأصلية والمستوطنين، وبين الفلسطينيين والإسرائيليين، وبين السنة والشيعة في الإسلام، والمزيد غيرهم. حتى أن ثمة عداواتٍ قديمةً بين الرجال والنساء. ففي يوم نقبل ونحبّ ونتزوج بعضنا بعضاً، وفي اليوم التالي نحن أعداء ألداء. وفي بعض الأحيان يمكن أن نسمح للماضي أن ينقضي ولا نعيش فيه. وفي أوقات أخرى تُثار التوترات القديمة وتُنكأ الجروح القديمة. ويمكن أن تبدو هذه الانقسامات راسخةً ومستحيلة الحل. يقول الساخرون إن المغفرة فكرة جيدة، ولكن لا يمكنها أن تعمل على حلّ مثل هذا الألم عميق الجذور.

ليس لدي أي إجاباتٍ أردّ بها على الساخرين. أعلم أنه في اللحظات التاريخية التي تمّت فيها ممارسة الحقيقة والمصالحة والمسامحة كما حدث في جنوب أفريقيا ورواندا، فإن الضحايا هم من شرعوا بها، وليس المعتدين. وفي كلتا الحالتين، كان القصد من المسامحة هو إلقاء عبء الماضي حتى يتسنى للجميع، ولا سيما الضحايا، البدء في مسارٍ جديدٍ إلى الأمام. في المغفرة ثمة حرية من الألم الناجم عن كوننا تأذينا على نحوٍ عميق. إنه ألمٌ يُظهر نفسه في أجسادنا وفي أرواحنا وفي عقولنا. عرفت المفهوم فكرياً ولكنني لم أعرفه بشكلٍ حسيٍّ لزمٍ طويلٍ.

إن السبيلَ الوحيدَ لممارسة المغفرة حقاً هو أن نعرف إحساسه في حياتنا الشخصية، وأن نرى كيف يبدو في قلوبنا. فنحن بحاجةٍ إلى منح الغفران عن الإساءات الأكثر حميمية التي تعرضنا لها وطلب المغفرة عن الألم الذي سببناه. إذا كان بإمكاننا أن نغفر لبعضنا البعض في سبل حيواتنا الصغيرة، فيمكننا اكتشاف كيفية الغفران عن القصص الكبيرة لشعوبنا وتاريخنا أيضاً.

لكي نغفر لشخصٍ خان الثقة التي منحناه إياها يتطلب الأمر منّا نفس الجهد العاطفي الذي يتطلبه الأمر من أمةٍ لكي تسامح أمةً أخرى أو من النساء كي يغفرن للرجال. إن الأمر يتطلب نفس الشجاعة لكي نطلب المغفرة لأنفسنا، والذي يتطلب منا الاعتراف بدورنا في أي قصص أكبر قد فرقنا لعدة قرون.

تعني المسامحة تليين الهويات الثابتة التي تجعلنا ما نحن عليه من نساءٍ أو رجالٍ، شريين أو غربيين، بيض أو سود. وهي تعني إعادة كتابة قصصنا بإيجابية، وكس أذانا واستيائنا. كما تعني أن نسأل أنفسنا. هل يمكننا حقاً المسامحة وترك ذلك الماضي إلى الأبد؟ هل بمقدور أنهارنا السير في اتجاهات جديدة؟

يمكن سماع المغفرة فقط عندما يتم منحها أو تقديمها بصدق. لقد تعلمت هذا عندما أُتيحت لي الفرصة بمراقبة جلسة محكمة الغاكاكا في رواندا في منتصف عام 2000. قامت منظمة متطرفة من الهوتو تعرف باسم إنترهاموي في عام 1994 بالتحريض على الإبادة الجماعية ضد أقلية التوتسي في رواندا. في جنون القتل الذي أعقب ذلك، ذبح الهوتو مواطنيهم وطاردوهم بالمناجل وأضرموا النار في المزارع والمنازل

والكنائس - وأحياناً والناس محتجزون بها - قاموا بتدمير كل شخص وكل شيء استطاعوا الوصول إليه. وقتل أزواج الهوتو زوجاتهم من أقلية التوتسي، وقتل الكهنة أبناء الرعية، وقتل الجيران جيرانهم. وتركت الجثث مكدسة في الشوارع والكنائس. فقد أصبح عددٌ لا حصر له من الأطفال يتامى، وتم اغتصاب ما يصل إلى نصف مليون امرأة، وقتل ما يقرب من مليون شخص في غضون مئة يوم فقط.

كان الدمار مذهلاً للعقل. فقد بلغ عدد المتهمين الجناة مئة ألف. لم يكن ثمة سجون كافية لاحتجازهم ولم يتبق عدد كافٍ من المحامين والقضاة على قيد الحياة لإدارة المحاكمات. ولو أن الروانديين قد استخدموا نظام المحاكم الحديث على النمط الغربي لاستدعاء جميع المتهمين، لكان الأمر قد استغرق منهم عقوداً. وبدلاً من ذلك، لجأوا إلى محاكم الغاكاكا، وهي التقاليد التي تم نسيانها تقريباً والمتمثلة في إقامة المحكمة «في المرج». مبدأ المحكمة مبني على تصويت سكان القرية من الناس المحترمين والموثوق فيهم في المجتمع، ودور لجنة الحكام والحكامات هو الاستماع إلى مرتكبي الجرائم وهم يروون جرائمهم أمام كل سكان القرية. فإذا شعرت اللجنة الحاكمة أن الجاني قد اعترف بجريمته بصدق وكان مستعداً لتصحيح أخطائه في المجتمع، فإنهم كانوا يحاولون العثور على حكم مناسب مبني على أساس مواجهة الجاني لضحاياه وخدمتهم يومياً. جاء القصاص عن طريق الظهور مراراً وتكراراً، لمساعدة من تضرروا: فإذا قتل الجاني ابن امرأة، فعليه أن يخدمها وكأنه ابنها، وإن أحرقت مزرعة، فعليه أن يقوم بزرعها مجدداً. كانت الأحكام موجهة للمساعدة في إعادة بناء المجتمع وإصلاح الضرر الجسدي والمعنوي قدر المستطاع.

ولقد سمح نموذج محكمة المجتمع هذا للروانديين بالبدء بالتعامل مع الجرائم في وقت أسرع. وكانت محاكم الدولة والمحاكم الوطنية والدولية تزدهم بالمزيد من المجرمين الرئيسيين، قادة الإنتراهاموي الذين أمروا بالإبادة الجماعية. لم يكن الظهور في المحاكم المجتمعية يعني بالضرورة عقوبة أقل، لأنه كان يتوجب على الجناة الاعتراف بجرائمهم الشنيعة أمام كل شخص يعرفونه، من العائلات والجيران والأصدقاء والأشخاص الذين ترعرعوا معهم. كان ذلك يعني طريقةً مختلفة للعدالة والقصاص خارج نظام السجون.

تم السماح لي بمراقبة محكمة الغاكاكا بعد ظهر أحد الأيام في قرية صغيرة تحيط بها تلال رواندا الشهيرة. تمت دعوتي لأنني كنت أعمل مع نساء في بعض المجتمعات المجاورة لمساعدتهن على إعادة بناء حياتهن مالياً وعاطفياً. كان القرويون ينظرون إليّ بفضول، لأنه لم يكن يُسمح عموماً للأجانب بالحضور إلى المحاكم؛ كانت هذه الحسابات الجماعية أحداثاً خاصة جداً. انضمت إلى النساء والرجال في قمصانهم المطبوعة الملونة وتنانيرهم الملفوفة الجميلة ولفائف رؤوسهم، وبذلت قصارى جهدي كي أحافظ على مظهر متواضع.

جاء المتهمون واحداً تلو الآخر، وهم يرتدون زي السجن المكون من قمصانٍ ورديةٍ وسراويل قصيرة. في البدء اعترف رجل بحرق مزرعة جيرانه. أصغت اللجنة المنتخبة إليه، واستغرق الأمر منهم بضع لحظاتٍ للتشاور مع بعضهم بعضاً، ثم عاد بعد أن صدر الحكم بحقه: كان سيتوجب عليه العمل مجاناً في زراعة أرض جاره حتى تصبح المزرعة مورقة مرةً أخرى بشجيرات البن والشاي. وتحدث الرجل التالي عن كيفية قتله ابن امرأة من التوتسي. فحكمت عليه المحكمة بالعمل كابن للأم الثكلى، وتقديم كل الدعم المالي والعون الجسدي الذي يقدمه عادةً رجل قادرٌ جسدياً.

ثم جاء رجلٌ ووصف كيف قتل جاره، ودمر الممتلكات وقاد إنتراهاموي إلى مخبأ مجموعةٍ من النساء والأطفال العزل الذين تمّ ذبحهم بعد ذلك. كانت قصصه تنبض بالحياة، لكن كانت قصته تفتقر إلى أي شعور. إذ أنه قام بسررد كل التفاصيل كروبوت، «لقد فعلت هذا وفعلت ذلك» كما لو كان يقول: «بلى فعلت هذه الأشياء، ولكن جرائمى لم تكن بسوء جرائم الآخرين». أظهر القليل من الندم. أصغت اللجنة وطرحوا بعض الأسئلة واستمعوا إلى الشهود. ثم أعلنوا عن استراحة للتشاور مع بعضهم البعض بشأن عقوبته.

رواندا بلدٌ جميلٌ، أرضٌ طينيةٌ وساءٌ زرقاء غامقة، وحياة نباتية بكل ظلال اللون الأخضر المنتشرة عبر آلاف التلال. كان جماها يتناقض على نحوٍ صارخ مع الجرائم الفظيعة التي كان الناس يصفون ارتكابها. وعندما كنا ننتظر الحكم، كنت أتساءل عن العقوبة التي ستنزل بهذا الرجل. فكيف سيتعامل المجلس مع ما بدا وكأنه انعدام الشعور تجاه الأشخاص الذين عانوا بسببه؟

عندما عادت اللجنة من التداول، وجّهت المتحدثة باسمها كلامها إلى الرجل قائلة: «لا نشعر بالإخلاص في شهادتك. يتوجب عليك المزيد من العمل في نفسك لكي تكون نادمًا حقًا على ما قمت به. عد إلى السجن. وعندما يصبح بمقدورك الإقرار بدورك، عد إلينا». سوف نستمع إليك في محاكمةٍ أخرى. أصاب القرار الرجل بحالةٍ من الذهول، وأصابني أيضًا بالذهول. لقد سرد الحقائق بدقة، كما كان مفترضًا فيه، ولكن المجلس توصل إلى فهم أنه لم يشعر بعد بالأسف حقًا على أفعاله. ولم يكن يطلب المغفرة بصدق. كان يريد فقط أن يتم العفو عنه وأن يطلق سراحه. عمل أعضاء المجلس بشجاعةٍ بما كانت تمنليه قلوبهم والتمروا بمبادئهم. وأدى قرارهم ببيان في غاية القوة مفاده: «بمقدور الندم الحقيقي فقط أن يجلب المصالحة والشفاء لهذا المجتمع. فاتباع الرجل للنص لم يكن كافيًا، إذ كان يتوجب عليه أن يفهم تأثير تصرفاته وأن يريد حقًا أن تتم مسامحته على ما فعل».

كانت المغفرة والشفاء والمصالحة مفاهيم بالنسبة لي حتى ذلك اليوم. إذ كنت أؤمن بها لكنني لم أعشها أبدًا ولم أضع نفسي على المحك بأي طريقةٍ شخصية. لم أكن أفهم ما معنى أن تكون ضحيةً وتدلي بشهادتك على معتدٍ يعترف بجريمته، كحالة الأم من قبيلة التوتسي والتي واجهت قاتل ابنها. ولم أكن أفهم ما الذي يعنيه أن يكون المرء مجرمًا أمام مجتمعه، وأمام كل من ترعرع وعاش بجانبه، ويعترف بالأشياء الفظيعة التي قام بارتكابها.

في ذلك اليوم، أدركت مدى أهمية الحقيقة. يشعر الناس بها. تصاب القلوب بحالةٍ من الانغلاق عندما لا يتم سماع الحقيقة، لكنها تفتح بوجودها. تتاح للمرتكبين فرصة دمجهم في مجتمعاتهم مرة أخرى فقط عندما يقرون بأفعالهم بصدق. وهم بهذه الطريقة، يحرون أنفسهم من عبء الشعور بالذنب وتتاح لهم فرصة الوصول إلى جذر أي ألم يحفزهم في المقام الأول. وتتاح الفرصة للضحايا الباقين على قيد الحياة لإيجاد السلام في قلوبهم فقط عندما يسمعون الندم الحقيقي من الذين ألحقوا الأذى بهم. وعندئذ يمكنهم تحرير أنفسهم من عبء الألم والغضب والاستياء تجاه الناس الذين اعتدوا عليهم. ينبغي أن تكون المصالحة والمساحة صادقة كي تكون فعّالة.

هذه هي الطريقة التي ينتقل فيها البحث عن الحقيقة من البعيد إلى القريب ومن السياسي إلى الشخصي، من شيء يحصل لأشخاصٍ آخرين إلى شيء نحتاج له لتصفية الحساب معه في قلوبنا وفي حياتنا الخاصة وفي

مجتمعاتنا.

من الناحية الفكرية، كنت أعرف أن السعي إلى التسامح والمصالحة، حتى على المستوى الشخصي، هو أمر جوهريّ لإيجاد السلام في نفسي. فكيف يمكن أن أتحدث عن المسامحة والشفاء للعالم - بين التوتسي والهوتو في رواندا وبين الأكراد والعرب في العراق وبين المسيحيين والمسلمين في نيجيريا في جميع البلدان التي كنت أعمل فيها - إذا لم أعرف معناها في قلبي؟ وكيف لي أن أكرر عبارات نيلسون مانديلا عن التسامح في خطبي إذا لم أقم بمسامحة الذين أخطؤوا بحقي على نحو حقيقيّ وصادق؟ والأنكى من ذلك، كيف يمكن أن أطلب الصفح من الذين ألحقت الأذى بهم في وقتٍ لا أسامح فيه نفسي أبداً؟ كان يتوجب عليّ البدء بما هو أقرب إليّ، أعني فؤادي الكسير.

التقيت سعيد بعد ثلاث سنواتٍ من انتهاء زواجي. كان كلانا مهتمًا بالتطوير الشخصي ومهووسًا بنفس الكتب وبالمدرين الحياتيين، وكنا نريد العثور على ما أطلقنا عليه اسم «الفريق» وهو مجموعة من الأشخاص المتشابهين عقليًا وقلبيًا ويتصرفون كشبكة الروحية للدعم. التقينا في مناسبة اجتماعية استضافها صديق في أحد خلوات التطوير الذاتية. ولأن المشاركين في هذه المعتكفات يعملون من خلال القضايا الشخصية بوجود الجماعة، فإن الناس يميلون إلى الارتباط بسرعة. تنشأ الصداقات عندما يشهد الناس آلام بعضهم بعضًا. كنت أثق بالصداقات التي قمت بتطويرها في هذا المحيط من كل قلبي. وكنت أثق بالمكان الذي كانت تعقد فيها هذه التجمعات وكنت أثق باستعداد الجميع للتعمق في عملهم وبصدق ومستوى التأثير العالي للقصص التي كنا نتشاركها جميعًا.

قضيت سحابة وقتي في الحفل قرب أصدقائي وأنا أستمتع بالمقدمات وموسيقى الرقص. ولم يكن بوسعي إلا ملاحظة رجل جذاب جدًا كان يبدو أنه لا يعرف الكثير من الأشخاص المتواجدين هناك. كنت في غاية الخجل في البداية كي أقترّب منه. إذ كان يشبه لوحة مايكل أنجلو التي تسمى داوود بجسده الأنيق وعيونه المتلألئة وابتسامته الجميلة.

تعرفت على سعيد وبقيت على اتصال معه وفي أحد الأيام وبينما كنت أقيم حفلةً استجمعت شجاعتني كي أدعوه. لم يقبل دعوتي فقط بل جلس إلى جانبي طوال الليل تقريبًا مما حملني على الاعتقاد أن الإعجاب قد يكون متبادلًا. تلاً قلبي إثارةً.

عندما أفسحت المجال لسعيد أكثر بالتسلل إلى قلبي، بدأت صداقتنا تتعمق إلى علاقة رومانسية. فكلما كنا نجتمع، كنا نتحدث ونضحك من دون توقف. كنا نسير في الغابات في شمال ولاية نيويورك، ونسبح في البحيرات التي كنا نواجهها في طريقنا. كان يقوم بطهي وجباتٍ لذيذة لي من وصفة حساء الدجاج التي كانت تعدها جدته إلى أطباق الأرز التي كانت تذكرني بالوطن. وكان يعرب عن إعجابه ودعمه لتفانتي في حقوق المرأة. عندما كنت اضطرّ للبقاء ساعات طويلة في العمل كان يقول لي: «امضي واجعلي العالم أفضل. وأنا من ورائك». كان عمله هو فنّه. وكنت معجبةً بذلك ومقدرةً لمدى اختلافه عما كنت أفعله. وبلمح البصر وقعنا في الغرام. كان يضرب بقوة على صدره ويقول: «سأحبك على الدوام. وسأخلص لك أبد الدهر. وسأوفر لك الحماية على الدوام».

كان سعيد كل ما كنت أتمنى، ولكن في البداية كنت أخشى ألا يكون صادقاً. وتساءلت عما إذا كان تحببه وتعايره عن الحب صادقة؟ هل كنت أراه بقضه وقضيضه، أم هل أصابني العمى بسبب وجهه الوسيم وكلماته الرقيقة؟ أعماقي حدثني أن أكون حذرة ولكن في نهاية المطاف وبعد سماع كلماته الساحرة في كثير من الأحيان سمحت لنفسي باللين. وتغلبت عليّ رغبتني في أن أكون محبوبة وأن أشعر بالأمان والحماية. سيبتسم لي فقط تلك الابتسامة الرائعة، وسأشعر بالثقة في أنه كان يعني ما كان يقول.

سارت الأمور على نحوٍ رائعٍ لفترةٍ من الزمن. وقدمت سعيد لأصدقائي وعائلي. أخذته إلى مناسبات العمل والمناسبات الأخرى، ولم أعد المرأة المنفردة من دون موعدٍ غرامي. وخفف سعيد من عبء المشي لوحدي. لكن في غضون عام بدأت الأمور بالتغيير. بدأ سعيد يكذب أكاذيب صغيرة. كان يقول إنه كان في مناسبة مع أصدقائي في حين كان أصدقائي يقولون إنهم كانوا في مكان آخر. وكان يصبر على أنه دفع ثمن عشاء عيد ميلادي في حين كان أخي هو الشخص الذي دفع في الواقع. تركت هذه الأشياء تمر. لم أكن أشاء أن أجعل منها قضية كبيرة. ثم بدأ سعيد بنشويه المزيد من القضايا الشخصية. فكان ينتقد طهيمي وذوقي في الملابس والأثاث. كانت تلك التعليقات تسبب لي الألم، ولكن سرعان ما كان يهدئني ويصبح محبباً مرة أخرى عندما كنت أبدي الانزعاج، كان يقول: «أنت تعرفين أنني أحبك. ولم أقصد أن أؤذيك. أنا آسف جداً، آسف جداً». كان يقول الكلمات بما يكفي لأسمح للحوادث بالمرور.

عندما أصبحت انتقاداته أكثر تكراراً، بدأت أشك في كل تحرك أقوم به. لم يكن بمقدوري بعد أن أرى أن سلوكه كان مسيئاً. لقد سئمت من مقاومة هجماته الصغيرة واستسلمت لنمط النقد الذي يليه الحب. ففي بعض الأحيان كنت أعتقد أنه قد يكون على حق. ولربما لم أكن طاهيةً جيدة. ولربما كان ذوقي في الأزياء ضعيفاً. فبعد كل اعتبار، كان من الصحيح أن وزني قد ازداد بمقدار رطل أو رطلين. وفي أحيان أخرى كنت أعرف أنه كان على خطأ، لكنني لم أشدد على القضية لأنني لم أكن أرغب في الشجار.

لم يلاحظ أصدقائي أي شيءٍ غريباً يتعلق به، ما حملني على الشك أكثر بنفسي. وبدلاً من ذلك، بدأت أشعر بالانزعاج منه لأتفه الأسباب، مثل أن لا يبتسم عندما كان يراني أو يتصل بي على الفور. وكنت أبكي من دون أي استفزاز ومن دون أن أفهم السبب، إذ كنت أنفجر بالبكاء في المنزل وفي العمل وفي غرف الفنادق وفي كل مكانٍ كنت أوجد فيه. وعندما كنت أستعيد حواسي مؤقتاً، كنت أخبر سعيد أنه إن هو استمر في انتقادي سأغادر. عندئذٍ كان يبكي ويتوسل إليّ للبقاء. «لكنني أحبك كثيراً يا زينب!» لذا بقيت، على الرغم من أنه سرعان ما كان سيزعجني مرة أخرى.

استمر هذا على نفس المنوال حتى نظرت إلى نفسي في المرآة ذات يوم وقلت: «لست أنا». لم أستطع الإشارة إلى ما كان يحدث بالضبط. وشعرت وكأنني قد فقدت نفسي، فاستجمعت شجاعتي لمواجهة سعيد.

قلت له: «ما زلت أحبك، ولكنك تؤلميني كثيراً هذه الأيام، أريد أن أعرف السبب، من فضلك أخبرني بالحقيقة. هل ثمة شيء أحتاج إلى معرفته؟ هل تواجه مشاكل مالية؟ أو مشاكل صحية؟ أم هل الأمر يتعلق بشيء في عائلتك؟ أم هل ثمة امرأة أخرى في حياتك؟».

توسلت إليه أن يجهر بالحقيقة. فإذا فهمت ما الذي كان يدور في قلبه، فكان سيساعدني بأن أفهم، بمعنى أوسع، ما كان يجري لنا ولي. فبعد كل اعتبار كنا قد التزمنا بالعيش في كنف الحقيقة. بقي سعيد على

صمته. بدأ شعوري يتضائل شيئاً فشيئاً تجاه كوني أعيش في علاقة مبنية على الثقة، وكنت أشعر أكثر كأنني ألعب خدعة «بطاقات مونت الثالث» مع محتمل الشوارع الداهية.

أدركت بعد شهرين من الفوضى والشك المؤلم بالذات أنه آن الأوان لاتخاذ موقف نهائي. كان يتوجب عليّ تحليل نفسي من هذه الديناميكية غير الصحية. أخبرته بينما كنا نجلس على أريكة برتقالية في بيتي: «لا أفهم ما الذي يجري في هذه المرحلة، أنت تسيء معاملتي. أتمنى أن تخبرني بالحقيقة أيّاً كانت. فأنت تسحبني نحوك ومن ثم تدفعني عنك بعيداً لقد بلغ السيل الزبى. فإذا لم يكن بمقدورك إخباري بما يحدث، يتوجب عليك مغادرة حياتي على الفور. ليس بمقدوري تحمّل هذه المعاملة. في اللحظة التي يمكنك فيها التواصل بصدق بشأن ما يحدث سوف أصغي إليك. حتى ذلك الحين، عليك أن ترحل».

لم يكن سعيد متحدثاً وفي ذلك اليوم أيضاً بقي صامتاً. كنت قد اتخذت موقفي. لقد منحته فرصة لتجسيد القيم التي قال إنه يتبناها وللإبقاء على علاقتنا. كان كل شيء يعود له الآن. قلت وداعاً، إذ كان لدي رحلة جوية ويجب أن ألحق بها.

في تلك اللحظة، ملكت زمام نفسي، لكن ذلك لم يضع حداً للدموع أو للألم. ما زلت لا أفهم أسباب سلوك سعيد. لقد اشتقت له. كان الشك يراودني في قراري حتى عندما كنت راسخةً فيه. وبعد شهرين، حصلت على جوابي. إذ اتصلت بي أحد معارفنا من التطور الذاتي والخلوات الروحانية وقالت: «زينب، أنا مدينة لك باعتذار. رأيت سعيد مع امرأة أخرى بينما كان لا يزال معك. أنكرا وجود شيء بينهما، ولكنني بقيت أراهما معاً، وفي نهاية الأمر قبضت عليهما وهما يقبلان بعضهما بعضاً. أنا آسفة جداً لأنني لم أخبرك في وقت سابق، إذ اعتقدت أنك يجب أن تعرفي الآن على الأقل».

حقيقة الأمر أن سعيداً كان مع امرأة أخرى لعدة أشهر قبل أن أمسك زمام نفسي. وبدلاً من التحلي بالشجاعة ليخبرني عن علاقته، كان ينتقديني ويحملني على الشعور بالسوء تجاه نفسي. من يدري كم من الوقت كانت ستستمر هذه التمثيلية لو لم أتخذ موقفاً؟

وفيما وراء علاقتي بسعيد دمرتني دائرة الأصدقاء الذين يعرفون عنه لكنهم لم ينسوا بنت شفة: لا لسعيد ولا لي ولا للمرأة التي كان على علاقة بها. إذا كان هذا المجتمع الذي كنت أتق به كثيراً عندما كنا نقوم بعملنا الشخصي - كنا نتحدث عن أهمية الظهور بصدق فيما يتعلق بمشاعرنا - يجب مثل هذا السر عني، فأني شخص كان بوسعي الوثوق به؟

قال لي أحد ذات مرة إن الخيانة أشبه ما تكون بالخنجر الذي يخترق صميم الفؤاد. وينغرز الخنجر على نحوٍ أعمق مع الذين نحبهم ونثق بهم، لأن العضلات تكون طرية بصحبة الأصدقاء. فنحن لا نتوقع الخنجر منهم. كنت أشعر بالجرح البالغ من هذا الخنجر، وكان يؤلمني حتى الصميم. ومع ذلك، واجهت أوقاتاً صعبة في الاعتقاد بأن الأشخاص الذين نحبهم يؤذوننا انطلاقاً من القسوة. على الأرجح أنهم يؤذوننا من المكان الذي يؤلمهم. فالقلوب الكاملة والأمنة لا تخون. وعندما يملكنا الخوف أو عدم الأمان أو عندما نشعر بالعجز أو حتى الغيرة، يمكننا تدنيس الحب والثقة التي يمنحها لنا الآخرون.

وبعد أن أدركت أن سعيداً كان يكذب على نفسه والخيانة كانت لنفسه وليست لي فقط، بدأت أتساءل عما إذا كنت قد فعلت الشيء نفسه في الماضي: إذ أنني كنت قد خنت نفسي بسبب انعدام الأمان والخوف.

فمتى لم أحترم لِنفسي؟ متى سمحت لسعيد - أو لأي شخص آخر - أن يقول لي من أنا؟ ومتى كنت أخلق الأوهام حول الأشخاص الذين أحببتهم، إذ كنت أعتقد أنهم كانوا ينوون نيةً حسنةً حتى عندما كانوا قساةً؟ ومتى كنت أقوم بتجاهل غرائزي؟ ومتى كنت أعرف أنني أكذب رغم أني لم أقل شيئاً؟

عندئذٍ وفي خضم ألمي أدركت للمرة الأولى أن جزءاً مني كان لا يزال يعاني من انعدام الأمن والمخاوف القديمة. هذا الجزء هو فتاة صغيرة ضعيفة لا تزال ماثلة في داخلي حيةً وبصحة جيدة، برغم المرأة القوية التي أصبحتها كبالغة. فعندما لا نبرأ من ماضينا، فإننا نكرره من دون وعي حتى نتعلم دروسه. وفي حالتي، كان الجانب الطفولي مني يريد أن يشعر بأنه محبوب وآمن وكان يخاف من الشعور بالوهم والوحدة. وسواء كان ينبع هذا من طفولتي وتربيتي أم لا، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها تلك الفتاة الخائفة والقلقة في داخلي.

بعد أن استهلكني هذا الخوف، كنت أتجاهل غرائزي وأفسح المجال لقوتي كي لا أفقد حب شخص ما. على الرغم من أنني كنت أدير منظمة ناجحة إلى حد كبير بحلول ذلك الوقت وبرغم أنني كنت أجلب المساعدات والموارد للنساء اللاتي يعانين من صعوبات شديدة، وبدلاً من الدفاع عن نفسي كنت أضحى بنفسني. كنت أعتقد أنني إذا كنت لطيفةً ومحبةً على نحوٍ كافٍ، سأشعر بالأمان. كنت في حقيقة الأمر أتصرف انطلاقاً من الشعور بعدم الأمان، انطلاقاً من جزءٍ مني كان يريد أن يرضي، وكان يريد أن يكون مثالياً، ولم يكن يريد أن يُطلق حكماً عليه، وكان يريد أكثر من أي شيء آخر أن يكون محبوباً.

والأمر الذي ساعدني على تغذية هذه الطفلة الضعيفة وجلب الشفاء لها كان دميةً. كنت ألقى خطاباً في مدينة مكسيكو حول فهم الحرب والسلام من وجهة نظر المرأة عندما قدمت لي شابة كانت قد جاءت لتطرح سؤالاً دمية مكسيكية تقليدية كهدية.

قالت وهي تسلمني دمية من الصوف البني ترتدي ثوباً أبيض: «إنها بمثابة تذكاري لتذكرك بالمكسيك». كانت الدمية تحمل دمية طفلٍ ملفوفةً على ظهرها بشالٍ فاتح اللون ومزركشٍ بالألوان.

تناولت الدمية وأنا أبتسم وشكرتها بدون أن أعرف ماذا كنت سأفعل بها أو كيف سأضعها في أمتعتي المحمولة. لكن في تلك الليلة في غرفتي في الفندق، شعرت بالإعياء من فرق التوقيت، التقطت الدمية ووجدت نفسي أعانقها عندما بدأت بالنوم. بدا الأمر كما لو أن الشخص البالغ فيّ كان يحمل نسخة الطفل المطابقة عن نفسه. فشعرت للمرة الأولى بأنني كنت أعانق وأحب الطفلة الكامنة في داخلي وأحميها بكل ما أوتيت من قوة.

بالنسبة لنا نحن معشر النساء، يمكن أن يبدو حب أنفسنا أنانيةً أو انغماساً في الملذات. ومن الأسهل بكثيرٍ معاقبة أنفسنا على كل السبل التي لا نبلغ فيها حد الكمال. فكيف نمتلك الجرأة على الاعتناء بأنفسنا أولاً؟ لكن لا يمكن أن يكون ثمّة شفاء حقيقي من دون حبٍّ، ويشمل ذلك حب الذات. حتى ذلك الحين، كنت أعتقد أن حب الذات كان يعني القيام بالتدليك وممارسة التمارين الرياضية وشراء الملابس الجميلة. كان حبّ الذات شيئاً كنت أعتقد أنه يمكنني الحصول عليه من العالم الكائن خارج نفسي. حتى بدأت بمعانقة تلك الدمية لم أتعلم أن أحمل نفسي - بنفسني ومن أجل نفسي. فتعلمت أن أصغي إلى نبرة صوتي وإلى مشاعري الكائنة في جسمي، وإلى أحلامي وغرائزي. أخبرتني تلك الأشياء أي أمور مني كانت تمثل الفتاة الصغيرة وأي أشياء كانت تمثل المرأة القوية التي تحمل قيماً وآراء. كنت أتعلم كيف أكون حليفة نفسي.

عندما لا نفسح المجال للخوف بأن يدير حياتنا، يمكننا الإصغاء لأفضل آرائنا ونقوم باختيارات مختلفة. فعندما كنت أهتم باحتياجاتي وغرائزي، كان بمقدوري أن أكون أكثر حضورًا في تعاملي مع الآخرين. ولفهم العطاء حق فهمه وتلقي الحب، كان عليّ أن آخذ وقتي لأمنح الحب لنفسِي، ولتلقِيه بصدق.

وفي نهاية المطاف تحوّل شعوري بالغضب وخيبة الأمل تجاه نفسي لسماحها لسعيد بخيانتِي إلى شعور بالقبول والعاطفة. كما تعلمت كيف أريح وأهدئ الطفلة الصغيرة التي كان منظورها يدير حياتي الحميمة لفترة طويلة. ومن ذلك المنظور بدأت أنظر لخيانة سعيد بوضوءٍ مختلف أيضًا. وكان بمقدوري أن أرى على نحوٍ أوضح أنه كان ثمّة طفلٌ مصابٌ يعيش في داخله، الأمر الذي كان يدفعه إلى خيانتِي. فلربما كان الحب يحدث لسعيد فقط في اللحظات المسروقة. ربما كان ذلك هو الجرح الذي لم يندمل والذي كان يحركه. وبعد إدراك ذلك، بدأ غضبي وجرحي بالزوال. إذ عثرت على الشفقة على الأجزاء التي لم تكن تتصف بالأمان لديه، بنفس الطريقة التي عثرت فيها على الشفقة على الأجزاء غير الآمنة فيّ. وكلما كان بمقدوري أن أفهم وأسامح الجزء الذي في داخلي والذي خانني، كلما كان بمقدوري فهم ومسامحة الجزء الذي فيه والذي قام بخداعي وخداع نفسه.

إن ممارسة الغفران هي عملية متعددة الأوجه. في البدء يتوجب علينا تعلّم كيفية مسامحة أنفسنا لكي يكون بمقدورنا التخلي عن العبء المؤلم الناجم عن الشعور بالذنب. إن ذلك بمثابة أعمق فعل لطفٍ تجاه أنفسنا. ومن ذلك المكان تتوفر لدينا القدرة على مسامحة الآخرين. كما يمكننا رؤية أن أولئك الذين أضروا بنا يحركهم أمرٌ لا يتحكمون به أيضًا. وعندما نسامحهم لن يعود بمقدورهم السيطرة على قصتنا. فالمسامحة أشبه ما تكون بخطوةٍ باتجاه حريتنا. ومن هناك يصبح من الممكن تحديد من ألحق الأذى بنا، وهي تجربةٌ في غاية التواضع والرعب.

هنالك أمرٌ واحدٌ ينبغي مراقبته هو عملية المسامحة في محاكم الغاكاكا في رواندا، حيث شاهدت العديد من القتلة وهم يظهرون الندم ويطلبون العفو، وكان ثمّة أمر آخر بالنسبة لي هو الوقوف أمام الأصدقاء والعائلة الذين أذيتهم وأطلب الصفح منهم. كان هذا الجزء من العملية بمثابة تمرين في حالة من الضعف. ومع ذلك فإن الكشف عن نفسي على نحو تام كان هو السبيل الوحيد الذي عرفته لتجسيد معنى المسامحة. لقد كان ذلك عملاً من أعمال التواضع، وكان يتطلب الكثير من الشجاعة.

لم أكتشف هذه الفكرة بنفسِي. بل كان الشخص الذي اكتشفها زميلةً سابقةً تدعى سامانثا والتي كانت قد بحثت عني بعد سنوات من مغادرتي منظمة نساء من أجل النساء الدولية. إذ أنها علمتني كيف يبدو الأمر عندما تبدأ محادثةً لأجل المسامحة. لم تكن قريبتين من بعضنا عندما كنّا نعمل سوياً. وفي حقيقة الأمر وعلى الرغم من أن علاقتنا بقيت علاقةً تتصف بالتهذيب، فإنها أصبحت علاقةً بعيدةً وصامتةً مع نهاية فترة ولايتي. لذلك أصابتنِي الدهشة عندما طلبت سامانثا اللقاء بي لتناول فنجان قهوة. في البداية، قلت بالطبع، فعندما تكون في نيويورك سأكون سعيدةً بلقائها. لكن سامانثا كانت تريد تحديد الزمن والمكان اللذين يمكن أن نلتقي فيهما. وكانت ستأتي من منزلها في واشنطن العاصمة، فقط من أجل اجتماعنا. حملني إصرارها على الاعتقاد أنها قد تكون بحاجةً لخطاب توصيةٍ أو لبعض المساعدة في العثور على عمل، لذلك وافقت وقمنا بالترتيبات اللازمة.

قابلت سامانثا في مقهاى المفضل والذي كان يقع تحت شقتي مباشرة. كنت ارتدي ملابس غير رسمية مكونة من سروال جينز وسترة، لكن سامانثا وصلت وهي ترتدي قميصاً مكويًا جيدًا أزرق اللون وكانت قد صفت شعرها حديثًا، كما لو كانت ذاهبة لحضور اجتماع عمل. أخذ طاقم الانتظار في المقهى طلبينا لفنجانى قهوة عندما جلسنا. في البداية قمنا بالدوران حول القضية غير المخفية من خلال السؤال عن آخر أخبار عائلتنا، وجميع الدردشات المعتادة.

قالت سامانثا وهي تقدم وصفًا استمر لمدة عشر دقائق عن شخصيات أطفالها وحياتهم الدراسية وحتى أنها قدمت وصفًا أطول عن كيف أن عمل زوجها كان يتوسع: «نعم، نعم، الجميع في عائلتي يؤدون أداءً عظيمًا». أخيرًا، وبعد نصف ساعة أنهيت مشروبي من الكابتشينو، وبدأ صبري ينفد من رقص الكلمات الذي كنا نقوم به. وفي لحظة من الصمت الأخرق انتهزت الفرصة لأكون مباشرة في حديثي.

«سامانثا، هل يمكنني القيام بأي شيء من أجلك؟ هل تحتاجين إلى توصية لوظيفة أو إلى شيء ما؟».

قالت وهي تحفض بصرها وتنظف بلعومها «لا، لا شيء من هذا القبيل. أنا هنا لأطلب الصفح منك. عندما كنت أعمل معًا كنت أرغب حقًا بوظيفتك. لذلك كنت أعتابك. لقد تحدثت عنك بشكل سيء أمام بعض الزملاء. لقد أدركت أنني كنت مدمرة وأن ذلك كان نابغًا من رغبتى في الحصول على وظيفتك. لذلك، أود أن أعتذر عن طعنك في الظهر.»

حاولت في صدمتي الأولية تغيير الموضوع والانتقال إلى أمر أقل خطورة. قلت بخفية: «حسنًا، حدث هذا منذ سنوات. وعلى أية حال لم يكن السبب وراء تركي المنظمة.»

أصرت وعيناها تقابل عيني: «هذا لا يعني أنني لست بحاجة للاعتذار». رأيت الارتباك وهو يمتزج بالشجاعة في عينيها. نظرت باتجاه أسفل كأس الإسبرسو الفارغة كما لو كانت تستجمع قوتها لمواجهة مرة أخرى. ومن ثم نظرت إلى الأعلى: «أنا هنا اليوم لأطلب منك السماح. مجرد ذلك فقط. هل تمنحيني السماح؟».

لقد صرحت سامانثا بالحقيقة، كانت ثمّة لحظات في سنوات عملي مع سامانثا كنت أشعر فيها بالتوتر والعداء بيننا، لكن حساسيتي كانت تزول. لم أنس هذه الحوادث؛ قررت فقط السماح لها بأن تكون. وحتى أنني لم أذكرها لأي شخص آخر. وبعد أن صدقت طلبها بدا وكأنها كانت تقدم لي أم كل الهدايا، كانت تقدم لي حقيقتها. فلقد طرّى ذلك الطلب القساوة التي كانت تلف محادثتنا، وتحوّل موقفي تجاهها. وبعد أن أثرت في شجاعته وأهمته، منحت مسامحتي لسامانثا وشكرتها على الظهور بهذه الطريقة. ثم أردت معرفة المزيد.

«لماذا تثيرين هذا الأمر الآن يا سامانثا؟ لقد مضى وقتٌ طويلٌ على هذا.

«كنت بحاجة إلى الاعتراف بما قمت به حتى أتمكن من المضي قدمًا. فشعوري بالذنب يعيقني. أريد أن أكون صادقة معك، لذلك أنا بحاجة إلى أن أريح نفسي من هذا العبء.»

في الماضي كانت سامانثا تتصرف انطلاقًا من شعورها بعدم الأمان والخوف والغيرة، أي كل ما كان يلعب في ظلها. في الوقت الحاضر، هي تتحلّى بالشجاعة كي تعترف لنفسها بالخطأ الذي ارتكبته، ومن ثم تطلب السماح حتى عندما لا يتم تحفيزها أو أن يطلب منها القيام بها. وبهذه الطريقة، أصبحت سامانثا

معلمتي. إذ أنها بدأت بالنزاهة الكاملة، أيًا كان مدى صعوبة الجلوس على هذا الكرسي وطلب المغفرة. ما كان يتوجب عليها توقع أي مكافأةٍ أخرى باستثناء معرفة أنها كانت تواجه تصرفاتها التي كانت أقل من نبيلة.

وعندما تعانقنا مودعتين بعضنا ظهيرة ذلك اليوم في المقهى، كانت سامانثا قد حازت على أعمق امتناني واحترامي. كانت قد حررتني من شكوكي الدائمة بها ومن ذلك الزمن في مسيرتي المهنية. لقد حررت كلينا بالحقيقة.

قررت قبول الهدية التي عرضتها عليّ سامانثا ودفعها للأمام. كان لدي أناس ينبغي عليّ أن أقدم الاعتذار لهم. كان في طليعتهم أمجد، زوجي السابق، الذي أظهر الكثير من الحب والاحترام طوال أربع عشرة سنة من زواجنا. فخلال سنواتنا الأولى، عندما كنت أنمو بنفسي، كان من الممكن أن أكون في غاية الخوف وعدم الأمان. خائفةً للغاية. وعدم قدرتي على أن أكون صادقةً تمامًا مع نفسي أو مع الآخرين حملني على التمثيل أحيانًا. على الرغم من أننا كنا قد انفصلنا وديًا وكنا صديقين، إلا أنه لم يعد كافيًا لي أن أترك أشياء غير معترف بها. كنت أرغب في تحمل مسؤولية التصرفات التي كنت أشك على الدوام أنها قد أضرت به.

طلبت من أمجد تناول القهوة معي في إحدى رحلاته للعمل في نيويورك. عندما تمكن أخيرًا من سرقة الوقت، التقينا في نفس المقهى الكائن تحت شقتي حيث كنا قد التقينا أنا وسامانثا قبل بضعة أشهر.

بينما كنت أنتظر وصوله، أبقيت على صورة سامانثا في مقدمة عقلي. وحيث أنني كنت أجلس في مقعدها، فهمت بشكل أفضل ضعف الموقف الذي كانت فيه، والذي كان يبدو مزيجًا من الشجاعة والإحراج. وعندما ارتعشت يدي، فكرت في يدي سامانثا المرتجفتين. وعندما علق صوتي في حلقي، تذكرت صوتها الذي كان يتهدج عندما كانت تعتذر.

وأخيرًا، جلس أمجد قبالي.

سألني وهو يقبلني على وجنتي مرحبًا: «كيف تسير أمور حياتك؟».

«إنها تمضي على نحوٍ جيد. ليس ثمة شكوى. كيف حال زوجتك؟».

ذهابًا وإيابًا في رقصة الأسئلة والتفاصيل الدقيقة، وطلبنا بعض الطعام وأعلمنا بعضنا بأخبارنا غير المهمة.

في نهاية المطاف، نظرت إلى أمجد مباشرة وقلت: «طلبت منك المجيء لأنني أريد أن أعتذر منك على ما فعلته معك. أعرف. أعلم أنني لم أهتم عندما كنت تحاول إخباري بأمرٍ مهمٍ عن ماضيك أو عندما طلبت المساعدة في عملك، وكنت أستطيع مساعدتك».

تركني أمجد أنكلم. في البداية، تحدثت بشكل عام. ثم استجمعت شجاعتي وذكرت تفاصيل أكثر في قصصي. من ثم أوقفني وقال: «زينب، كل هذا حدث منذ زمنٍ طويلٍ. لقد مرت تسع سنوات على طلاقنا».

«أنا أعرف ذلك. لكن ما زلت بحاجة للاعتذار. أنا مدينة لك ولصداقتنا. أنا آسفة. أنا آسفة حقًا على تصرّفي في نهاية زواجنا. اليوم، أنا أسألك الغفران»، لا يبدو أنه من الصواب أن تكنس كل الخطايا والتجاهل وأفعال القسوة في علاقتنا تحت السجادة. كنت أعرف أنها أصابت أمجد، وأدركت أنني كنت مسؤولة عن هذا الأذى. كنت بحاجة إلى التخلص من هذه السجادة وتنظيفها حتى يحتفي الغبار في الهواء الصافي، بحيث يمكن أن تستمر صداقتنا المحببة في التطور. عندما كنت أقول كل ما أحتاج أن أقوله، نظر إليّ أمجد بعينيه الرقيقتين. «كل شيء جيد، زينب. لدي قائمة من الأشياء الخاصة بي لأعتذر لك عنها أيضًا. كلانا كان لديه نصيب من الأخطاء التي ساهمت في نهاية علاقتنا».

تحدثنا عن ماضينا وما فعلته وما فعله وما لم يفعله. قلت له كل شيء عن سامانثا وسعيد، وكيف كنت أعلم أن أعطي وأستقبل الحب والمغفرة في حياتي. كان أمجد يستمع إلى كل شيء. ثم، معًا، باركنا ماضينا وتركناه. لم أكن حتى اللحظة التي جلست فيها أمام أمجد، أدرك كم هو صعب أن أعتذر من دون تقديم أيّ أعتذارٍ لأفعالي. كان هناك العديد من التبريرات التي كان بإمكانني عرضها لجرائمي وأخطائي، لكن في الحقيقة كان الاعتذار الحقيقي هو كل ما هو مطلوب. من السهل أن تكون الضحية، لتكون الشخص الذي ظلم. نحن نفضل أن نرى أنفسنا جيدًا وأن نلقي باللائمة على ذلك، ولكنها ليست القصة الكاملة أبدًا. من الصعب أن نعترف أنه في بعض الأحيان نكون نحن أيضًا على خطأ. إننا بشر، ولذا فنحن جميعًا أصحاب عيوب. إن التعبير عن ذنوبنا وندمنا بإخلاص وتواضع يعني الاعتراف بمدى صغرنا في هذا الكون الشاسع. للحظة، نحن نقبل بأننا صغار مثل جزيئات الغبار وبأننا لسنا أقوى من ذبابة. إنها أكثر تجربة تواضعًا. لكن هذه اللحظات تساعدنا على اتخاذ وجهة نظر مختلفة تجاه أنفسنا من وجهة النظر المعتادة. من نواح كثيرة، تُظهر هذه اللحظات تواصلنا مع بعضنا البعض كأفراد. كلنا متشابهون في لحظات الألم وفي لحظات التواضع. رؤية هذا يذكرنا أن نبذل قصارى جهودنا لعيش هذه الحياة التي تقدم لنا. إنه يمنحنا التعاطف مع أي شخص يمر بشعورٍ مفعم بالحوية والهبوط الحتمي. كلنا كنا هناك. لم أكن أعلم أبدًا ما إذا كان سعيد يدرك مدى الألم الذي سببه لي. اليوم، لا يهم. غفرت له -دون أن يطلب عفوي- كان هديتي لنفسي. هذه العملية أَلقت ضوءًا جديدًا في ظلامي، وهدأت روحي، وأعطتني شعورًا أفضل بالنفس. سمح لي أن أشعر بمزيدٍ من الحب للمرأة التي أنا عليها وبالنسبة للطفل الذي لا يزال يعيش في داخلي. بعد مرور عشرين عامًا على تجربة واحدة من أفجع عمليات الإبادة الجماعية في العصر الحديث، أصبحت رواندا واحدة من أكثر الدول ازدهارًا في أفريقيا. في الآلاف من المجتمعات، يعمل الهوتو والتوتسي جنبًا إلى جنبٍ على زراعة الأرض وإعادة بناء البلاد. وقد ساعدت محكمة الغاكاكا الجيران على العيش بجانب الجيران مرة أخرى، حيث أن الأمهات يغفرن للقتلة، وللمغتصبين على أن يطلبوا عفوًا. على الرغم من أنه لا يمكن لأي شخص في رواندا أن ينسى، من خلال الغفران، إلا أن معظم الروانديين يعملون معًا من أجل أنفسهم ومن أجل الأجيال القادمة. يتطلب الأمر شجاعة لإخبار الحقيقة كما هي. ففي بعض الأحيان يتطلب قول الحقيقة هذا الكشف عن الجوانب غير الآمنة والخائفة من أنفسنا. بالنسبة لي، فإن التعلم لممارسة الغفران كان في النهاية رحلة حبّ. أدركت أنه ليس من الممكن أن أغفر من دون طلب المغفرة وحسب، بل من الممكن أيضًا أن أحب أولئك الذين خانوني. إذا رأينا أولئك الذين خانونا كما نرى أنفسنا، في كمالهم وضعفهم، فيمكننا أن نحب كلا الجزئين: الجزء غير الآمن منهم الذي قادهم إلى الخيانة والجزء الكامل منهم الذي يمد محبته. يمكن أن نغفر دون أن نطلب المغفرة. هذه هي رحلة الحب الحقيقي.

الفصل السابع

التخلي عن السيطرة

«امشِ بتواضع على هذه الأرض
حتى تتمكن من سماع نداء قلبك»

غالبًا ما نحاول التحكم بتجاربنا في محاولتنا لتأمين السعادة والحب وحتى الاتصال الروحي الذي نرغب فيه. وإننا نعتقد تمام الاعتقاد أن هذا سيجلب لنا ما نريد. في البداية تضعنا سيناريوهاتنا - وهي كيف نعتقد أن الأشياء يجب أن تسير- في وضعية الحركة وتقدم لنا اتجاهًا نسير فيه. ولكن إذا أصبحت هذه السيناريوهات مع مرور الزمن مجموعة جامدة من التوقعات، فإنها في هذه الحالة تسجننا. تصبح ككعب أخيليس لنا. وإذ نكون عالقين في حبال أفكارنا حول الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها الحياة، فإننا غالبًا ما نجد أنفسنا مصابين بخيبة أمل عندما لا تترقى تلك الأفكار. فنحن نوبّخ أنفسنا لعدم تحقيق أحلامنا وأهدافنا كما تخيلناها بالضبط. في الوقت ذاته، فقد نتغاضى عن الجمال والفرص المتاحة أمامنا. ونحن لا نرى الجمال والفرص لأنها لم تكن جزءًا من خطتنا.

ويمكن للسيطرة على كل جانب من جوانب حياتنا أن يكون لها أثرها العكسي على ما نريد. فبدلاً من أن تجعلنا سعداء، فإنها تتسم بالقدرة على منعنا من أن نحيا الحياة على نحو تام. فيمكن أن تمنع رجل الاعمال

الطموح من أن يجبر الأفراس اليومية بينما يعمل بجد لبناء شركته. كما يمكن أن تتدخل في قدرة الوالدين على أن يعيشوا فرحة تربية الأطفال وهما يتجاوزان جميع التحديات التي لا مفر منها. كما يمكن أن تمنع الشخص الذي يتوق لاتصال حقيقي مع وعي أسمي من الاتصال على نحو تام مع الله من أعماق قلبه.

تكن مخاوفنا وراء محاولتنا للسيطرة على الحياة. فنحن نخشى الفشل، أو الأذى، أو أن يطلق الناس حكماً علينا، أو نخشى عدم النجاح، أو حتى الإذلال. نحن نخاف من الشعور بأننا غير محبوبين، وغير مقبولين، وغير سعداء في نهاية المطاف. لكن ثمة طريقة أخرى لتحقيق هذه الأشياء. إذ يمكننا أن نظهر هذا في حياتنا، ونحدد نوايانا، ونقوم بعملنا، ثم نترك ملحقنا لما سيحدث بعد ذلك. يمكننا بذل كل الجهود اللازمة للحصول على ما نريد من خلال التخطيط الجيد والعمل الجاد والحصول على الخبرة المناسبة، وحتى شراء الملابس المناسبة، ولكن بعد ذلك ندع الأمور تجري على عواهنها.

عندما نسمح للحياة بالقيام بحركة الشهيقة والزفير من خلالنا بدلاً من محاولة جعل العالم يتلاءم مع توقعاتنا، فإن الفرصة تتاح لحيواتنا أن تصبح رحلات رائعة مليئة بالمفاجآت التي لا يمكن تخيلها. تتوفر لدينا فرصة للاسترخاء في كل ما تحمله الحياة لنا. إنها طريقة أخرى لوصف التخلي.

ليست كلمة التخلي شائعة في عالمنا الذي يتصف بالضغط الشديد. وقد يبدو من الصعب فهمها. فكيف يمكن لترك ما نريده حقاً وفعالاً يجري على عواهنه أن يقودنا إلى المزيد من الإنجازات والمزيد من النجاح والاحترام والشهرة والحب؟ يبدو ذلك غير منطقي. لكن الظهور على حقيقتنا في حياتنا، والمشي فيها، ومن ثم التخلي عن توقعاتنا، يخلق الطريق الذي يقودنا إلى الحرية. قالت لي معلمة ذات مرة «إن معنى التخلي هو أن نتنازل عن توقعاتنا. إذا كنا نريد استكشاف الحياة وتجربتها على نحو أكثر كمالاً وأصالة وأن نكون منفتحين على الفرص التي لم يكن بوسعنا أن نحلم بها من تلقاء أنفسنا، فإن التخلي والسماح بالرحيل لكل ما يعكر صفونا هو ما نحتاج إليه للقيام بذلك، نحن نحتاج لنمشي مع إيقاع الأرض الفعلي بوتيرة أبطأ بكثير من وتيرة حياتنا المعتادة وفي صمت أكبر من صمت عقولنا».

لقد فاز رامي وهو الرجل الرياضي بجائزة مرموقة كان يرغب فيها من خلال ممارسة التخلي. كان هدفه هو قيادة فريق التجديف في جامعته للفوز بسباق بين جامعة هارفارد وجامعة ييل ريجاتا، وهو سباق سنوي للقوارب بين جامعتين متنافستين. كان رامي يحب التجديف، وكان يهدف في النهاية إلى كسب مكان في المنتخب الوطني الأميركي. كان ذلك بمثابة حلم كبير وكان يتطلب التزاماً كبيراً. لقد كان يستيقظ في وقت مبكر من كل يوم، أي ستة أيام في الأسبوع، للقيام بثلاث ساعات من التدريب في الصباح، ثم كان يركض ويركض ويقوم بتدريبات اللياقة في فترة ما بعد الظهر. وكان يتناول الأطعمة الصحية، ويحصل على النوم الضروري. لقد كان في عامه الأول فقط في الكلية، لكنه كان تنافسياً إلى حد بعيد: وكان يقوم بثلاث دورات تدريبية إذا طلب المدرب من الفريق القيام بدورتين تدريبيتين. ومن خلال العمل بجد أصبح رئيس فريقه الذي كان يحدد سرعة وإيقاع الفريق بأكمله.

لقد كان رامي يشعر بالجهوزية عندما حل يوم السباق. لكن منذ نقطة البداية تأخر فريقه. ولم يتمكن من سد الفجوة. لقد كان المدرب يصرخ في وجههم، وكان رامي ينادي بزمن أسرع، لكنهم لم يتمكنوا من التجديف بسرعة كافية. فقد كان بعض المجذفين، والذين كانوا يعانون من الإجهاد والتهيج، يتساقطون بفعل الضغط. واصلت القوارب في المقدمة تقدمها إلى الأمام. وأخيراً جاءت لحظة التخلي.

قال رامى لي: «كنت في غاية التوتر لدرجة أنني قررت إغلاق عيني وأخذ لحظةً أتففس بها». أصبحت هادئاً. أتحت لنفسي الشعورَ بالنسيم على وجهي وبقوة الماء تحت القارب. كنت أستمع فقط للأصوات الطبيعية من حولي. وفجأة، لم أكن بحاجة للدفع بقوة. لقد تركت الأمر يسير وعملت مع إيقاع الماء.

وعندما دعا رامى إلى التجديف مرةً أخرى من هذا المكان من الهدوء الداخلي، بدأ فريقه بالخروج من الموقع الأخير. كانوا يكتسبون السرعة ويتجاوزون القوارب الأخرى. وتمكّن رامى من قيادة فريقه للفوز بالسباق، وهو أمرٌ لم يكن له أي علاقةٍ بالتنافس.

في اللحظة التي ترك فيها رامى التركيز على الفوز، كان قد تخلّى. فعندما قام بموافقة أنفاسه وحركته مع الماء تحته، أتاح الفرصة لنفسه أن يعايش التجربة الكاملة بدلاً من الدفع بقوة إلى خط النهاية. لقد فعل كل ما بوسعه، فحدّد نيته، وقام بالالتزام، وتجاوز متطلبات التدريب وأعدّ ذهنه وأنفاسه. لكن سرّ الفوز كان آخر شيءٍ يمكن أن يتخيله. كان السر يكمن في أن يكون في اللحظة وفي أن يعيش تلك اللحظة بالكامل. لقد عثر على انتصاره في هذا التخلي.

بالطبع، بالكاد يكون النصر مضموناً. ولكنه ليس الطريق إلى السعادة دوماً. هناك آية في القرآن تقول: «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم». أفهم من هذه الآية أنها تعني أن مصائبنا يمكن أن تقودنا أيضاً إلى ثرواتنا. فالأمور لا تسير على الدوام بالطريقة التي نتوقعها أو نخطط لها، ولكن هذا لا يعني أنها في نهاية المطاف سيئة بالنسبة لنا. فلقد قادتني مصاعب الحياة التي مررت بها - كسوء المعاملة والفقر والفشل والخسارة - إلى حبّ جديد وفرح جديد ومكاسب جديدة وطرق حياة جديدة أفضل. لو كنت قد نظرت إلى تلك المصاعب على أنها سيئة وحسب، لأنني كرهتها في لحظة حدوثها، لكنت فقدت الكنوز التي تتضمنتها تلك المصاعب.

عندما نتنازل عن أفكارنا الراسخة عمّا يجب أن تكون عليه الأمور، تولد خياراتٌ أخرى. هذا لا يعني أن ذلك أمرٌ سهل المنال. فلوقتٍ طويل من حياتي، لم أتح الفرصة لنفسي بالاستمتاع بالتخلي لأنني كنت مشغولةً في محاولة إنجاز وإكمال ما أصبو إليه. إذ أنني كنت أرغب في ضمان نتائج جيّدة في عملي وفي الحب والأسرة وفي كل شيء كنت أفعله. في غضون هذه العملية، حاولت السيطرة على العديد من جوانب حياتي قدر استطاعتي. كنت أظن أن هذا هو أفضل السبل - والسبيل الوحيد - للسير إلى الأمام. كنت أريد أن تنجح مشاريعي الإنسانية والإعلامية، لذلك كنت أراقب كل نقاش وقرار سواء أكان صغيراً أو متوسطاً أو كبيراً. كنت أخشى أن يتم إيدائي في العلاقات، لذلك كنت أقوم بدراسة كل شخص كنت أواعده بدقة. وكنت أود القيام بتحليل شخصيته وأفعاله للتأكد من عدم وجود علامات خطر. هل كان يبقي على اتصالٍ كافٍ؟ هل كان يقوم بطبخ العشاء لي ويتذكر الأظعمة المفضلة لدي؟ هل كان يفاجئني بأشياء جميلة كالزهور وكعكة الشوكولا المفضلة لدي؟ هل كان يتصل بما فيه الكفاية أثناء سفره؟

يبدو أن الحاجة إلى السيطرة كانت تضمن نجاحي وسلامتي. لذا عندما حصلت على فرصة لزيارة مدينة مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، وهي بلدٌ كنت أخشاه، كانت تتملكني الرغبة في السيطرة على كل جانبٍ من جوانب هذه التجربة أيضاً. لقد تعلمت خلال هذه الرحلة المعنى الحقيقي للتخلي.

على مدى سنوات عديدة لم أكن حتى أفكر بأن قدمي ستطأ المملكة العربية السعودية. إذ أنها كانت دولةً إسلاميةً محافظةً وكان تفسيرها الصارم للقوانين الإسلامية يصيبني بالرعب. إذ كانت «الشرطة

الأخلاقية» في البلد، عندما كانت سارية المفعول، تفرض تفسيراً ضيقاً للإسلام في حياة الناس اليومية. تم تحديد الكثير من السلوكيات العادية في المملكة العربية السعودية، بما في ذلك ما يمكن للناس (وخاصة النساء) ارتداؤه، والكيفية التي يجب على الناس أن يصلوا بها، والكيفية التي يمكن للرجال والنساء التفاعل مع بعضهم. عندما كانت الشرطة الأخلاقية تكشف عن مخالفة، لم يترددوا في مواجهتها علنياً. كنت قد قرأت العديد من القصص الإخبارية عن نساء تعرضن للضرب أو حتى للجلد في مركز تجاري أو أثناء المشي في الشارع بسبب كاحل مكشوف جداً أو بسبب حجاب لم يتم إسداله بما يكفي. وبصفتي امرأة، قاومت الذهاب إلى بلد لا يمكن فيه حماية حقوقي الأساسية، حيث لا يُسمح لي بالقيادة، وحيث لم يكن بمقدوري ارتداء الملابس التي أراها ملائمة، أو التنقل بحرية.

عندما دعاني معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا إلى المملكة العربية السعودية في ربيع 2016 لإلقاء الكلمة الرئيسية في مؤتمر للشباب العربي من الرجال والنساء حول الابتكار في العالم العربي قررت أن أنحي مخاوفي جانباً. فإذا كان هدي يتمثل في أن أحيا حياة من الحب بدلاً من أن أحيا حياة من الخوف، فهذا يعني أن أرغب بمواجهة هذا الخوف على وجه الخصوص. فقررت أن أغتنم الفرصة التي قُدمت لي.

كنت أتوقع أن تكون السعودية بلداً قاسياً وقمعياً، ولكن الأمر الذي أثار دهشتي أنها كانت دولة جميلة ومشرقة. وصلت إلى جدة، وهي مدينة ساحلية على البحر الأحمر، حيث توجد مجموعات من أشجار النخيل الباسقة بينما كان لون مياه البحر أزرق غامقاً حدّاً لصحراء البلد الشاسعة. كانت جدة عبارة عن مزيج من الشوارع القديمة الضيقة والساحرة وناطحات السحاب المعاصرة والمقاهي الحديثة والمتاحف. كانت واحةً أنيقة.

كما أن الناس فاجؤوني أيضاً. كان التوتر يملكني في الطائرة. ماذا سيحصل لو لم أتمكن من ارتداء العبائة على نحو صحيح؟ عندما رأني موظفو المطار أعاني من صعوبة في ارتداء عباءة الكتان السوداء الطويلة التي كانت النساء مطالبات بارتدائها، أكدوا لي أنني لست مضطرة للبسها على نحو مثالي. وكان بمقدوري وضع وشاح الرأس على كتفي بدلاً من تغطية كل بوصة من رأسي. وعندما ارتديته، شعرت بأنه بسيط وأنيق، وليس كما كنت أتوقعه. وعندما دخلت المطار، استقبلني فريق من الطلاب أوكلت إليه مهمة الترحيب بي وبمقدمي المؤتمر. أخذوني إلى المطاعم والمقاهي الكائنة في جدة، وهم يظهرون لي مدينتهم بفخر. وفي جميع الأماكن العامة التي ارتدناها، فوجئت برؤية النساء والرجال يجلسون ويتناولون الطعام سويةً ويدخنون الشيعة. وكانوا يبدو مرتاحين ومسترخين سويةً. كل هذه المشاهد والتجارب كانت مخالفة لتوقعاتي وأفكاري المسبقة عن المملكة العربية السعودية والتي وضعتها على طريق الإعلان الغربي.

كان أصدقائي الجدد الشبان والشابات طلاباً وطالبات من رياديين الأعمال الحرة الصغيرة، من جميع أنحاء الشرق الأوسط، وتطرت محادثتنا لطيفٍ واسع من المواضيع. تحدثنا عن الحبّ والعلاقات والفن والمشاريع الطموحة، وسمعت تعليقاتهم الاجتماعية حول حالة الإصلاح في المملكة العربية السعودية. كانت الثقافة السعودية شيئاً منغلِقاً على ذاته رافضاً كل التغيير الحاصل في العالم عامة وفي الشرق الأوسط. بدلاً من أن تصبح أكثر تقدمية مع نمو ثروتها من النفط على مدى العقود العديدة الماضية، أصبحت أكثر انغلاقاً تحكمها التقاليد المترتبة والموجهة قبلياً بشكل صارم وجامد في تطبيق وتطوير القوانين. فأصبحت حقوق النساء في غاية المحدودية.

قالت هند وهي شابة سعودية بشعرٍ مجعدٍ وغمّازةٍ جميلة على خدها الأيمن وكانت قد درست الأعمال والاتصالات في جامعة هارفارد: «أعرفُ أن هناك الكثير من القضايا التي تخص بلدي، أقوم أنا وأصدقائي إضافةً إلى العديد من الأشخاص الآخرين بممارسة الضغط من أجل التغيير. ولكن يصعب عليّ أن أكون جزءاً من النقد الجماعي للمملكة العربية السعودية من الخارج. بعد كل اعتبار، إنه بلدي، وأنا أحب هذا البلد. لذلك من الأسهل بالنسبة لي ممارسة الضغط من الداخل».

ذُكرت نفسي بأن الأشياء الجيدة والسيئة والقيحة موجودةٌ في كل مكانٍ حتى في السعودية أقوى بلدٍ إسلاميٍّ وأكثرها محافظةً. كانت هذه الشابة السعودية ترى جمال بلادها في علاقاتها الأسرية القوية وفي حبها للشعر ولروح الدعابة والكرم تجاه الآخرين. كان الأمر أشبه بمرساةٍ ثقيلةٍ بقممها المتطرفة داخل الإسلام والتي منعت السعودية وبقية العالم الإسلامي - والذي كان يتأثر أحياناً بالمال السعودي - من المضي قدماً. دفعها حبها إلى محاولة تحسين بلدها بدلاً من التخلي عنه، على الرغم من القيود الحقيقية التي كان يفرضها عليها.

ساعدني اللقاء بهند والمشاركين والمشاركات الآخرين في المؤتمر في إضفاء الصفة الإنسانية على المملكة العربية السعودية. لقد كنتُ متعلقةً بفكرتي المسبقة عن البلد على أنه في غاية القمعية لدرجة أنني لم يكن بمقدوري رؤية أبعد من تلك الفكرة، لأرى بالفعل شعبها وجمال ثقافتها. لم تختفِ مخاوفي السياسية بشأن تأثير المملكة العربية السعودية على العالم الإسلامي الكبير خلال هذه الزيارة، لكنني الآن أملك رؤية أكبر وأكثر تعقيداً عنها. فمن خلال اتخاذ القرار بالنظر إلى خوفي في عيونهم، وألا أسمح لذلك الخوف بأن يتحكم بنفسي، تمكنت من رؤية القصة الكاملة. كان عليّ أن ألقى نظرةً على أفكار الجائحة الماضية.

قابلت خلال المؤتمر نفسه العديد من الشابات والشبان الذين كانوا متحمسين لمشروعهم الاجتماعي أو التجاري الصغير. كان مصدر إلهام. قدّمت امرأةً مصرية نظام توزيع مياهٍ غير كهربي للمزارعين في المناطق النائية. وأظهر رجل أردني كيفية صنع الأطراف الصناعية بأسعارٍ معقولةً للاجئين العرجان. كان هنالك آلة كاريوكي باللغة العربية، صممها أحد اللبنانيين الشباب الذين حضروا المؤتمر.

أثناء المحادثات التي أجريتها في نهاية ذاك الأسبوع علمت أن مكة المكرمة، المكان المقدس لدى المسلمين، كانت تقع على بعد ساعةٍ فقط من المكان الذي كنت أقيم فيه في مدينة الملك عبد الله الاقتصادية. لم أكن أدرك أنني كنت قريبة جداً. كنت في هذه المرحلة من حياتي في غاية الاهتمام باستكشاف معنى الله في مختلف السياقات والأديان والبلدان، وكنت أمارس ما كانت تقوله لي أمي دومًا: إن الله موجودٌ في كل مكان. قررت أنني لا أستطيع أن أكون قريبة جداً من مكة دون أن أذهب إليها. كانت تحت مرمى بصري، وكان الفضول يملكني.

إن الحج إلى مكة المكرمة هو أحد أركان الإسلام الرئيسية. لكن وبما أنني نشأت في أسرة مسلمة علمانية، وليست متدينة فإن تحقيق هذه المبادئ لم يكن أولويةً بالنسبة لي. كان الإسلام في الغالب جزءاً من ثقافتنا وحياتنا اليومية. هذا يعني أننا لم نكن نتناول لحم الخنزير وكنا نصوم رمضان ونحتفل بالعطلات الإسلامية المعتادة مثلنا مثل الجميع من حولنا. لم تكن الصلاة لخمس مراتٍ في اليوم أو العبادة في المسجد أو القيام بالحجّ جزءاً من حياة عائلتي. كنّا ننظر لممارسة الشعائر الدينية باعتبارها مسألة خاصة يجب أن يقررها

الفرد في علاقته بالله. وحتى عندما أصبح والداي أكثر تمسكًا بالدين في سنواتها الأخيرة، لم يعترضاً أبداً على أساليبي التي كانت أقل تمسكاً بالدين.

على الرغم من أنني نشأت في عائلة غير ملتزمة بالدين فإن في قلبي حب عميق لله. فعندما كنت طفلة، كنت أشعر بعلاقة ما بوعي أعلى. إذ أحياناً كنت أبكي بشعور غامر من الرهبة والحب عندما كنت أسمع صدى الأذان يتردد في سماء بغداد أو عندما كنت أسمع كلمة «الله» وهي تُنطق بإخلاص. لكنني قاومت بشكل كامل احتضان الإسلام في وطني، لأنه وكما هو الحال مع أي دين مؤسسي تبدو القواعد والعقيدة والطقوس التي تلازمه قمعيةً ومتشددة. لا يبدو أنها تسمح بالاتصال بما هو إلهي حقاً.

قمت مع ذلك وعلى مدى رده طويل من الزمن باستكشاف تقاليد روحية أخرى كالتقاليد الخاصة بسكان الأميركيين الأصليين وثقافات الشعوب الأصلية في أميركا الجنوبية ومختلف مدارس البوذية. ولقد أتاح لي عدم ارتباطي بهذه التقاليد التواصل على نحو أكثر فهماً مع فلسفات تلك التقاليد في الحياة ومراقبة عاداتها وحرركاتها بطرق كنت أرفضها في تقاليدي الدينية. أما اليوم، فربما صلّيت مع السكان الأميركيين الأصليين والمعابد البوذية أكثر مما صلّيت في وقت مضى في المساجد الإسلامية.

عندما استمعت لفرجينيا، وهي من الأمم الأولى 1 (First Nations)، من قبيلة أنيشينابه في شرق كندا، وهي تتحدث عن أهمية الطقوس فقد نفرت من الفكرة. إذ أنني كنت أرغب في الهروب من الطقوس، وليس المشاركة في طقوس جديدة. لكن تذكرت كيف أن والدتي كانت دائماً تقول لي أن أبحث عن الله في الأشجار، في الأرض، وفي الهواء الذي أتفسه، وبمرور الوقت، شعر الأميركيون الأصليون بطبيعتهم الطبيعية والطيقة. واستطعت الاستماع إلى فيرجينيا وقبول حكمتها. تعلمت الصيام، وبناء أرضية من خشب الأرز، وجمع الخشب اللازم لمراسمهم. أصبحت أكثر انفتاحاً على فهم تقاليدها، وفي الوقت المناسب، قادني ذلك إلى دائرة كاملة، وعدت إلى فهم تقاليد الإسلام التي ربيت عليها بطريقة أعمق وأكثر أصالة. والحق يقال، كنت ما زلت متوترة لزيارة مكة المكرمة، على الرغم من تجربتي الترحيبية الرائعة في المؤتمر. إذ ما زلت أخاف الكتبة المتعصبين أو الشرطة الذين قد يوبخوني لعدم تغطية نفسي أو التصرف بشكل صحيح. كانت هذه المخاوف قوية جداً في ذهني على الرغم من أنني لم أطالب بتغطية شعري في الأماكن التي زرتها حتى الآن، لكنني ظللت أخشى من الصراخ أو ما هو أسوأ من ذلك. لكنني قررت أنني لن أسمح لخوفي بالوقوف في طريقي. أردت أن أختبر المكان المقدس الذي يحياه الملايين من المسلمين حول العالم كل يوم وهم يصلون صلواتهم. كنت أرغب في تجربة هذا الموقع المقدس بنفسني.

«لا داعي للقلق»، قالت أميرة سعودية كانت تتحدث أيضاً في المؤتمر. التقينا في مأدبة غداء تم تقديمها لبعض المشاركين. كان من الصعب أن تفوت الانتباه لها، فكانت جميلة وأنيقة بكل التفاصيل، من حذائها إلى مكياجها الذي لا تشوبه شائبة. عندما سمعت ترددي لزيارة مكة، عرضت على الفور المساعدة. «إنها تجربة جميلة جداً»، قالت بالإنجليزية البريطانية وبطلاقة. «أفضل وقت للذهاب هو الفجر، عندما يكون الطقس جميلاً. سأرتب لك برنامجاً شخصياً ودليلاً وسائقاً لك في أي وقت تكونين مستعدة فيه. إنه جزء من ضيافتي لك كضيفة في بلدي. ستكونين بخير يا عزيزتي». لقد شعرت بالارتياح. ظننت أن طاقم الأميرة سيساعدونني على تجنب الحشود الضخمة وحماتي من الشرطة الأخلاقية. بعد يومين تم تثبيت الموعد صباح اليوم، استيقظت في الساعة الخامسة صباحاً، وقمت بالوضوء، وغسلت يدي، وقدمي، ووجهي، وشعري وصلت مثلما تعلمت في مدرستي الابتدائية في بغداد عندما علمونا كيفية الصلاة: «دعوت الله أن يوجهني

إلى الطريق الصحيح». ارتديت ملابسني و قمت بوضع عباءة الكتان الأسود فوق ملابسني والوشاح الأسود فوق راسني. لقد قابلني سائق في ردهة الفندق في مدينة الملك عبد الله الاقتصادية ليأخذني إلى مكة. وأثناء رحلتنا، سمعنا الأذان، مرددًا في السماء. نداءً يذكرنا بوجود الله في كل مكان. لقد فتحت نافذة السيارة لسماع الأصوات المقدسة بالمرور مع نسيم الصحراء الصباحي. مهما كان قلبي مليئًا بحب الله، كان لا يزال يحتوي قليلاً من الخوف. و سرنا بالطريق وسارت الأمور بسلاسة حتى وصلنا إلى مكة واكتشفنا أن جميع الطرق القريبة من المسجد كانت مغلقة. فالسيارات لا تستطيع الاقتراب لإنزال الركاب. كانت الحشود تتشكل بالفعل، وبدأ أن آلاف الأشخاص كانوا يملؤون الشوارع. لم يكن لدي أي فكرة عن المسافة التي تفصلنا عن بيت الله، حيث يجري الحج رسمياً. ميل؟ ميلان؟ ثلاثة؟ بعد فترة قال، بعريته ذات اللكنة الباكستانية: «سيدتي، جميع الطرق مغلقة». «هل تريدون المشي؟ أم هل ينبغي عليّ أن أستمّر في المحاولة؟»، قلت: «دعنا نرى ما إذا كان هنالك طريق آخر مفتوح». انقضت أربعون دقيقة أخرى. وسأل السائق نفس السؤال، وأجبت نفس الجواب. كان من الواضح أخيراً أنه يتوجب عليّ إما أن أستسلم وأن أعود إلى الفندق أو أن أخرج من السيارة وأسير بين الناس.

أنا من الناس الذين يتوترون عند المشي في وسط الحشود الهائلة في أي مكان في العالم. فأشعر بالاختناق والنرفزة، من ذلك. وشعرت بالمزيد من القلق في هذه الحالة حيث أنني كنت امرأة وحيدة في بلد أجنبي من دون دليل يساعدي في العثور على طريقي. وزاد ذلك من خوفي الموجود مسبقاً.

لقد توجّب عليّ اتخاذ قرار. خرجت من السيارة وقررت المشي بغض النظر عن ترددي، ودعت سائقي ودخلت الحشد. كنت على ثقة أنني حالما أعرثر على دليلي قرب أبواب الكعبة الرئيسية سأشعر بالأمان.

مشيت ومشيت. كان الطقس حارًا ورطبًا. مشيت ومشيت، وشققت طريقي بين الناس من جميع الجنسيات ومن كل الألوان والأعراق. ووصلنا إلى البوابة الرئيسية بعد أكثر من نصف ساعة من المشي. قلت لنفسي الآن سأعرثر على دليلي. ولكن لم أتمكن من العثور على رقمه الخليوي عندما فنشت حقيبتني وهو الأمر الذي سبّب لي الفزع. أدركت أنني قد تركته مع السائق. وكان يتوجّب عليّ السؤال عن المكان الذي يتجمع فيه الأدلاء.

أرسلني الشخص الأول الذي سألته في أحد الاتجاهات. وأرسلني الشخص التالي الذي سألته في اتجاهٍ آخر. ومشيت ذهابًا وإيابًا من نقطة إلى أخرى بحثًا عن الدليل. ولم أكن أصل إلى أي مكان.

لماذا كان يحدث هذا؟ لماذا تغلق جميع أبواب العمرة في وجهي؟ لقد أتيت مفعمةً بالإثارة وبقلب مفتوح. كنت قد تغلبت على مخاوفي وآرائني المسبقة، وكنت أتوق إلى التصالح مع تقاليدنا الروحية. حتى أنه أتاحت لي خطة شخصية مهمة جدًا وضعًا مثاليًا لحمايتني! ومع ذلك لم يكن ثمة شيء يترشح. ولم أستطع الحصول على التجربة التي كنت أريد.

وبعد أن حبست دموعي، اقتربت أخيراً من رجل شرطة. كان زيه العسكري هو ما كنت أخافه وأحكم عليه من سنوات بعيدة. لكن في تلك اللحظة، لم يكن لدي خيار آخر سوى أن أطلب منه المساعدة.

قلت وأنا أتشبث بحقيبتني: «أنا ضائعة، وأنا لا أستطيع العثور على دليلي». وبدأ وجهي ملتويًا بفعل الإحباط: «هل يمكنك مساعدتي؟».

قال بصوت لطيفٍ: «يمكنني إخبارك أين يوجد المرشدون. ولكنك تبدين محبطة لدرجة أنني أشعر أنك لن تصدقيني بغض النظر عما أقوله».

خيم الصمت عليّ. ورأى قلقي على نحوٍ واضح.

فقال: «على أي حال، لماذا تريدان دليلًا؟ يمكنك القيام بالزيارة بنفسك».

قلت وقد تملكنتني الرغبة في البكاء: «أنا لا أعرف كيف!». ومع عبارة التعجب التي تلفظت بها، التفت عيناه بعينيّ. شاهدت عينين تقطران بالطيبة.

سأل بلطفٍ: «هل أنت وحدك في الزيارة؟». كان يعلم تمام العلم أنني بحاجة إلى رفيقٍ في مثل هذه الرحلة المهمة، على الرغم من أنه كان من المقبول بالنسبة لي أن أزور بيت الله الحرام بنفسِي. ففي قلب التعاليم الإسلامية، يسير النساء والرجال جنبًا إلى جنب دون فصلٍ بينهم. وهم سواسية أمام الله.

قلت له: «بلى، أنا وحدي. وأخاف من أن يصرخ عليّ شخص ما جراء قيامي بشيءٍ خاطئ. لا أرغب أن يضايقني أحد ما في لحظة عبادتي». رفعت يدي وأسبلتها على جانبي، الأمر الذي جعل نسيج الكتان في العباية السوداء يتموج في الهواء.

«إن الأمر في غاية السهولة. تعالي وسأريك. وستحصلين على المزيد من البركات بهذه الطريقة. في البدء تقصدين الكعبة، وتطوفين حوله سبع مرات بعكس اتجاه عقارب الساعة. وبعد طوافك المرة السابعة، غادري الدائرة وصلي لتقديم الشكر لله. من هناك توجهي إلى الصفا والمروة، وهما تلتان صغيرتان داخل المجمع، حيث تمشين إحياءً لذكرى هاجر، زوجة النبي إبراهيم. امشي بين الصخرتين الكبيرتين سبع مرات - ويمكنك الركض أيضًا - وفي المرة السابعة توقفي وقصي قطعة من شعرك كأضحية. وهاك كيف تفعلين الأمر».

شكرته ووجهت بصري في الاتجاه الذي كان يشير إليه. على الرغم من ذلك كنت في حقيقة الأمر لا أزال محبطة خائفةً ومرتبكةً. وتابع كلامه وهو يشعر بقلقي: «يمكنك فعل ذلك. ولكن إذا كنت لا تزالين تريدان دليلًا، سأوضح لك مكان العثور على دليل».

«لا، لا. سوف أتبع التعليمات التي قدّمتها لي». الأمر الذي أثار دهشتي هو أنني وثقت بالشرطي. «أشكرك شكرًا جزيلاً مرةً أخرى».

انصرفت ببقية الشجاعة التي كانت لديّ وسرت باتجاه الحشد. ابتلعتني الحشود على الفور وحملتني الجماهير المتماوجة إلى الأمام. ولحظةٍ عثرت على بعض السكينة في نفسي ترددت الدعوة إلى الصلاة مرةً أخرى. لا يُسمح لأحد بدخول المجمع عندما يحدث هذا. إذ تُغلق الأبواب للتخصير للصلاة. وبدائي كما لو أن هنالك بابًا آخر يغلق في وجهي. سيتعين علينا الانتظار حتى اختتام الصلاة لمواصلة التقدم. انفجرت بالبكاء. وكان هذا لا ينفع حقًا.

لم أتمكن من المضي قدمًا كوني كنت محاصرةً بين الحجاج، ولم يكن بمقدوري العودة في تلك اللحظة. نظرت حولي والدموع تنهمر على وجهي. شاهدت مئات آلاف الناس من جميع أنحاء العالم: العرب والباكستانيين والصينيين والأميركيين والأفارقة والهنود وكل أنواع المسلمين الآخرين. كان الرجال ملفعين

بالإحرام البيضاء وكانت النساء يرتدين العباءات السوداء. كنا أشبه ما نكون بكتلة جميلة من الشرائط البشرية سوداء وبيضاء. وكان بوسعي رؤية الكعبة ماثلة أمامنا. ولدى رؤيتي لما كان الآخرون يفعلونه، عثرت على مكانٍ للجلوس على أرضية الفناء الرخامية الباردة. اتكأت على عمودٍ رخامي أبيض عملاق نُقشت عليه صلواتٌ ما وأخرجت نسخةً من القرآن الكريم فتحتته وبدأت القراءة.

عندما نأخذ القرآن بروحه الصحيحة، في سياقه بدلاً من حرفيته، يؤلف القرآن سيمفونية جميلة من الكلمات والحكمة. فالله ليس ذكراً ولا أنثى. والله لا يلد ولا يُولد. والله ليس الحب والخوف فقط، لأن الله هو كل شيء. يتم التعبير عن هذا على نحو جميل في تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله الحسنى الواردة في النص القرآني، وكل منها يحمل المعنى المعاكس لبعضها بعضاً: فالله هو الغفور المنتقم، والقابض الباسط، والعدل اللطيف، وهلم جرا حتى الاسم مئة والذي تُرك مجهولاً. والله يشمل كل هذه المشاعر والخبرات ولكن في نهاية المطاف هو كائنٌ خارجها.

كنت جالسةً على الأرض في الفناء في ذلك اليوم أجفف دموعي ولم أكن قد قطعت شوطاً كبيراً في قراءة القرآن. لا غرو في ذلك، إذ كنت أعتقد أن ثمة الكثير من المدارس الفكرية في الإسلام لأن ثمة العديد من التفسيرات المختلفة للقرآن. أغلقت الكتاب. كنت أريد الآن أبسط شيء: أن أكون مع الله من كل قلبي. لقد حاولت ذلك مراراً وتكراراً. إذ كانت لديّ الملابس المناسبة، وكان لديّ الإرشاد الصحيح وكنت قد مشيت وتغلبت على خوفي من الشرطة الأخلاقية، وكنت قد قدّمت كل ما بوسعي ومع ذلك باءت كل جهودي بالفشل. ففكرت أن أفعل الشيء الوحيد المتبقي والذي ينبغي القيام به ألا وهو الصلاة.

قلت في قلبي: «أنا مرتبكة يا الله». لا أعرف معنى هذا. فقد أتيت بقلب مفتوح، لكن الأبواب المؤدية إلى بيتك المقدس توصلت في وجهي. ولذلك سأتحلى عن كل خططي الآن. وسأستسلم ببساطة».

في تلك اللحظة بعد أن جلست وسط هذا الحشد من البشر هدأ قلبي وسكنت نفسي. بدأت الدعوة إلى الصلاة: «لا إله إلا الله». راودني التفكير بأن هذا هو الإسلام الذي أعرف، فهو لا يدعو للتفرقة ولا يقوم بعملية ترهيب وهو لا يعامل المواطنين كما لو كنّ خطراً ولا يصور الأجانب والغرباء بشك. إنه يدور حول الحب وحول الحركة معاً كجسدٍ واحد. هذا هو الإسلام الذي يريد الجميع اختباره، والذي أريد اختباره بنعمة تقاليد الروحية وجمال تعاليمه المتعلقة بالتواضع واللفظ. أدركت في تلك اللحظة أنني لم أكن بحاجة إلى الإرشاد أو الحماية للقيام بالصلاة.

يعبر الصوت الذي يدعو للصلاة عن توقه العميق إلى الله. وقد ألهمنا ذلك الصوت بينما كنا نجلس جنباً إلى جنب على الأرضية الرخامية في حالة من الاستسلام والخضوع. لو كنت طائرًا يطير من فوق، لكان بإمكانني رؤية خطوطنا السوداء والبيضاء وهي ترقع في نفس اللحظة وتردد بصوتٍ واحدٍ نفس الصلاة، الصلاة التي لم أصلها لسنواتٍ منذ طفولتي. كنا نقول مئات الآلاف من كلمة آمين بنفس الوتيرة، وكنا نردد نفس الكلمات بقلبٍ واحد. كنا هناك جسداً واحداً ملوكاً وملكاتٍ وخدمًا ومزارعين. لم يكن ثمة طبقة ولا عرق ولا جنس ولا تمييز بين الرجال والنساء، لم يكن ثمة فصل بين من يملكون ومن لا يملكون وبين المعلمين والأمينين. كنا كياناً واحداً في حبنا وفي شوقنا وفي خضوعنا للذات الإلهية. لم أكن سوى مخلوقة على قدم المساواة مع جميع الناس من حولي.

انهمرت دموعي خارجة عن سيطرتي وكان هذا تمامًا حال الجميع من حولي. واستدرت في نهاية الصلاة إلى يميني وشكرت الملاك على كتفي الأيمن واستدرت إلى يساري لأشكر الملاك على كتفي الأيسر كما هي العادة. ثم نظرت إلى المرأة الكائنة إلى يميني وصليت من أجل بركاته، الأمر الذي فعله من أجلي، ثم استدرت إلى المرأة الكائنة على يساري وفعلت الأمر ذاته من أجله.

وفُتحت الأبواب إلى الفناء مع انتهاء الصلاة، وانتقلنا ببطء للانضمام إلى الحشد وهو يدور حول الكعبة وسط ساحة المسجد. كان الحشد كبيرًا ضخمًا بحيث لم يكن لدي سوى خيارين لكيفية المشي: إمّا التصلب خوفًا من الحشود أو الاستسلام لتضخم الأشخاص الذين كانوا يمشون ويتأرجحون حول الكعبة في دوائر بطيئة. فقررت الاستسلام. إذ أنه كان الخيار الأكثر أمانًا. كان من الأيسر التناغم مع إيقاع الأجسام وهي تتحرك في حركة واحدة على مقاومة ذلك الإيقاع.

نظرت إلى كل الوجوه الموجودة حولي في المربع. كان البعض يبدو عصريًا وظريفًا في حين كان البعض الآخر يبدو تقليديًا وكان البعض يبدو كالأصوليين. وقد كان البعض لطيفًا في حين كان آخرون يبدوون كريهين. لكن كان ثمة أمر واضح وضوح الشمس: كنّا جميعًا مع بعضنا وكنّا جميعًا كلاً واحداً، لقد كنا نمشي رجالاً ونساءً كتفًا إلى كتف، وجسدًا إلى جسدٍ بجانب بعضنا بعضًا. إنه أمرٌ صحيحٌ أن بعض الأشخاص في الحشد كانوا يتصرفون بشكل سيء إذ كانوا يجلسون في خضم الدوران، الأمر الذي كان يزعج الجميع من حولهم. تحرك شابٌ لإيقافهم لكن صديقه أخبره أن يتركهم وشأنهم بما أنهم لم يكونوا يعرفون ما هو أفضل. راودني التفكير كم كان ذلك جميلًا. كان الجميع يتحركون في وحدة بدلاً من أن يفسحوا المجال لأولئك الذين كانوا يسيئون التصرف يقصونهم عن قوة اللحظة. بدا الأمر كما لو كان كل واحدٍ منّا قطرة ماءٍ في بحر إنسانيتنا الواسع. ترافق ذلك مع نسيم السلام الذي زاد من رحابة كينونتي بالحب والتواضع العذب. ولم تكن أناي الفردية تمثل شيئًا أمام الله ولم تكن تمثل شيئًا وسط تدافعنا الجماعي. لم يكن ثمة ما هو جيد أو سيء ولم يكن ثمة خوف أو كراهية.

نظرت إلى السماء. وكل ما كان بإمكانني سماعه كان صمتًا تكسره أصوات الدعوات المتلهفة المجاورة لي: «ساعمني يا الله! ارحمني يا الله!» لقد حملت هذه الأصوات قلبي على أجنحتها. وانضمت إلى تلك الأصوات وصرخت من أجل غفراني ومن أجل سلامة عائلتي وسلامة أصدقائي وأحبائي. بكيت حبًا. وبكيت وأنا أصلي من أجل أن يحل السلام في بلدي العراق وفي جميع أنحاء العالم. الأمر الذي أثار دهشتي أنني بكيت وأنا أصلي من أجل الذين آذوني بعمقٍ شديدٍ في حياتي، من أجل أناس كنت أنظر إليهم كأعداء. أدركت بعد ذلك أنني كنت أفكر في أعدائي في كثيرٍ من الأحيان، كنت أفكر فيهم كل يوم تقريبًا لدرجة أنهم أصبحوا قريبين من قلبي كالعائلة. فصليت من أجلهم أيضًا في تلك اللحظة من الحب والنشوة. كنّا كلاً واحداً وكنّا متساوين أمام الله.

لم يكن الخروج من الحشود الهائلة بالأمر السهل عندما أنهيت الجولة السابعة، لكن مجموعة من النساء أحاطت بي فجأة وساعدتني في الاندفاع معها. جلست لأصلي صلاة الشكر كما أخبرني الشرطي أن أفعل. من ثم حل الجزء الثاني من الطقس المتمثل في المشي سبع مرات بين الصفا والمروة. كما شرح لي الشرطي عندما كنت ضائعة، كان هذا الطقس إحياءً لذكرى هاجر والتماسها للماء عندما تم التخلي عنها وعن ابنها اسماعيل في الصحراء. تمت الاستجابة لصلاتها بالماء والتمور، وهو الأمر الذي أنقذهما من الموت المؤكد.

التحقت بآلاف الأقدام التي كانت تحكي ذكرى إيمانها وهي تصلي من أجل البقاء ومن أجل معجزة خلاصها.

عندما كنت أسير على خطى هاجر، بدأت أطلب الصفح عن سلوكي المتكبر. لقد كنت متعلقة جداً بتجربة ذات امتيازات خاصة جداً بهذا الحج، ونتيجة لذلك انغلقت الأبواب في وجهي. كنت أشكر الله الآن على تلك العقبات التي نشأت في وقت سابق من اليوم والتي أجبرتني على التخلي عن خطتي. خبرت هذا الجمال الرائع للتحرك مع الجميع وتحريك الجميع لي، فيما يشبه محيطاً من المحبة، فقط من خلال التنازل عن متعلقاتي للحصول على ترف وحماية سيارة الأميرة ودليلها. انفتحت الأبواب عندما تركت الأمور تسير على عواهنها وعندما استسلمت للمجهول وللغز اللحظة.

كل ما يمكننا القيام به في لحظة التخلي هو مراقبة ما يحيط بنا ورؤية المكان الذي تحملنا اللحظة إليه. يمكن أن تبدو تلك اللحظة وكأنها الخلود الكائن بين التوتر الناجم عن عدم معرفة الكيفية التي ستسير الأمور فيها، والارتياح الناجم عن إدراك أن كل شيء على ما يرام، بين التقاط أنفاسنا وإطلاقها مرة أخرى، وبين الشعور بالإحباط والشعور بالسلام. يبدو التواجد في تلك اللحظة من المجهول وكأنه سحر الجمال. على الرغم من أن نتائج التجربة قد لا تؤدي إلى ما خططنا له، فخلف لحظة التخلي ثمة مستودع من الحب والذي كان تجربته أجمل لذة.

ربما أتاحت لي تجربة فريدة في زيارة مكة المقدسة، لكن ليس ثمة ما هو فريد في تجربة التخلي ذاتها. فهي متاحة للجميع. تقلنا هذه العملية من الرغبة في السيطرة على موقف ما، إلى أن نصبح جامدين بسبب الإحباط، إلى أن نشعر باليأس والتخلي عن خططنا، حتى نخبر في نهاية المطاف روعة نتيجة غير متوقعة على الإطلاق، نتيجة لم نكن نتخيلها أبداً لأنفسنا. يمكننا المرور بهذه التجربة على الدوام، إذا نحن راقبنا لحظتنا فقط واستوعبنا دروسها. فالتخلي ليس أمراً سلبياً. والأمر لا يتعلق بالتخلي. ولا يتعلق الأمر بعدم تحضير أنفسنا للأمر والخبرات التي نريدها. ويعلمنا التخلي أن نراقب دورة الحياة. إذ يمكن أن تؤدي حيبة عاطفية إلى حب جديد أفضل من الحب القديم. كما يمكن للموت أيضاً أن يؤدي إلى حياة جديدة بعده.

حلمت بعد عدة ليالٍ من تجربة الحج أنني سألت الله: «هل كنت في مكة يا ربي؟» كل ماسمعتته هو: «لم أكن هناك. كان الحج إلى الكعبة يدور حول جمعكم جميعاً في مكان واحد حتى تتمكنوا من رؤية بعضكم بعضاً».

كان حجّي إلى مكة بمثابة رحلة، ولم يكن رحلة إلى جوهر دين من الأديان، بل رحلة إلى جوهر وحدتنا الإنسانية. فنحن نحارب بعضنا بعضاً ونحارب واحدنا الآخر قائلين: «يجب الله هؤلاء الناس فقط ولا يجب أولئك الناس». «إلهي أفضل من إلهك»، وهلم جرا. لكن الله واحد ولا يتجزأ. ليس لدى الله شعب مفضل ولا موارد تجف. ومثله مثل الأرض، فإن الله يدور حول الوفرة ولا يدور حول الندرة. أنا لا أعرف ما هو الله بأي معنى مطلق، ولن أدعي ذلك على الإطلاق. فحبي لله هو بمثابة قفزة للإيمان إلى شيء يتعذر عليّ فهمه. ولكنني أعرف أنه موجود وأنه حقيقي مثله مثل الهواء الذي أتنفسه. كانت تتوفر لدي حرية تجربة الجمال المطلق والحب المطلق الذي لم أكن أعرف أنها متاحان لي طوال الوقت عن طريق التخلي عن خوفاً ومتعلقاتي. ما الذي سيحصل لو أننا سمحنا لأنفسنا بأن نتنفس بكامل رئيتنا واسترخينا في قوتنا واتساعنا

من دون التفكير والتخطيط لأيّ توقعاتٍ صارمةٍ لما يجب أن يحدث لكي نصبح سعداء؟ وماذا لو أننا عشنا كل جانب من جوانب حيواتنا في هذه الحالة من القبول والتخلي؟ إنها بمثابة خطوة نحو العيش بحرية.

بدا الأمر لي بعد أن فكرت بفرجينيا وبتقاليد السكان الأصليين الجميلة التي علّمتها لي على مر السنين، أنني كنت قد جبت جميع أنحاء العالم لمجرد أن ينتهي المطاف بي في صميم فؤادي وفي الجمال الذي يكمن في مركز التقاليد الخاصة بديني، الإسلام.

الفصل الثامن

الحرية مهمة داخلية

«يمكننا السير على طريق الحرية عندما نتخلى
عن مخاوفنا ونجروا على أن نكون أنفسنا من نحن
حقاً»

سعت خلال هذا الكتاب لتسليط الضوء على فكرة أن الحرية تنبع من الداخل، تنبع من حيازتنا لظلمنا ونورنا ومن الخوض في حقائقنا بكل تعقيداتها. في كثير من الأحيان، نَعْنى بالعالم المادي من أجل أفكارنا المتعلقة بالجمال والسعادة. إذ أننا نعتقد أن ثوباً أو سيارةً أو نوعاً معيناً من المنازل سيحقق لنا إنجازاً ما نتمناه. فإذا كنا نعيش في حيٍّ معين، أو كنا متزوجات من نوع معين من الرجال، أو إن كانت لدينا صديقة من مظهرٍ معين، فإننا نشعر بالثقة. ونرى صوراً للجمال المبهج وللشهرة وللنجاح الهين في كل مكانٍ من حولنا، فنعتقد أنه يمكننا أيضاً أن نحظى بالسحر والفرح الذي تعد به تلك الأشياء. لكن مشاركة تلك الأفكار والصور تولد رغبةً لا تُقهر بالمزيد والمزيد من الأشياء. في حقيقة الأمر مشاعر القلة لدينا هي التي تغذي تلك الرغبة، ولا تغذيها مشاعر الرفاهية لدينا. فنحن نشعر بالخرج إزاء ما لا نمتلك، ونشعر بالخوف من أننا لن نمتلكه أبداً. ومن ثم نحاول التستر على هذا العار والقلق بالقيام بالمزيد من عمليات الشراء والاستحواذ.

تنبع الحرية والحب والفرح والسلامة التي نرغب بها جميعاً فقط عندما نعثر على معناها في أنفسنا. فالحرية هي مهمة داخلية. وليس بوسع أحد القيام بذلك من أجلنا وليس بمقدور أحد بيعها لنا. و فقط عندما نرى أنفسنا - نرى أنفسنا على ما هي عليه حقاً - نرى أن الجمال يحيط بنا. ففي رحلتنا الداخلية نعثر على الرضا الدائم الذي نبحت عنه. فالتحرر من المضاربة والمتاجرة وكل الأنواع من الحكم والسيطرة، هي في واقع الحال مهمة داخلية.

لم أكن أعتقد أنني كنت جميلة لمعظم الوقت. فعندما كنت طفلةً، كنت أشاهد مسابقات ملكات الجمال، وشعور بالرهبة يتملكني تجاه جميع النساء اللاتي كنّ يتنافسن. إذ كنّ يمتلكن شيئاً لن أمتلكه أبداً: وكان نوعاً معيناً من الكمال. كانت مسابقة ملكة جمال فزويلا واحدة من أشهر مسابقات الجمال، إذ كانت تبث صور الجمال الأنثوي المثالي للملايين المشاهدين كل عام. كانت الحشود تزحف إلى العاصمة كاراكاس حتى قبل بدء المسابقة حيث كانت المتنافسات الشابات يتدرّبن ويتحضرن لها. وكان المعجبون الذين يصرخون ينتظرون كي يلقوا نظرةً عليهنّ، ويحملون لافتات عليها صور نسائهم الشابات المفضلات. كان المشهد شبيهاً بحضور حفلات الفرق الموسيقية وفرق السيرك.

الأمر الذي لم أكن أعرفه هو ما كان يتوجب على تلك النسوة مُقاساته للتوصل إلى هذا المظهر المثالي. كانت المتنافسات اللواتي يتم اختيارهنّ في نهاية المطاف للمسابقة يخضعن لتدريب صارم. وكانت المتنافسات يخضعن لحمية غذائية مكثفة ويتلقين تدريباً على الكلام والوضعيات والإعلام، ويتم تدريبهن للوصول إلى شكلهنّ المثالي ووجوههنّ المثالية والمشي المغربي بأحذية يبلغ ارتفاع كعوبها أربع بوصات. كما أنهن أجرين عمليات لتجميل أجسادهن لكي تصبح «مثالية».

لم يكن كمال جمال تلك النساء طبيعياً، إذ تم تصنيعه. كنّ جميلاتٍ، بالتأكيد، ولكن الطبيعة نفسها لا تجعل الجمال كاملاً بدون عيوب، حتى ولو كانت عيوباً صغيرة. يبدأ إنشاء صورهنّ عندما يقفن أمام مدير المسابقة وفريقه، وهنّ شبه عارياتٍ، لوضع كل شبر من وجوههن وأجسادهن موضع التدقيق. التدقيق بما يمكن تحسينه، والتدقيق بما يمكن جعله أكثر كمالاً، تصبح الشابات أشياء يتم صقلها إلى المثل العليا للجمال الأنثوي كما يطمح له الإنسان.

كانت أنجلكا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً عندما تم اختيارها للمسابقة النهائية. سمعت لدى مثلها أمام المدير وفريقه وهي ترتدي لباسها البكيني الصغير قائمةً بالعمليات الجراحية التي وصفها لها: جراحة للأنفٍ وجراحة للثدي وأخرى للأذن، وكان ينبغي أن تخضع لدورة من المنشطات لمنحها خصراً أكثر نحافةً. وتم إرسالها إلى نفس الجراح التجميلي الذي ذهبت إليه جميع النساء في كاراكاس. حالف الحظ أنجلكا. فالمتسابقات الأخريات خضعن لعدد من الجراحات أكثر من أنجلكا: إذ أنهنّ خضعن لجراحة الذقن والمؤخرة والوركين والشفاه... إلخ. لم يكن هناك أي جزء من الجسم لا يحتاج للتعديل كي يصبح الجسم كاملاً جميلاً بدون عيوب. رأت أنجلكا النساء الأخريات يخرجن في وضع أسوأ بكثير من الوضع الذي دخلن فيه. وعندما ذهبت إلى جراح التجميل أعربت عن خوفها فعقد معها صفقة: فهو لن يجري لها سوى تكبيرٍ للثدي والقيام ببعض الجراحات الطفيفة كي يريها للمدير. أفلتت أنجلكا بعملية جراحية واحدة. في حين خضعت النساء اللاتي لم يحتججن لكل عملية تمت التوصية بها. تناولت أنجلكا المنشطات لتخفيض وزن جسدها، وفي غضون العملية تغير صوتها وتعطلت دورتها الشهرية وعانت من تقلبات مزاجية.

لم تفز أنجلكا بلقب ملكة جمال فنزويلا، لكنها واصلت التنافس على لقب عارضة الأزياء الأولى في العالم. وظهرت في الحملات الوطنية للعلامات التجارية الكبرى، حيث واصلت مسيرتها في عرض الأزياء. وكان وجهها يظهر على غلاف مجلات الموضة في جميع أنحاء العالم وعلى لوحات الإعلانات في المدن العالمية الرائدة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الضغط من أجل الحفاظ على النحافة والخضوع للمزيد من العمليات الجراحية لم يفلح.

كان عالم عرض الأزياء مثله في ذلك مثل عالم مسابقات الجمال، له أسرارها المظلمة الخاصة به. إذ أن وكالات عرض الأزياء تبقي الفتيات في حالة من الدين المادي وكانت تقدم لهنّ أجرًا أقل. كان المصورون المفترسون يفترسون عارضات الأزياء اللواتي كنّ غالبًا مراهقات يتحدرن من أسر فقيرة ويعشن بعيدًا عن الوطن. وكان الرجال الأثرياء الذين كانوا يريدون الظهور في المدينة برفقة عارضات الأزياء يدفعون أجرًا جيدًا لشركتهنّ - وفي بعض الأحيان كانوا يتوقعون أيضًا مزايا إضافية. كانت العديد من الفتيات فقيرات للغاية بحيث لم يكن لديهن أسرة خاصة بهنّ، ناهيك عن شققهن الخاصة، لذلك كنّ ينمن معًا على فرش مضغوطة جنبًا إلى جنب على أرضيات الغرف المزدحمة. وفي سعيهن كي يبقين نحيفاتٍ، أصيبت بعضهن بالاضطراب، وأصبحت الأخرى مدمناتٍ على المخدرات. اعتادت أنجلكا على التدخين في سعيٍ منها للحد من شهيتها. وفي نهاية المطاف أصيبت بالشره المرضي.

كان حلم حياتها أن تصبح عارضة أزياء، ولكن وبعد سنوات من العيش على علبه من التونة يوميًا، أخبرها مصممو الأزياء أنها كانت مجرد شماعه ملابس، وأدركت أنه ليس بوسع أحد - أو من شأن أحد - حمايتها من التحرش الجنسي، وحتى عندما كانت سلامتها معرضة للخطر، بدأت أنجلكا تتساءل عن الثمن الذي يتوجب عليها دفعه لتحقيق هذا الحلم. كانت تعرف أنها كانت أكثر حظًا من عارضات الأزياء الأخريات. وبالرغم أنها نشأت في منزل متواضع، إلا أنه كان بوسعها العودة إلى عائلتها دائمًا. ففي كثير من الحالات، كانت عارضات لا يستطعن العودة إلى منازلهن. لذلك أصبحن معتمداتٍ على عملهن وعرضة للمخدرات، وبحاجة إلى النجاح، لذا فالانتهاك في هذه الصناعة كان معرفة مدى ضعفهنّ. فخلف صورة الجمال المثالي الذي كان يتم عرضه على العالم، كان نظامًا بشعًا من الجشع والاستغلال والإساءة.

قالت لي وهي تصف عالم عرض الأزياء: «يُفترض بالشخص ألا يفعل أشياء من شأنها أن تؤذي شخصه وروحه لتحقيق أحلامه. لا يحق لأي أحد أن يستعمل جسد المرأة أو روحها للتلاعب أو الاستفادة منه».

يتم تشجيع النساء في جميع أنحاء العالم على التطلع إلى مستوى من الجمال تم تصنيعه بالكامل تقريبًا. والأسوأ من ذلك، أن نظامًا من سوء المعاملة المالية والعاطفية وأحيانًا الجنسية يقوم بإنشاء صور الجمال هذه. لذا فإن الرسالة التي مفادها أننا إذا كنا جميلين، سنكون سعداء ومشهورين وناجحين ومثيرين وسنجد شريكنا المثالي ليس لها أساس على الإطلاق. إنها مجرد وهم. لكنها رسالة قوية في تأثيرها.

تدرك معظم النساء الضغط الذي يمثله الالتزام بصور الجمال التي تنهمر علينا يوميًا. وفيما يتعلق بي شخصيًا أيضًا، غالبًا ما تحملني هذه الصور على التفكير بأنني بحاجة إلى تغيير وجهي وجسدي وإصلاح أنفي الكبير وفخذي القبيح. هل فكرت شخصيًا في إجراء جراحة تجميلية؟ بالطبع فكرت في ذلك. وأواصل التفكير في ذلك، لأرى ما إذا كان بإمكانني إصلاح فخذي من خلال التمرين أولاً أو لأرى ما إذا

كان بإمكانني ادخار ما يكفي من المال للقيام بالجراحة أو أنني في غاية الخوف ، لكنني سأقوم بالجراحة عندما أكون مستعدة.

لم يكن لدى صديقتي بيت حالات التردد هذه. كانت جميلة وكان الناس - بدءاً بأمرها - يخبرونها دائماً أنها كانت تقارن بعارضة الأزياء نعومي كامبل. كان شعرها داكناً ومسترسلاً، وكانت بشرتها خالية من العيوب، وعظام وجهها عالية. وكانت كبالغة نجمة صاعدة في شركة نشر أميركية من النخبة، وكانت تكسب دخلاً يسمح لها بالعمل على صورتها. وعندما وصلت إلى أوائل الثلاثينات من عمرها، أخذت بعض الحقن لمنع التجاعيد، ومنع ظهور أي علامة لتقدم السن على وجهها. كانت تحبّ الموضة أيضاً. وكانت ملابسها عبارة عن مجموعة من الأصناف الأنيقة، من أحذية جيمي تشو (Jimmy Choo) وفساتين ديور (Dior) وأوشحة هيمرس (Hermès) وحقائب شانيل (Chanel). كانت بيت دائماً في طليعة من يشترى أحدث صيحات الموضة بمجرد حلول موسم جديد. فكل هذه القطع كانت تعلن أنها ناجحة.

عندما كانت تدخل أي مكان كانت تشعر بالإعجاب. إذ كانت تتوصل إلى الجمال الذي كانت تريده والحياة التي كانت تحلم بها. كانت بيت جذابة وذكية، فهي امرأة ناجحة بعملها، تكسب مالاً كثيراً، ومخطوبة لرجل أسعدها بخاتم ماسي كبير، لكن كمال صورتها كان هاجسها. ذات يوم لاحظت أن جفنها الأيسر كان يتدلى قليلاً، لذلك أخذت تبحث في مجلات الموضة الراقية، من فوغ (Vogue) وإيل (Elle) إلى هاربر وبازر (Harper's Bazaar) عن جراح تجميل خاص بالنجوم.

لم تتردد في حجز الموعد عندما وجدت الطبيب المناسب. لقد كانت عملية بسيطة في العيادات الخارجية، لذلك لم تكلف نفسها عناءً أخذ إجازة من العمل لأجلها. ولكن يوم العملية انقلب حظها. إذ أدى الجراح عصباً بالقرب من عينيها أثناء الجراحة وهذا الأمر جعل بيت في حالة من الألم الذي لا يطاق. انتقلت من أخصائي إلى آخر في بحثها عن الراحة. وأصبحت تعتمد على مسكنات الألم وهي تبحث عن حل. أصابها حالة من الاكتئاب وازداد وزنها وبدأت تفقد الكثير من فرص العمل. خسرت عملها ذا السلطة العالية، كما خسرت صديقاتها الرائعات اللواتي كن يبدن إعجابهن بجمالها وأسلوب حياتها سابقاً. غادرها خطيبتها بعد فترة ليست بالطويلة.

ألم بيت حبسها، وينطبق الأمر على علاقتها بالجمال. لم تستطع صنع السلام مع حياتها الجديدة، لذلك استمرت في محاكاة حياتها القديمة. لم تعد تلائمها ملابسها الجميلة لأنها لم تعد نحيفة. ومن دون وظيفتها التي كانت تكسب أجراً جيداً منها، لم تعد قادرة على شراء العلامات التجارية الراقية. بدلاً من ذلك، كانت تشتري أصناف ديور وشانيل المزيفة وواصلت البحث عن العلامات والمظاهر التي كانت دارجة. ولم تتمكن من إعادة تعريف الجمال أو العثور على هوية جديدة غير المرتبطة بمظهرها. انتقلت في نهاية المطاف إلى مدينة جديدة بحثاً عن حياة جديدة وعمل جديد ودائرة جديدة كل الجدة من الأصدقاء.

بيت ليست الوحيدة في هذا الألم الناجم عن سعيها لمضارعتها للأخريات. لقد خبرت ذلك الألم أيضاً، حالي حال ملايين النساء والرجال في جميع أنحاء العالم. عندما نحكم على أنفسنا بمقياس الكمال، فإننا سنعجز عن ذلك دوماً. ولربما كان ألم بيت أكثر شدة لأنها كانت تتمتع بهذا الجمال الذي كانت تحسد عليه ومن ثم فقدته. وحتى أن البعض منا لا يقترب أبداً من الكمال. اعتدت لسنوات عديدة الوقوف أمام المرآة

ذات الطول الكامل لفحص كل الأشياء التي لم تكن تامة في وجهي وجسدي. لست نحيفة بما فيه الكفاية ولست صغيرة بما فيه الكفاية ولست كبيرة بما يكفي، ولست رشيقة بما يكفي والكثير من هذا وذاك غير كافٍ، وكانت تتزاحم موجة من الانتقادات في ذهني. لم يكن بمقدوري رؤية أي شيء جيد في انعكاس صورتي في المرآة. كان وضع قائمة بكل أخطائي الجسدية نوعاً من تعذيب الذات المرضي. تعرف كل امرأة أعرفها تقريباً بالضبط عما أتحدث عنه. على خلاف بيث، لم أكبر في العمر وأنا أظن أنني كنت جميلة. وكانت أمي قد عززت هذا الاعتقاد عندما كانت تقول لي إن ابنة خالي نادية كانت أجمل مني. وكلما كانت تزورنا وتم دعوتنا جميعاً للخروج إلى مكان ما، كانت تصر والدتي على أن أعطي نادية أفضل ملابس كي ترتديها. في سن العاشرة من عمري، أعربت أخيراً عن احتجاجي قائلة: «لماذا أعطيت قميصي البرتقالي لنادية يا أمّاه؟ أنت تعرفين أنه قميصي المفضل».

أجابت أمي قائلة: «ولكن نادية هي الجميلة يا ابنتي». بدا الأمر كما لو أنّ الجمال كان بحد ذاته سبباً كافياً.

لم تكن والدتي تعتقد بأنني قبيحة، إذ كانت تعتقد أنني لم أكن بجمال الفتيات الأخريات. لكن الحكم بقي يلازمي. فعندما كبرت، لم يكن بمقدوري أن أرى أي شيء جميلاً أو جذاباً. ولم يكن بمقدوري أن أرى سوى أنفي الملتوي وساقّي غير الجذابتين. اعتدت على ارتداء ملابس أكبر من الحجم اللازم كي تُخفي عيوبي. فانتهى المطاف بها إلى إخفائي كلي.

عندما بدأت بدراسة حقوق النساء في الكلية اتخذت هوية نسوية، أدليت أيضاً ببيانٍ انطلاقياً من رفضي للأزياء والجمال. فإذا كانت النساء من حولي يرتدين آخر ألوان الموضة، كنت أرتدي اللون الأسود والرماذي فقط. وإن هنّ موجن شعورهن أو أسبلنهن، كنت أرفض القيام بأي شيء. أصبح الرفض جزءاً من هويتي، واستمر هذا بعد الكلية. في الأحداث المهمة في الحياة، بما في ذلك إلقاء خطاب أو تلقي جوائز رئيسية لعملٍ إنساني في البيت الأبيض، كنت أرتدي بدلة سوداء وبيضاء بسيطة. أردت أن أعامل نفس معاملة الرجال. اعتقدت أنه من خلال إنكار أي شعور بالجمال، فإنني أضمن أن فكري قد لوحظ، وليس مظهري. اعتقدت أن هذا هو الخيار الأعلى. ولكن الحقيقة هي أنه كلما خرجت مع صديقاتٍ، بغض النظر عن أحجامهن وأشكالهن ونظراتهن، شعرت دائماً بأنني أقل جمالاً منهن. وإذا دخلنا إلى مطعم أو حدث معاً، افترضت أنني كنت غير مرئية. فإذا واجهنا مجموعة من الأصدقاء الذكور، لم أتوقع أي اهتمام منهم. لم أشعر بالغيرة؛ شعرت بأني غير مهمة. ومع ذلك، واصلت الضغط على تلك الفكرة القائلة بأنني بحاجة إلى أن أكون امرأة كامراًة. ركزت على تطوير الكاريزما، شخصيتي، أفكارتي، ومغامراتي. اعتقدت أنه كان من الأفضل للناس أن يحبوني لعقلي. إذا كان إغواء النساء الأخريات بالجمال، فقد حاولت الإغواء بالكلمات والعقل. أعطاني عملي الفريد في مناطق الحرب ثقتي. لكن الشخص الواثق يتصرف بدافع الامتلاء وليس بسبب الندرة. لقد استخدمت هويتي كناشطة لإخفاء انعدام الأمن في نظراتي. لم أستطع تقدير الجمال، لذا رفضته. هذا الرفض أهان جوهر الجمال نفسه. فالنساء اللواتي كنت أساعدهن في مناطق الحروب هن اللاتي علمني أن أرى الجمال بطريقة مختلفة. كنت في سراييفو في عام 1994، عندما أحضرت النقود والملابس إلى النساء البوسنيات في المدينة المحاصرة. لقد تم تدمير منازلهن - والشوارع والمدارس والكنائس والمستشفيات وطريقة الحياة - من قبل القناصة ونيران المدفعية، وتم حصارهن داخل المدينة بينما تضاءلت المواد الغذائية والإمدادات الأساسية. كانت الطريقة الوحيدة لدخول سراييفو على متن طائرة تابعة للأمم المتحدة، وحتى

الأمم المتحدة لم تستطع ضمان سلامة أي شخص. كنت المرأة الوحيدة على متن طائرة ممتلئة بقوات الأمم المتحدة الفرنسية، وعبرت الخطوط الصربية للوصول إلى المدينة. في ذلك الوقت، سمعت كل شيء عن معسكرات الاغتصاب ومعسكرات الاعتقال في البلاد. كان السفر إلى سراييفو محفوفًا بالمخاطر. وبمساعدة الأمم المتحدة، وصلت إلى وسط المدينة من دون أن يلحق بي أذى، ولكن في كل مكان كانت الجدران مليئة بالشظايا. وكان الناس يركضون من زقاق إلى زقاق آخر للانتقال من مكان إلى آخر، وغالبًا تحت وابل من الرصاص. كان كل شيء نادرًا، الطعام والماء والتدفئة. كان الكثيرون يجرقون أحذيتهم وكتبهم وأثاثهم في الشتاء بحثًا عن التدفئة. كان يتوجب دفن الموتى في أفنية المنازل الخلفية، لأن الذهاب إلى المقابر كان خطرًا جدًا. ورغم الخطر تمكنت من مقابلة العديد من المنظمات النسائية لتوزيع الأموال التي جمعتها من أجلها. كنت سعيدة بلقائهن والاستماع إلى احتياجاتهن وواقعتهن. سألتهن عما كان يمكنني إحضاره إضافة إلى الملابس والمال. كان قد خطر في ذهني الفيتامينات والسدادات القطنية والضمادات وغيرها من العناصر العملية. قالت أول امرأة «أحمر الشفاه!... نريد أحمر الشفاه».

«أحمر الشفاه؟ ماذا؟» لقد صعقتني المفاجأة. لماذا تردن أحمر الشفاه؟

كانت تواجههن الكثير من الاحتياجات العاجلة. أخبرتني المرأة: «أحمر الشفاه هو أصغر شيء يمكنني وضعه وأشعر أنني جميلة». «أريد أن يدرك هذا القناص أنه يقتل امرأة جميلة».

تحدث المقاومة بطرق شتى. تحدث على شكل تصدُّ بالبنادق. يجارب البعض من خلال الإبقاء على عزف الموسيقى، كعازف التشيلو البوسني الذي كان يعزف في منتصف ميدان مفتوح بحيث يمكن للقناصة إطلاق النار عليه بسهولة. ويجارب البعض بالفن، كالفنانين الذين يحولون أغلفة الرصاص الفارغة إلى قطع فنية. وكانت هذه المرأة تحارب من خلال إبقاء الجمال على قيد الحياة. كان وضع أحمر الشفاه هو أبسط طريقة للشعور بالجمال والتواصل مع الحياة نفسها. إنها الطريقة التي يمكنك الانتصار بها على إذلال تجويعك ولربما قتلك على يد مسلح خفي.

لقد خطرت لي فجأة فكرة: إن حرمان النساء من شعورهن بالجمال سيكون انتهاكًا لكرامتهن ونزاهتهن. حتى ولو كنَّ يعانين من نقص في الغذاء والماء، وحتى ولو افتقرن إلى مقومات النظافة الأساسية، حتى ولو عانين من البرد والخوف، فإن لديهنَّ كل الحق في طلب مستحضرات التجميل. تلك النسوة لم يكنَّ مجرد ضحايا يائسات. كنَّ راغباتٍ بالعيش والموت بكرامة وكنَّ راغباتٍ باختيار ظروفهن.

أحضرت صناديق من أحمر الشفاه في زيارتي التالية للبوسنة، بالإضافة إلى أحمر الخدود، وظلال العيون، وجميع أنواع الماكياج الأخرى التي أمكنني جمعها، إضافة إلى أساسيات المال والملابس والطعام. كما أوليت الاهتمام للطريقة التي كنت أتصرف فيها وملبسي. كنت أعتقد أن كوني ناشطة إنسانية كان يعني تجاهلي لأي شعور بالجمال، ولذلك عادةً ما كنت أرتمي سروالي الجينز وأحذيتي العادية وأسرح شعري إلى الورا. وبمجرد أن أدركت أن الجمال جزء من الإبقاء على أرواحنا على قيد الحياة، اشتريت لنفسي تنورة جميلة وقميصًا يلائمها وشففت شعري على نحو جميل. أردت أن أظهر الاحترام للنساء اللواتي كنت أعمل معهن. كنَّ أنيقاتٍ جدًا برغم الحرب وتعبيها. كنَّ آتياتٍ لحضور الاجتماعات في بلوزات وتنانير مكوية على نحو جيد، حتى عندما كان كل ما يمتلكه - وحتى الحياة نفسها - في خطر. كنت أريد أن أكون أنيقة كما كنَّ يحاولن أن يكنَّ.

على مر السنين، واجهت آلاف النساء في العديد من مناطق الحرب اللاتي يتصرفن بهذا النوع من الجمال والنزاهة والكرامة. وكانت النسوة يسعين جاهدات في سبيل أصغر لمحة جمال حتى عندما كنّ معدمات. كانت النساء الأفغانيات يرتدين ملابسهن ذات الألوان الزاهية تحت براقعهن التي تغطيهن من الرأس إلى أخمص القدم، كانت هنالك قطع فضية قديمة أو نقوش حمراء وبرتقالية وخضراء منسوجة بأحزمتهن المطرزة. كانت وجوههن نقيّة من العيوب، وكانت حواجبهن مثالية، من دون أن يكون هناك شعر غير منسق، وكان الكحل الغامق يحيط بعيونهن. كانت النساء اللواتي تم انتهاك أعراضهن وأسيئت معاملتهن في جمهورية الكونغو الديمقراطية يرقصن بعنفوان ويغنين من كل قلوبهنّ كلما استطعن إلى ذلك سبيلا. كانت تلك طريقتهن في الإبقاء على أرواحهنّ حية. إذا كان بوسع تلك النسوة اللاتي فقدن كل شيء الاحتفال بأي جمال يتوفر بين أيديهن بوضع أحمر الشفاه اللامع، وبارتداء الفساتين الجميلة، والابتسام ابتسامة كبيرة، والرقص من كل قلوبهن، فمن أكون أنا كي أرفض الجمال؟ ومن أكون كي آخذ نفسي على محمل الجد وأرفض الرقص أو الغناء أو الانضمام إلى ما أبقى الكثير من الأرواح على قيد الحياة؟

لا يجب إنكار الجمال، لا في نفسي ولا في أيّ امرأةٍ أو رجلٍ آخر. يجب الاحتفال به وتشجيعه وحمايته. إنه كالأمل. عندما نخسر كل شيء وعندما تتلاشى راحتنا المادية ويرحل أحبتنا، يمكننا التثبيت بأرواحنا بمدارة بعض إبهات الجمال الصغيرة برموش أعيننا.

أتحت لنفسي البدء في استكشاف الجمال بعد تجربتي في البوسنة، ما كانت ماهيته وما كان شكله. في بداية الأمر لم يكن يتوفر لدي الكثير من المال، لكنني كنت أجرب المكياج وأشتري بعض الملابس الجميلة بين الفينة والأخرى. وبمرور الوقت، كلما كنت أكسب المزيد، شرعت في شراء المزيد. ومن ثم، كنت أشتري جميع أنواع المكياج وجميع أنواع الملابس، وأجري تجارب على المظهر والمواد وأتعرف على العلامات التجارية والمصممين والفصول. كانت كل عملية شراء جديدة تحمل معها زحماً من الإثارة، كما كانت تفعل أول مرتين أو ثلاث مرات أرتديها.

كان شعوراً جميلاً. كان من المفترض أن يسمو بي عندما كنت أشعر بالاستنزاف، وكان يجلب لي البهجة إن كنت كثيفة. وكنت أقوم بالتسوق، ودائماً أتصيد الصفقات، من حسومات ما بعد عيد الميلاد، وكنت أشتري أكثر بكثير مما كنت بحاجة للتأكد من أن أموالي ذهبت إلى أقصى حدٍّ ممكن. اشتريت الكثير والكثير من الثياب الجميلة، حتى أصبحت الخزانة تزدحم بالملابس. بطبيعة الحال، لم يدُم الشعور الجميل الذي كنت أحصل عليه نتيجة القيام بهذه المشتريات الكبيرة. وتلاشت الإثارة، وتُركت لشعور ممل بالفراغ. ظلت دورة الشراء والشعور بالرضا والهبوط في الفراغ تكرر هي ذاتها. وأصبح البحث عن الجمال عملية لا نهائية من الاستهلاك. كان الأمر يبدو كما لو كنت أحاول ارتداء قناعٍ من الجمال كان يذوب حالما كنت أحضره إلى وجهي.

وطوال هذا الوقت، لم أكن أربط بين استهلاكي المفرط والأشخاص الذين كانوا يصنعون الملابس التي كنت أشتريها من دون تفكير. بلى، كنت ناشطة في مجال حقوق المرأة، لكن كان ثمة فصل بين عملي الإنساني من جهة وقيم ومخن العمال المجاهولين الذين كانوا يصنعون الملابس من جهة أخرى. هل كانوا يعاملون بعدل؟ هل كانوا يكسبون ما يكفي من المال كي يعيشوا به؟ أم أنهم كانوا يتعرضون لإساءة المعاملة، يعملون في زنازين؟ لم أقلع مطلقاً عن التفكير بالأمر.

لم أعد أجعل نفسي قبيحة حين الإدلاء بإعلان، لكنني لم أكن أعالج حقاً مشكلة انعدام الأمن التي كانت تشكل أساس جميع مشترياتي. فمثلي مثل الكثير من النساء، كنت أرغب بأن أبدو جميلة وأن يجني الناس وأن أكون مقبولة وقد آمنت بفكرة أنه بمقدوري شراء هذه المشاعر. كنت أساهم في هذه العملية في نظام الجشع والاستغلال. ومن المفارقة أنني ما زلت أشعر أنني غير جميلة، بغض النظر عن عدد الملابس الجديدة أو أزواج الأحذية أو قطع المجوهرات التي كنت أشتريها. أخيراً دلّنتني امرأة من التيب إلى الطريق الحقيقي المؤدي إلى جمالي. كانت يانغجين ابنة عائلة تيبية ثرية، كانت السلطات الصينية قد قامت بمصادرة منزلها. وبعد أن فقدوا كل شيء، انتقلت عائلتها إلى تلال التيب، وأصبح والدها راعياً، وعاشوا حياة بسيطة. لقد رأيت أفضل الناس وأسوأهم بينما كانت أسرتها تنتقل من الغنى إلى الفقر، من حالة أن يكون هناك خدم يقومون على خدمتها إلى حالة أن تكون هي من يقوم على خدمة الآخرين. لقد تعلمت في وقت مبكر قيمة الحياة بعيداً عن الممتلكات المادية.

كانت يانغجين كبالغة مصممة على الحفاظ على جميع جوانب الثقافة التيبية وتنشيطها، بدءاً بمنتجات التجميل التي تستند إلى الوصفات التيبية إلى الموسيقى التقليدية. كانت عندما قابلتها تؤدي حفلاً موسيقياً في نيويورك برفقة موسيقيين ومغنين من جميع أنحاء العالم. كان صوتها يتردد بقوة سحرية عبر قاعة الكنيسة، وهو الأمر الذي حملنا جميعاً نحن الجمهور المستمع على أن نصمت صمتاً مطبقاً. تغلغل صوتها في شغاف قلوبنا.

وصلتني صديقة مشتركة بيانغجين قبل حفلتها. كانت ترتدي فستاناً حريريّاً أحمر مطرزاً بتنانين وطيور وزهور تنجر خلفها عندما كانت تمشي. كانت ذراعها مغطّاتين بأساور خشبية مزينة بالخرز، وكانت رقبتها ملفوفة بطبقات من القلائد. شعرت بالرهبة. كان زينا يجمع بين جوانب المعاصرة والتقليدية الأصيلة وكان فنياً وتاريخياً في الآن ذاته. كانت جميلة وكان صوتها جميلاً ومثيراً للدهشة. وسرعان ما أصبحتنا صديقتين وكنا نتسكع في كل مرة كانت تقوم فيها بزيارة الولايات المتحدة.

قالت لي: «ستتعلمين ذات يوم كيف تنظرين إلى جمالك الخاص وتهتمين بنفسك بحب». لم أخبرها بأي شيء عن علاقتي بالجمال، لكنها كانت تعرف على نحوٍ ما. «في اليوم الذي تتعلمين فيه كيف تحبين نفسك، ستريين الجمال يسري في ضلوعك».

لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الأمر الذي كانت تتحدث عنه. شعرت بالرغبة، لكنني كنت أومئ برأسي على أي حال. لقد فتنتني هي وحكمتها. ثم أعطتني مهمة.

قالت على نحوٍ أمر: «أريد منك أن تتأملي وجهك كل يوم». تناولي مرآة وانظري إلى وجهك وافتحي عينيك. ابقِي في هذه الحالة من التأمل لمدة عشر دقائق على الأقل. ولا تفوتي يوماً».

بدأت يانغجين تعرف شيئاً ما عن حب الذات، وبالتأكيد كانت تعرف الكثير عن التأمل، لذلك وعلى الرغم من أنني لم أستطع فهم مرادها، فقد قررت اتباع نصيحتها. في المنزل، دخلت الحمام وفتحت جميع الأنوار المحيطة بالمرآة. كم مرة نظرت إلى وجهي دون رؤيتها حقاً؟ كنت أغسل وجهي وأفرشي أسناني وأزيل المكياج أو استخدم الكريمات كل صباح وكل ليلة وعلى مدى عقود، ومع ذلك لم أكن أرى سوى البقع والعيوب أو الشعر الذي كان بحاجة إلى الإزالة. لم أكن أفق قط بهدوءٍ وأنظر إلى وجهي بطريقة لا حكم فيها من قبل.

لم أستطع تأمل وجهي بالكامل في البداية. كان ثمة الكثير من الملامح والتفاصيل. لذلك قررت التركيز على عيني اليمنى فقط. لكن حتى تلك العين المنفردة كانت تحتوي على تفاصيل كثيرة جدًا لا يمكن رؤيتها دفعة واحدة. لذلك قررت التركيز فقط على بؤبؤي. قمت بعملية الشهيق والزفير وأنا أنظر مبقيةً على التأمل لأطول فترةٍ ممكنةٍ خمس وعشر وخمس عشرة دقيقة. كان الوقت يتمدد ويتقلص بينما كنت أقوم بممارسة التأمل. ومع ذلك جلب لي الهدوء. تلاشت همومي وهدأ عقلي. لم يكن من الضروري أن أكون في أي مكان أو أن أكون أي أحد.

ثم حصل شيءٌ مختلف ذات يومٍ فغير كل شيء. وبينما كنت أركز على عيني، بدا أن الوقت يتحرك فجأة بلمح البصر، وانزاح الحجاب الذي يفصل الوعي عن الوعي الباطن. وذاب الخط الفاصل بين اللحظة الحالية والأبدية. كان الفضاء والصمت متماثلين. وفي لحظةٍ، دخلت روعي عبر باب عيني.

كنت قد سمعت بتعبير «العيون نافذة الروح» من قبل، لكنني لم أفهم ذلك التعبير أبدًا حتى تلك اللحظة. ففي تلك الومضة رأيت الجمال والجمال المطلق في روعي. كانت جميلة جمال زهرةٍ تفتح بين شقوق الأرض الجافة أو شروق شمس يأسر الأبواب أو صقرٍ يجوب السماوات الفسيحة. ففي الروح التي تكمن بين ضلوعي كان يكمن جوهر الجمال الخالص. لم ينتبني أي شعورٍ سوى الشعور بالرهبة مما كنت أشهده. كانت الومضة في غاية الجمال للحد الذي تفجّر الدمع في عيني.

تركني التأمل في حالة عميقة وصامتة. وكما يقول الاقتباس الشعبي المنسوب إلى الرومي: «الصمت لغة الله، وكل شيء آخر هو ترجمة رديئة». شعرت بهذا النوع من الصمت المقدس. بدا الأمر كما لو أنني كنت أرى كائنًا آخر بداخلي والذي كان يمثل أيضًا جزءًا مني. كيف لم أحبها وأعتز بها وأحميها؟ كنت أغفلها وأنكرها وأرفضها وحتى أنني كنت أحاول التستر عليها. كم كنت جاحدةً لأنني لم أكن أبدًا قد أوليتها الاهتمام!

قررت في ذلك اليوم أن أبدي تقديري لهذا الجمال الداخلي لأنه كان موجودًا في جسدي المادي. فوقفت أمام المرأة نفسها والتي كنت أدقق من خلالها في عيوبي وأخطائي لسنوات عديدة، فكان الجمال هو كل ما استطعت رؤيته. كنت أحتفل آنذاك بما كنت قد أخفيت. فكان شعري الأشيب وشعري الأسود وجلدي المتجعّد وجلدي الناعم على نفس القدر من الجمال. وأدركت أن كل جزء مني - كل بوصة وكل الكمال وكل العيوب - كان من خلق الله. وكان حبّ ذلك كله جزءًا من حب الله. وكان إنكاره أو التذمر منه أشبه ما يكون بالجحود بالله. ولمست كل جزء مني من أصغر أصابع قدمي إلى قمة رأسي بامتنان. وقدمت الشكر لجسدي لكونه في صحةٍ جيّدةٍ ولجماله وكونه جزءًا مني. وشكرت فخذي اللذين كنت أكرههما على الدوام لأنهما كانا أضخم من اللازم، وشكرت أنفي الذي كنت أتمنى لو يكون أقل بروزًا. فكل أعضاء جسدي سمحت لي أن أكون الشخص الذي كنت عليه وأن أؤدي ما أديت.

كنت في الرابعة والأربعين من عمري. لقد كانت حياةً بطولها من البحث المستمر عن شيء كان قابلاً في داخلي طوال الوقت.

وكلّ يوم كان يمرّ منذ تلك اللحظة السحرية التي وقفت فيها أمام المرأة كنت أتمتع بجسدي بامتنان طقوسي على هذا النحو. لقد تغيّرت علاقتي بمظهري من علاقة إنكارٍ إلى علاقة إفراطٍ وإلى علاقة القبول وصولاً إلى الاهتمام في النهاية. بدأت أقدم لنفسي كل ما تحتاج له من نوم؛ وخصّصت وقتًا للتمارين والتمتع

بملذات الحياة الصغيرة، كقطع التفاحة، وصوت طائر، والإحساس بالشمس على مؤخرة رقبتني. فإذا كنت أشعر بالذنب في الماضي لمنح نفسي وقتًا للعب أو للراحة، فأنا أشعر الآن بحس بالواجب لتغذية وتجديد شباب الجسم وتوفير الإقامة الجيدة لنفسي.

بدأت ملابسي وعاداتي تعكس قيمي عندما عانقت الجمال في داخلي. وألقيت نفسي أشتري ملابس وأحذية ومكياجًا أقل وأقل من كل شيء. ولم يعد جمالي وقيمتي مرتبطين بشكل وثيق بملبسي ومظهري، لذلك لم أعد أفرط في التسوق. ولم أشعر بهذا الفراغ ذاته.

إذا كنت أخرج في الماضي للتسوق انطلاقًا من الحاجة إلى سدّ الفجوة، فإن التسوق الآن كان ينبع فقط من الإحساس بالحب. فبدلاً من الرغبة في شراء القميص الجميل المائل أمامي على الرف، بدأت أسأل عن القصة الكامنة وراء ذلك القميص: من صنعه؟ وكيف تمت معاملتهم؟ هل تقاضوا أجرًا جيدًا؟ وبدأت بسؤال كل متجر عن سياسات الإنتاج التي كان يدعمها. فقصرت ملابسني على القطع التي تعكس قيمي: كالاتهام بالبيئة وممارسات العمل العادلة. أفضل أن أدفع مقابل قميص جميل صنّع بطريقة أخلاقية بدلاً من شراء عشرة قمصان كانت تدنّس العالم بطريقة أو بأخرى. ولم أعد أرغب بقناع الجمال، بل أردت تجسيد جوهره. وبهذه الطريقة، أصبح كل تصرفٍ تنقيبًا عن جوهر ما كنت أشتريه، سواء كان الطعام الذي كنت أكله أو الزهور التي كنت قد اشتريتها أو الأشياء التي كنت أستثمر فيها.

أدرك أنه من غير الممكن أن أكون دائمًا واعية تمامًا في كل عملية شراء. فلدينا جميعًا أيامٌ جيدةٌ وأيامٌ سيئةٌ. ثمة أيام أشعر فيها بأني أكثر وزنًا، وأيام أشعر فيها بأني أخف وزناً. ثمة أيام أحب ما أرتديه، وثمة أيام لا أحبه، وثمة أيام لا أهتم فيها بطريقة أو بأخرى. كما ثمة أيام أفرط فيها بالانغماس في الطعام أو لا أشتري من مصدر أخلاقي. لكن مع ذلك، كانت تتوفر لدي القدرة على العودة إلى حالة التوازن على نحو سريع. ولا أتوقف عن التفكير في نفسي وبأني جميلة، حتى مع عيوبي. ولا أفقد الاتصال بقيمي تلقائيًا. أعرف الآن أن الجمال يساعدنا على الاقتراب من السلام، والسلام يساعدنا على الاقتراب من الله.

بدأت أمنح نفسي القبول الذي كنت أريده من الآخرين. وأدركت أنه لم يكن ثمة حارس أفضل مني لهذا الجسد ولهذه الروح.

فعندما نقيم علاقة حميمة مع أنفسنا، فإن كل شيءٍ داخل أنفسنا وخارجها يعيد تنظيم صفوفه. وتصبح سلوكياتنا ومواقفنا وخياراتنا راسخة في أنفسنا. بالنسبة لي شخصيًا، هذه الحرية الداخلية هي التحرر من إخباري بما يجب عليّ أن أحبه والكيفية التي ينبغي أن أكون عليها بناءً على قيم أو معايير شخصٍ آخر. ولم يعد يتعين عليّ اتباع نظام أضفيت عليه الصبغة التجارية والذي يحاول ضخ وفرة هذا العالم ويبيعها لي كشيءٍ نادرٍ. يخرج الجمال من امتلاء شخصٍ يعرف الجانب الخيّر والجانب السيئ من نفسه ويعرف جماله وقبحه وشجاعته وصغره. ينبع الجمال من ضوئنا الداخلي الذي لا يعرف اللون ولا الحجم ولا الشكل. وعندما نرى هذا الضوء في أنفسنا، نبدأ في البحث عنه في كل شخصٍ وكل شيءٍ من حولنا. نعلم أنه جوهر الجمال، ولم نعد بحاجةٍ إلى السيطرة عليه أو التلاعب به.

لست مضطرةً الآن لتقسيم أفعالي «الجيدة» بعيدًا عن أفعالي اليومية. فكل يوم هو فعل وعيٌّ وصلاة وامتنان لهدايا الحياة: فعندما تلمس قدمي الأرض في الصباح، وعندما أقوم بعملية الشهيق والزفير، وعندما تقوم أصابعي بكتابة هذه الكلمات، لم أعد بحاجة لزيارة أماكن غريبة أو لشراء أزياء الموضة

لأشعر بأني مثيرة للاهتمام ومحط تقدير وأني جميلة. أرى وأستمتع الآن بالجمال في نظام حياتي اليومية. وأعرف الآن أنه حتى أصغر حجرٍ يمثل جزءاً من أكبر جبل وأن ورقةً واحدة فقط تمثل جزءاً من غابة كاملة.

إن وضع لحنك في الحياة والعيش بالتناغم معه ليس دائماً رحلةً سهلة. ففي بعض الأحيان، يبدو الأمر وكأنني أسير عكس اتجاه الريح عندما لا ألتزم بالأعراف الثقافية. ولكنني أعتز على اتصالٍ أعمق وأكثر صدقاً بالآخرين بعدم محاولتي إخفاء جوانب ضعفي. تكمن طريقة جديدة للتواصل مع الجميع في هذه الأنواع من الارتباطات - مع الكائنات البشرية والثقافات والمخلوقات والأرض - الراسخة في جوهر الحقيقة.

عندما يبدو الحب كنافورةٍ لا تنضب تتمرّك داخل النفس فلا شيء يمكن أن يحلّ محله. فروحنا هي معلمنا في كل شيء. ولن يكون بمقدورنا أبداً إدراك عمق أو اتساع جمالنا الطبيعي حتى نتعلم رؤية تلك الروح وتكريمها ورعايتها. فالحرية مهمة داخلية. عندما نسايرها، يمكن أن تتمتع بتأثيرٍ أشبه ما يكون بتأثير الفراشة. إذ يمكن لأبسط تغييرٍ في حياتنا، مثله مثل الهواء الذي يزيحه جناح الفراشة، أن يكون له تأثير متموج هائل على نظام حياتنا المترابط والكامل والمعقد. ويمكنه تغيير العالم بأسره.

خاتمة

نداء للإنسان الجديد

إنّ العالم الذي نعيش فيه ما هو إلا نتاج لتصوراتنا، لذلك هيّا بنا نستعيد هذه التصورات.

لم يعد بمقدورنا تحمّل هجران أنفسنا. إذ يمكن لأيّ منّا أن يصبح طاغية عندما يصيبنا العمى عن ظلالنا. عندما لا نقوم بتركيز أنفسنا في حقيقتنا وقيمنا، فإنّ حججنا ومواقفنا ستفقد مصداقيتها وسنخاطر بفقد أنفسنا الاستقامة المعلن عنها ذاتياً. إنّ السبيل الوحيد للمسك بزمام حياتنا هو حضورنا على نحو تام في الخير والشر والقبح الكائن في داخل كلّ منّا. عند ذلك نتجلى في تمامنا. وعندئذٍ نستطيع التوقف عن توجيه أصابع الاتهام إلى الآخرين في حالة الخوف والغضب، والبدء بالتحدث والتصرف بوضوح. وهذه هي الكيفية التي نتجنب بها تدمير أنفسنا وتدمير العالم والبدء ببناء العالم الذي نريد العيش فيه.

تبدأ الرحلة باتجاه الحقيقة بحضورنا في تعقيدات قصصنا ومشاعرنا وتصرفاتنا. لقد جلب لنا أبطالنا الفشل لذا دعونا لا نجلب الفشل لأنفسنا، فالبطل الحقيقي هو البطل الذي يكون نوره وظله وقوته وضعفه ماثلة للعيان وعلى قدم المساواة. فعندما نرسو في مرافئ حقيقتنا الكاملة ونتمكن من إظهار الحنان تجاه استقامتنا وتناقضاتنا، يصبح من الأسهل علينا سماع ورؤية قصص الآخرين، انطلاقاً من الشفقة بدلاً من إطلاق الأحكام، ويمكننا التحدث ونحن نعرف تعقيداتنا بدلاً من التشبث بمثال الكمال المستحيل.

يمكننا حل قصة «نحن» و«هم» إذا رأينا جميعاً أنفسنا فيها. وعلى الرغم من أنها رحلة شاقّة وربما كانت رحلة لا نهاية لها إلا أنها تقودنا إلى حريتنا المطلقة. إنها المكان الذي نعثر فيه على كيفية البدء بنقاش جديد ونعثر على طريق جديد يقودنا نحو الأمام.

إنّ الخيار خيارنا. فالخوف والتفرقة يحوّلان بنا في هذه الأيام، ويمكننا النظر إلى هذه القصص المزعجة كحوادث منفصلة لإرهابيين أجانب ولعنصرين متشددين ولأناس بعيدين كل البعد عن السياسيين

الفاستدين، أو يمكننا النظر إليهم كجزءٍ من نسيج قصة نسيجنا سوية. ففي الأحكام المسبقة والتمييز والمخاوف التي نحتفظ بها في قلوبنا والتي لم نعترف بها أمام أنفسنا، يمكننا أن نصبح أولئك الذين نحتقرهم بشدة.

إذا كان هدفنا إيجاد السلام، فنحن بحاجة للبدء بالاعتراف بما هو متصدع، إنه تصدع صنعناه بأنفسنا، وهو تصدع يمكننا إصلاحه سوية. يبدأ ذلك الإصلاح بالقيام بخفض جدار خوفنا لنرى ونسمع أنفسنا وبعضنا بعضاً وبأسلوب جديد.

زرت الموصل، في صيف 2017 بعد ثلاثة أسابيع فقط من تحريرها من حكم داعش الإرهابي بعد ثلاث سنوات من الحكم المتطرف، وكانت المدينة مدمرة بأسرها. وكانت البيوت مكومة في جبال من حديد وإسمنت. وكانت التقاطعات والجسور والمدارس والجامعات قد دُمرت. وحولت المكتبات العلمية إلى رماد، والجوامع الإسلامية والكنائس المسيحية التي كانت تكرم الأنبياء والقديسين والأساطير والعلماء قد تمت إبادتها. كان الأمر يبدو كما لو أن المئة وخمسين عاماً من الإيمان والتفكير والصلاة كانت أترًا بعد عين.

كانت مدينة الموصل، والتي كانت مدينة متطورة ذات يوم، مدينة مدمرة ولكن الدمار لم يطل شعبها. فبينما كنت أمشي عبر شوارع الموصل في محاولة مني لفهم ما الذي كنا نحتاج له لإعادة بناء الحيوانات والمدينة ذاتها، كنت أسمع أناسًا يشبهون ما جرى تحت حكم داعش بالنجاة من قبلة نوية. كانت قبلة نوية من السلوك الإنساني. إذ قبل بعض المواطنين وعود قادة قاموا بتنصيب أنفسهم بالمال والقوة والاحترام، وأظهر آخرون قليلاً من الاهتمام، معتقدين في البداية بأن داعش كان يعمل لمجرد انتزاع سلطة لم تكن تعنيهم. لكن سريعاً ما انتشرت الأصولية بين الناس لمواضع متطرفة من «نحن» «هم». وسرعان ما تم تحريض دين ضد دين أو طائفة دينية ضد أخرى، وتم إعدام أناس أبرياء في قارعة الطريق، وأجبروا بناتهم وأخواتهم على الزواج من مقاتلي داعش. وأصبح مجرد مغادرة المدينة يمثل خطراً في نظام داعش القمعي والظالم.

مشيت في شوارع الموصل، واستمعت لما يقوله النساء والرجال والشابات والشباب، في البيوت والمقاهي التي أعيد افتتاحها وأماكن العمل: «نحن بحاجة إلى قيم أخلاقية جديدة، لا تقوم على التفرقة والخوف والكرهية، نحن بحاجة إلى إنسان جديد».

قال شابٌ قابلته في منزل أخواته: «جربنا الدين بنسخته الأصولية. وحاولنا قمع النساء والسيطرة عليهن، جربنا القول: «هذه الطائفة أفضل من تلك» أو «ديننا أفضل من الأديان الأخرى» وفشلنا. فهذا السلوك لم يفلح. قمنا بتدمير أنفسنا في هذه العملية ولم يتبق لنا أي شيء».

قال لي أحد الرجال: «إذا كان داعش قد أساء بسمعة الإسلام في أنحاء العالم، فإنه دمر دوره في حياة المواطنين الموصلين».

قالت امرأة وهي تكنس شارعها: «سوف أنظف منزلي من المتمردين. سأصلح النوافذ والأبواب بعد كل هذا الدمار، بوسعي القيام بهذا بنفسني. لكنني أحتاج للمساعدة فقط في بناء قيم أخلاقية جديدة. فهذه السياسة التي تقوم على التفرقة واللوم قد أفسدنا ودمرتنا، ونحن بحاجة للشروع بطريقة تفكير جديدة بدون «إيانا» و«إياهم»».

قال شرطي: «نحتاج للبدء بالأطفال».

كان هناك شعور حماسي بالوحدة يخيّم في كل مكان، لأن المواطنين بدؤوا بفهم ما الذي حدث وما الذي أصبح ممكناً الآن.

كان ثمة وعي عميق وتصميم للتوقف عن الإصغاء لأي شخص كان يحرّض على التفرقة والكرهية. وبدا الأمر كما لو أنّ سكان الموصل قد ضيّعوا أنفسهم ودمّروا كل شيء في سياق العملية، واستيقظوا بالتزام جديد لتأسيس قيم جديدة.

نملك جميعاً هذا الخيار، وليس سكان الموصل فقط. ففساد قيمنا ليس أمراً قد يحدث فقط للناس هناك. فكيف يمكن لنا أن نجتّب أنفسنا الدمار الذاتي، ومقاساة هاوية الظلام؟ كيف لنا أن نستيقظ لنداء إنسانٍ جديد، إنسان لا يعيش في الخوف واللوم والغضب والإسقاط النفسي؟ كيف يمكننا خلق قيم أخلاقية جديدة - بحيث لا يتوجب علينا أبداً معاناة الدمار المادي والوجودي الذي تعاني منه الموصل؟

عدت إلى نيويورك مباشرةً بعد زيارة الموصل وحضرت تجمّعاً لقادة العالم الشباب في المنتدى الاقتصادي العالمي. وسمعت أيضاً في هذه المدينة الأميركية الغنية والبرّاقة، والمختلفة جداً عن أنقاض الموصل المدمّرة، هذا النداء من أجل قيم جديدة. فالقيم التي نعمل وفقاً لها تعتمد على أنظمة أكل الدهر عليها وشرب. فالتفرقة والخوف لم يعودا يساعداًنا. ونحن بحاجة لهذا النظام ليس فقط بسبب الدمار الذي سببه الإرهاب والحرب في مكان آخر لكن بسبب كل التفرقة والخوف الماثلين هنا: في أمننا وفي عائلاتنا وفي قلوبنا.

تحتم كل التكنولوجيا الحديثة وطرق التواصل الطارئة على حياتنا - على هواتفنا وعلى وسائل إعلامنا وعلى خيالنا الجمعي - علينا إعادة النظر في قيمنا من أجل أسرنا ومدننا وقرانا ومساجدنا وكنائسنا المسيحية وكنسنا اليهودية ومعابدنا وفي فصولنا الدراسية وفي علاقاتنا؛ في اتفاقياتنا ومؤتمرات قممنا. نحن بحاجة إلى قيم أخلاقية جديدة تسير بنا نحو المستقبل.

لا أدعي معرفة ماهية هذه القيم الجديدة. فتعبيرها يمكن أن يتأتى فقط عن خيالنا الجمعي. والعالم الذي نعيش فيه هو نتاج خيالنا وبوسعنا سوية استعادته. أعلم علم اليقين أنه مهما قلنا أو فعلنا فإننا بحاجة للبدء بذات الأشياء الأساسية، من الأساس والأساس ماثل في قلوبنا. عندما نرسي مراسينا في حقيقتنا، نقدر على امتلاك الشجاعة لنعيش حياتنا وفقاً لنداء قلوبنا وليس وفقاً لقيم تحددها بنى تقع خارجنا، يمكن أن يكون الزمان أكل عليها وشرب، ويمكن أن تكون تجارية وفسادة أو تمّ التلاعب بها لصالح شخص آخر.

تبدأ الرحلة بقصصنا، ولكنها لا تنتهي بها. تدور الرحلة حول العثور على حقيقتنا والاعتراف بها وعيشها وإظهارها في أسلوب جديد، في عالم تسوده الفرقة الشديدة. نسج سوية قصة جديدة لأنفسنا، على نحو فردي وجماعي. فطعم الحرية لذيذ ويستحق عناء المضي قدماً في هذه الرحلة الشاقة، وربما قد يستدعي الأمر تجربتها.

أسئلة للتفكير

الفصل الأول: قصّ قصتنا

- ما القصة التي لديك ولكنك لا تشاركها؟
- هل ثمة أسرار كان الآخرون يطلبون منك الإبقاء على سريتها؟ هل ثمة جزء منك يعتقد بأنه ليس لديك قصة لتخبرها؟
- ما الذي يمنعك من قص قصتك بصرف النظر عن كبرها أو صغرها؟ ما هي المشاعر التي تراودك عندما تتخيلين أنك كسرت صمتك؟
- اكتبي قصتك، حتى ولو كانت لنفسك فقط. يبدأ الشفاء بالتعبير الأول عن قصتك.
- لاحظي شعورك بمجرد كتابتك لقصتك. لاحظي كل المشاعر التي تظهر في الأيام التالية للكتابة.

الفصل الثاني: العيش في كنف الحقيقة

- لاحظي مَنْ مِنْ حولك يحمل قصة لك. يمكن أن يكون صديقاً أو أحد أفراد الأسرة أو زميلاً أو جاراً - أي شخص مقرب منك. فكّري في الناس الذين يلهمونك أو أولئك الذين يسببون لك الانزعاج

والاضطراب.

● ماذا بشأن الناس الذين تحيّنهم أو تكرهينهم أو أولئك الذين تحسدينهم أو تطلقين عليهم أحكاماً؟ ماذا يمكن أن يحدث إذا اعترفت بهذه الصفات المميزة في نفسك؟ هل بوسعك رؤية دليل مسبق عليها في أفعالك وتصرفاتك أو رغباتك؟

● كيف ستبدو الحياة إن عشت حقيقتك بالكامل؟

● كيف سيكون الأمر مختلفاً عما هو عليه اليوم؟

● هل ثمة أي جانب منك يخشى إيذاء أو إحباط الآخرين جراء عيش حقيقتك؟ هل تلومين الآخرين لعدم قدرتك على عيش حقيقتك؟ استكشفي ذلك في خيالك.

الفصل الثالث: امتلاك نجاحنا

● ما هي الروابط التي تربطك بالعالم الخارجي كالعامل أو الإنجازات والتي تمنحك شعوراً بالقيمة؟ ماذا يحدث إن أنت قطعت هذه الروابط؟ عندئذٍ من تكون؟

● أين توقفت عن سماع أصدق رغباتك في حياتك؟ ما الذي كان يسرع ضربات قلبك من الإثارة؟ ما الذي يمنحك من البحث عن حقيقتك وأحلامك؟ انظر إلى الخوف في العيون واستكشفه. فأني جانب منه حقيقي وأي جانب غير حقيقي؟ سيتيح لك قلبك فرصة المعرفة عندما تتوقف وتهدأ.

● سيتم اختبارك إن أنت تناولت جرعةً من الإيمان. هل يتوفر لديك نظام دعمٍ من حولك كي يتبناك ويذكرك بأنك لست وحيداً؟

الفصل الرابع: القيام بالتعويض

● ما القصة المعيبة التي تحملينها ولكنك لا تتكلمين عنها؟ ما هي القصة التي لم تكوني على استعداد للاعتراف بها.

● لماذا أنت خائفة من مواجهة قصتك المعيبة؟ ماذا يمكنك أن تحسري إذا حاولت القيام بالإصلاح؟ فعندما لا نواجه مخاوفنا ونخلفها وراءنا، فمن المرجح أن تصبح حقيقة واقعة.

● اخطُ الخطوة الأولى لسرد قصة عارك. اعترف بها على النحو الذي تريد: سواء أكان من خلال كتابتها أو من خلال قصّها لصديق موثوق، أو في مجموعة آمنة، أو من خلال العمل مع خبير كمستشار أو عالم نفسي.

● ما الذي تعلمته عن نفسك وعن العالم من خلال الاعتراف بقصة عارك؟

● عندما تكون مستعداً قم بإصلاحات مع الشخص أو مع الأشخاص الذين تريد القيام بإصلاح معهم. سيكون ذلك بمثابة الهدية الأعظم لهم ولك. من خلال الاعتراف بقصتهم، ستريحهن من العبء والألم، وهذا ما سيخفف من ذنبك وعارك.

الفصل الخامس: الغوص في ظلماتنا

- كيف أذيت الناس المتواجدين في حياتك؟ أي جانب من شخصيتك سبب هذا الأذى؟ هل تستطيعين النظر إلى هذا الجانب من ذاتك مباشرة ومن دون تقديم أعذار أو مبررات لما قمت به؟
- ما هو الشيء الذي تكرهه أكثر في شخصيات الناس؟ ما الذي تثيره هذه الكراهية فيك؟
- ماذا لو أنت أشرت بإصبع الاتهام إلى نفسك بدلاً من أن تشير به إلى ما لا تحب في الآخرين؟ ماذا يمكنك أن تراه إن أنت فعلت ذلك؟
- كم سيستغرق تحويل ظلك من الوقت؟ لا لتدمره بل لتحوّله. ما هي الحوافز التي تدفعك للتغيير؟
- هل يمكنك إظهار التعاطف مع ظلك؟ هل يمكنك استخدامه لإيقاد فتيل أفعال إيجابية محددة، لا أن تصبح ملتصقاً أو مترسخاً في ظلك؟

الفصل السادس: مسامحة أنفسنا أولاً

- لاحظي عندما ترفض سلوكك الغريزي تجاه تصرفات شخص آخر. ما الذي يدفعك لتجاهل غرائزك؟ أي جزء منك يخونك؟
- لدينا جميعاً شعور بانعدام الأمن، ولدينا مخاوف وهموم. أي جزء منك يشعر بالخوف؟ ما الذي يريده؟ ارتد هذا المكان الكائن في داخلك وحاول أن تفهمينه بصدق. عن ماذا يدور؟ وعندما تريه، تمسكي به وأحبيه فهو الذي يمكنه أن يرشدك إلى الطريق الصحيح المؤدي إلى صفح نفسك الحقيقي.
- انظري لهؤلاء الذين سببوا لك الأذى معظم حياتك. حاولي أن تري الجانب الذي يفتقد للأمان في داخلهم، حين تشاهدين الجانب الذي يفتقد للأمان في نفسك. لقد سببوا الألم في ألمهم، ورؤية هذا الألم هي الخطوة الأولى نحو الصفح عنهم.
- استحضري إلى ذهنك الأشخاص الذين سببت لهم الأذى في حياتك أكثر. إن امتلاكك لجزء من القصة هو مهم، ولكن من المثير أن تجلس في مقام ذليل إذ أن ذلك يتطلب شجاعة وأصالة. تخيل بأنك جالس أمامهم وتطلب منهم الصفح، قم بذلك، لا لأنهم طلبوا منك ذلك، بل لتزيل تلك الضوضاء من رأسك. وسيتيح لك إظهار التعاطف تجاه الآخرين عندما يتم عكس الأدوار.

الفصل السابع: التخلي عن السيطرة

- ما الذي تريد أن يحدث في حياتك ولم يحدث على النحو الذي تريده؟
- هل ظهرت، في التعريف عن نفسك، في كل الأساليب الممكنة لجعل طموحاتك وأحلامك تتحقق؟ هل لم تنو فقط بل اكتسبت المهارات والخبرات الضرورية أيضًا؟
- بغض النظر عن طريقة إجابتك على الأسئلة أعلاه، تراجع خطوة للوراء كي تأخذي نفسًا. لا تقومي بأي جهد لتحقيق أهدافك المستقبلية. عوضًا عن ذلك، كوني حاضرةً في اللحظة. يمكن أن تلاحظ الأرق والقلق في نفسك الناجم عن عدم قيامك بأي شيء سوى الكينونة فقط. احتفظ بذلك الشعور وراقبه بدلًا من القيام بما اعتدت القيام به.
- لاحظي ما يحصل... فكرة أو بعض الكلمات أو شيئًا تتذكرينه عن نفسك أو عن شخص آخر. لاحظي ما الذي سيظهر. افتحي عينيك ولاحظي الجمال الاعتيادي حولك والأشياء التي ربما كنت تتغاضين عنها في تركيزك لتحصلين على ما تريد، ماذا ترين؟

الفصل الثامن: الحرية مهمة داخلية

- ما هو الشيء الذي لا يعجبك في مظهرك؟ ماذا تحبين؟
- من هو الشخص الذي تحب أن تشبهه أكثر؟
- ما السبل المختصرة التي تسلكها للوصول إلى المكان المبتغى؟ هل تسبب هذه السبل الأذى لك أم تسبب الأذى للآخرين؟
- أين تكون مستاءً في عاداتك الغذائية أم في تسوقك أم في علاقتك مع جسمك؟ كيف يمكنك العمل على خلق علاقةٍ بديلة؟
- تأملي وجهك، جدي نقطة يمكنك التركيز عليها وأمعني النظر من خمس إلى عشر دقائق. تحرّري من أية توقعات. افعلي هذا يوميًا وراقبي ما يحدث. قد ترين الكثير من الجمال لم تكوني تعرفين أبدًا أنه متوفر لديك طوال الوقت.

نبذة عن الكاتبة

أوردت منشورات رائدة تتراوح بين مجلة «نيوزويك» ومجلة «بيبول» اسمَ زينب سلمي مرارًا وتكرارًا كواحدة من النساء اللواتي يعملن على تغيير العالم. وكان آخرها مجلة «فوين بوليسي» والتي أوردت اسمها كواحدة من بين «مئة مفكر عالمي بارز».

أسست زينب في عمر الثالثة والعشرين “Women for Women International” وهي منظمة للناجيات من الحرب. ولقد نمت المنظمة تحت قيادتها وهي منظمة إنسانية مكرسة لمساعدة النساء.

وقد استمرت من ألف وتسعمئة وثلاث وتسعين إلى سنة ألفين وأحد عشر من منظمة تساعد ثلاثين امرأة لدى بدايتها إلى مساعدة ما يزيد على أربعمئة وعشرين ألف امرأة، ووزعت ما يزيد على مئة مليون دولار كمساعدات.

إنّ زينب مؤلفة للعديد من الكتب، بما فيها الأكثر مبيعًا بين عالمين: الهروب من الطغيان- الترععر في ظل صدام (بالمشاركة مع لوري بيكلند) والجانب الآخر للحرب: قصص النساء عن النجاة والأمل ولو عرفتني لأظهرت الاهتمام (مرفق بصور من تصوير رينيو ميفريدي)

نبذة عن دار نشر ساوندس ترو

إنّ ساوندس ترو دار نشر لوسائل الإعلام المتعددة، والتي تتمثل مهمتها في إلهام ودعم التحول الشخصي والصحة الروحية. نعمل في هذه المنظمة والتي تأسست في عام 1985 وتقع في بولدر كولورادو مع العديد من كبار المعلمين الروحانيين والمفكرين والمعالجين والفنانين الذين يتمتعون بالبصيرة في وقتنا هذا. نسعى جاهدين مع كل عنوان للحفاظ على الجوهر (حكمة العيش) المؤلف أو الفنان. إنّ هدفنا يتمثل في إيجاد منتجات لا تزوّد المستمع أو القارئ فقط بالمعلومات لكنّها أيضًا تجسد جودة نقل الحكمة.

أقول لأولئك الذين يسعون في إثر تحول حقيقي إنّ ساوندس ترو هي شريكك الموثوق. ستجد فيها ثروة من المصادر المجانية، وتحميل مجاني، وأدوات تعليم تفاعلية في موقع Soundstrue.com وهناك محفوظات خاصة أخرى على جميع عناويننا.

لتعلم المزيد، الرجاء زيارة موقع

[SoundsTrue.com /free gifts](http://SoundsTrue.com/free gifts)

أو اتصل على الرقم المجاني:

800.333.9185

«من المؤكد أنّ هذا الكتاب العميق في إنسانيته سيلقى صدًى عميقاً لدى النساء في العالم بأسره»

ايليف شافاق

مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعاً نذل اسطنبول وقواعد العشق الأربعون
وبنات الليل

«كتاب ذو بصيرة وفي التوقيت المناسب»

شارون سالبرغ

شريك ومؤسس لجمعية «Insight Meditation Society» ومؤلفة
كتاب «Real love»

«يبدو كبلسم لجروحنا المشتركة»

سارو جيرامان

مؤلفة كتاب «Froked»

«ربما ساعد هذا الكتاب في خلق جسور لعالم أكبر بكثير وألطف»

كلوريا ستينم

مؤلفة كتاب «My Life on the Road» - حياتي على الطريق وكتاب
«Revolution from Within» - الثورة من الداخل

«يُظهر هذا الكتاب ما هي إمكانية أي شخص راغب بإخلاص، بأن يكون جزءاً من تصورات جديدة
لتغيير العالم»

أليس ووكر

مؤلفة كتاب «The Color Purple» - اللون البنفسجي و «The
World Will Follow Joy» - العالم سيتبع الفرح

«إذا كنت تريد أن تعلم ما هي القوة الذاتية الحقيقية، عندها اقرأ هذا الكتاب. سيفتح لك عينك
الداخلية لجمال كيائك»

ديباك شوبرا، ميد

مؤلف كتاب «The Healing Self» - «العلاج الذاتي» وكتاب «
The Seven Spiritual Laws of Success» القوانين السبعة
للنجاح

«إنّه بالضبط ذلك الكتاب الذي نحتاج له لمخاوفنا التي تعصف بنا ولعالمنا المقسّم. اقرأه ومن ثم ساعد
في تحديد الطريق للآخرين»

آرينا هفيتنغون

مؤسسة لـ HuffPost ومؤلفة «On Becoming -
Fearless» و«Thrive» «عن أن تصبح ناجحاً وشجاعاً»

«تصرف هائل من الشجاعة»

ميشال ديتزيل سميث

مؤلف الكتاب الأكثر مبيعًا لنيويورك تايمز «Invisible Man Got»
«the Whole World Watching» الرجل الغير مرئي - اجعل العالم
بأكمله يراقب.

« إنَّها هدية قيِّمة لأيِّ شخص طامح بالعيش في حياة حقيقية وعلى أكمل وجه، وبتوجيه أساسي من
قادة كُرسوا لجعل حياة الآخرين بشكل أفضل »

دكتور سيدمان

مؤلف الكتاب الأكثر مبيعًا لكيفية: «How: Why How We Do»
«Anything Means Everything» - لماذا وكيف نفعل «أي شيء»
معناه كل شيء»